

علي النويشي
انتحار المشاهير

اهداء ٢٠٠٨

الاستاذ الدكتور/ خالد عزب

الاسكندرية

إنـتحار المشاهير

بسم الله الرحمن الرحيم

فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ

صدق الله العظيم

دار الأمين

طبع • نشر • توزيع

٨ شارع أبو المعالى (خلف المعهد البريطانى) العجوزة

تليفون / فاكس : ٣٤٧٣٦٩١

١ ش سوهاج من ش الزقازيق (خلف قاعة سيد درويش) الهرم

تليفون / فاكس : ٥٦٣٤٦٩٩

ص.ب : ١٧٠٢ العتبة ١١٥١١

الطبعة الأولى

١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م

رقم الإيداع ٢٨١٧ / ١٩٩٨

ISBN : 977-279-188-9

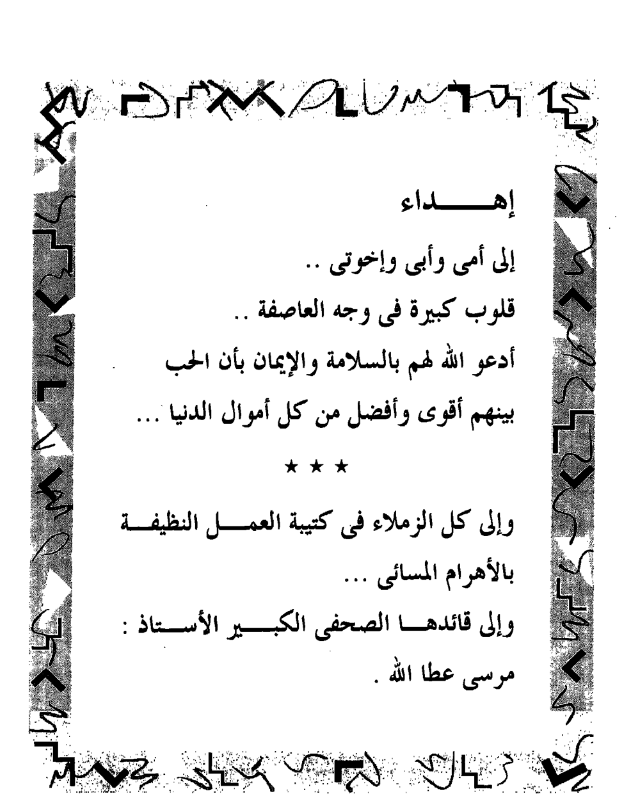
إنتحار المشاهير

تأليـــف

على النويشى

الناشـــر





إهـــــداء

إلى أمى وأبى وإخوتى ..

قلوب كبيرة فى وجه العاصفة ..

أدعو الله لهم بالسلامة والإيمان بأن الحب

بينهم أقوى وأفضل من كل أموال الدنيا ...

★ ★ ★

وإلى كل الزملاء فى كتيبة العمـــل النظيفـــة

بالأهرام المسائى ...

وإلى قائدهـــا الصحفى الكبـــير الأســـتاذ :

مرسى عطا الله .

مقدمة

أنظر لهذا الإنسان ، وأشعر بخيبة الأمل فى مشواره الطويل على الأرض .. فهو تعس بنفسه .. وتعيس بحياته .. فحياته هى حياته .. بل هى حياة كل الآخرين مع بعض الاختلافات الصغيرة !!

ويومه الأول هو يومه الأخير .. وتمر أيامه كالمسبحة بنفس التوالى ، كأوراق نتيجة على حائط الأيام تطير ورقة بعد أخرى .. بنفس الطبعة وطبق الأصل .. فهو يضحك ويبكى .. وينهض وينام .. ويحمل همومه وأحقاده على كتفه .. وآماله وأحلامه فى عقله ، ويمضى يكرر نفسه ، بلا ملل أحيانا .. بلا أمل غالبا .. هذا الإنسان الذى يملك قراره وحريته .. ويملك إرادته .. أتصوره كطائر مكسور الجناح .. حزين أحيانًا .. ومهضوم الحق ومغلوب على أمره دائمًا .. ومحكوم عليه بالعبودية فى دواليب روتين الحياة .. !!

أتصوره فى أسطورة حياته المكررة بملل .. وأتذكر أسطورة سيزيف .. التى حكمت عليه الآلهة بأن يرفع حجراً لأعلى الجبل .. وما إن يصل للقمة ، حتى يتدحرج الحجر لأسفل الجبل .. ويبقى سيزيف وإلى الأبد يصعد بالحجر ويهبط !! يسقط الحجر ومن خلفه يتدحرج سيزيف ، وهو يعمل بلا جدوى ولا أمل .. ولكن ماذا فعل المسكين لتحكم عليه الآلهة بلا جدوى ولا أمل .. ؟!

هذا البطل الأسطورى احتقر الآلهة ، وكره الموت وأحب الحياة بكل ما فيه من قوة ورغبة .. ولكنه دفع ثمن عناده وتحديه .. لقد ظل يصعد بخطوات ثقيلة وقوية .. وينزل مرة أخرى للعذاب الذى لا يعرف له نهاية .. يعيش بآلامه .. ويتنفس عذاباته ولا يشتكى .. ولكنه فى عذابه كان واعيًا بما يفعله .. وما فعله .. !

كان فى صعوده وهبوطه بطلا حتى النهاية .. وتراه الآلهة شامخًا بكل هذا العذاب والمقدرة .. تراه أقوى من صخرته التى لا تأبى إلا هزيمته .. ولكنه يكون أشد جلدا منها وهو فى نضاله لا يفكر فى الاستسلام لأن الاستسلام معناه الانتحار .. !!

ولأنه بطل كان لا بد وأن يصبح إله .. فماذا لو استسلم وسط الطريـــق .؟ أو كفــر بمقدرته على التحمل والتحدى .. هذا معناه كفره بقدره الذى يقف له معانداً محارباً حتـــى النهـــاية .

وكذلك الإنسان كتب عليه العذاب صاعدا وهابطا ، سعيداً وشقيًا ، وعليه أن يكمــــل مشوار الحياة ، بلا ملل ولا شكوى .

وأنه لم يكن إنسانا إلا لأنه جديرا برسالته التى أوكلها إليه القـــدر .

فطريق الحياة شاق وطويل.. ولن تُستحق هذه الحياة إلا لمن وصل لآخر المشوار .. ولكل إنسان على بساطته- أسطورة تطول سطورها بعدد حبات العرق الذى يبذلها خــــلال مشواره الطويل .. فإن كان الاستسلام خطأ.. فإن اليأس خطيئة .. وما بين يأس الإنســـان واستسلامه تنهار الأسطورة والتى من أجلها جاء إلى الدنيا ليكتب آخر سطورها .

وعلى الجميع أن يحاكوا سيزيف فى أسطورته .. فبدلا من أن يبقوا غـــارقين فـــى العذاب فعليهم ألا يستسلموا .

فسيزيف لم يتمرد على العذاب وحده .. بل وعلى من فرض عليه العذاب .. فكـــان أكبر من عذابه وآلهته .. وعندما ربطه الإله بالعذاب والقلق ارتفع علـــى كـــل صخـــور عذاباته .. وسمى على الإله نفسه ؟!

ولأنه عرف أين يكمن سر الحياة .. استحق المتعة فى الحياة .. والسكينة والرضا فى السموات .. !!

قد يتصور البعض أنه من حيث يبدأ الموت ، تنتهى الحياة ، وأن بين الحياة والموت خيطا رفيعا جدا يكاد أن يصل أحدهما بالآخر .

ولكن الحقيقة هى أن الموت حياة ، والحياة موت ، ولا فارق بين الاثنين ولكنهما معا مكملان لبعضهما .. فأنت تموت لكى تحيا .. وتحيا من أجل أن تموت .. فعملية الحيــــاة عملية ديناميكية بداخل الإنسان .. فأنت تحيا باستمرار ، ولكن كيـــف تحيـــا إلا إذا كنـــت تموت أيضاً فى نفس الوقت الذى تحيا فيه !!

وإذا كان الموت عملية استاتيكية ساكنة إلا أنها تحدث باستمرار .. فبداخل كل إنسان ملايين الخلايا التى تموت كل لحظة وكل يوم .. تموت لكى تحيا ملايين الخلايـــا علـــى الجانب الآخر .. !!

وهكذا إذا كنا نرى أن الموت يلازمنا كيفما سرنا وأينما حللنا ؛ فلماذا نهاب المـــوت أو نخافه ؟!

وإن كان الموت يسكننا ، ويعيش داخـــل أنسجتنا وأنفسنا ، فلماذا نعتدى على حقـــه فى العمل والاستمرار .. وعلى حق الحياة فى الوجود ؟

وعندما يكون الإنسان فى أحسن أوقات سعادته .. يكون معه الموت دائمًـــا .. ومـــا اجتمع حبيبان إلا وكان الموت ثالثهما ..!! فالعـــاشق يقول لمعشوقته .. أمـــوت فيـــك .. وهى تقول له .. أموت فيك .. وأتعجب أنا أيضًا وأقول.. ولماذا لا يقولان أعيش بحبك .. وأحيا فيك .. !!

فعلى أعلى قمة من الحياة .. وحيث يوجد الحب .. يوجد الموت أيضًا .. !!

فمن نبرة الحياة يكون الموت .. ومن جذور الموت تخرج الحياة .. والموت إن لـــم يأت طواعية ، سيأتى كرها .. ولا يوجد إنسان فى هذه الدنيا تكلم عن الحيـــاة إلا وتذكـــر الموت .. وأحلى لحظات السعادة يحرسها الخوف والموت.. وإن لم يكن بعمرها القصـــير فهما موجودان فى عقل وقلب كل سعيد لأنه خائف من طائر الموت الذى يـــأتى فجـــأة ، وعلى غير سابق موعد ، فيخطف الحب والأمل والسعادة .. !!

ومن دروب الموت وأذقته تنشأ أعظم قصص الحب الإنسانى الخالد .. حيث الحـــب فى أحضان الموت .. وحيث القبلات من فم النهاية .

" لمن تدق الأجراس " رائعة آرنست هيمنجواى .. والتى يتقابل فيها البطل " روبرت جوردان " وهو مهندس مكلف بنسف جسر ، يتوقف عليه انتصـــار الجمهـــوريين فـــى الحرب الأهلية الأسبانية .. وفى مغارة الجبل يلتقى " روبرت " و " وماريا " الفتـــاة التـــى شردتها الحرب .. وجعلتها ترى مصرع أسرتها أمام عينيها ، وتخسر كل شـــىء .. كـــل شىء حتى شرفها .. حيث الحرب وحيث كل شىء مباح .. وفى المغـــارة تلتقـــى الفتـــاة والمهندس ويسكناها - كلاهما جريح ومحبط ومقهور - ويمكن أن يكون قد ســـكنها مـــن قبلهما الذئاب وقطاع الطرق، ويجمعهما الحب ، ويقضيان معـــا ثلاث ليال حاسمة وهمـــا فى حب جارف ، حيث تهرب " ماريا " من الكهف ليلاً وتلقاه من فراشة بالخارج تحـــت المطر والبرد .. وهناك يجدا الحب ، بعيدا عن الحرب والخوف من المستقبل ..!!

والإنسان حيوان غريب .. يكره الفقر ويعشق هـدوءه .. ويحـب الشـهرة ويكـره نارها .. ويخاف المغامرة ، ويعبد المال .. وفى سبيل المال يدوس الحب ، وعندما يصـل إلى المال يرجع فلا يجـد الحب .. وما بين الخوف من المستقبل وتكـدس المـال يولـد الجشع .. وتموت فى الإنسان بقايا الحب .. ويجف ينبوع الذكريات .. !!

حيث الإنسـان ، لا إنسان .. بلا حب .. ولا ذكريات .. يصبح شيئًا آخر يسـتطيع أن يقتل نفسه .. !!

وإذا كانت الحياة ملء الدنيا .. فإن الموت لا تغرب عنه الشمس .. مـوت بلاييـن الأنسجة يوميًا فى الجسـم .. موت بلايين المجرات فى المجموعـة الشمسـية .. مـوت النبات .. موت الحيوان .. وأنت تموت من أجل أن تحيا و أنت لا تدرى !!

وأنت نفسك اليوم ، لست نفسك بالأمس ، كثيرًا تغيرت .. وكثيرًا تطورت .. ومـت لتحيا .. مات السيئ منك ، ليبقى المجيد فيك .. إذن لماذا تخـاف المـوت ؟ لمـاذا .. ؟ فالموت يسكنك .. وإن خفت جـاءك الموت سـريعا .. وإن تشجعت وأقدمـت تراجـع الموت وفر هاربًا .. واقتحام الموت هو حياة جديدة لك .. !!

والحياة هى صورة للرضا العاجز .. ولذلك يأتيها الموت أو الانتحار ليمثل نمـوذج السخط القوى ..!! وساعات أتصور الموت .. هذا الملاك الحزين ذا الوجه المسـتدير .. والعيون الذابلة هابطًا على الأرض كمسيح جاء ليخلصها من أوزارها وشرورها .. ولكنى أرجع وأقول .. الموت هو الموت .. والحياة هى الحياة .. وعندما يحل المـوت ، تبـدو الحياة كجوهرة غارقة فى الوحل .. !!

ولا أنسى على طول حياتى هذه الحكمة القاسية وهى تقول : " الموت هـو السـاقى الذى يقدم الخمر للناس ولا يتذوقها حتى لا يخطئ فى الحساب ..!! " .

☹ ☹ ☹

ونقطة النهاية هى الموت .. وهى عكس كل نقاط النهاية .. لا يعـرف لهـا أحـد موضعًا على الطريق ، ولا موقعًا على شريط الزمن .

وكلنا نعدو نحو النهـاية .. بكل ما فينا من أمل وألـم .. بكل ما فينـا مـن حـب وكراهية .

وعلى عكس كل طرق السباق .. يود كل متسابق أن لا تأتى نهايته أولا . فالنهايـــة يعنى الختام . والختام هنا لا يعنى الفوز .. بل دموع وآلام ووداع وضياع . ومـــع ذلـك تقول قوانين اللعبة : إنك لكى تكسب فعليك أن تجرى معصوب العينيـــن ، وإن فاجـأتك ضربة انهض وأكمل المشوار مع المجهول .. ولا تتوقف لشيء علـــى الإطـلاق .. لأن وقوفك لن يأتى إلا من داخلك فصفارة النهـاية لن تنطلق إلا مع آخر نفس . ومن فـــوق كل القوانين تقفز بعض القطط لتخطف صفارة النهاية من أيدى القدر .. فهـم لا يريـدون للصفارة أن يحملها ســواهم .. ولا تنطلق إلا من أفواههم.. إنهم لا يرون الحياة إلا كونها معركة حاسمة .. فـإما أن تغمد سـيفك فى صدر عدوك . وإن فشـــلت فلتغمـده فـــى صدرك .. منطق واحد لا يتغير .

" .. إن جئنا للدنيا بلا اختيار .. فلنرحل من هذه الدنيا باختيارنا نحن .. "

فالطريق مختلف ، والنهاية واحدة ، وإن تغيرت الأسباب وتعددت السبل .. منتهـــى الشجاعة والقوة والجسارة .. !!

☹ ☹ ☹

إن الحياة حدث ولكن الموت أعظم أقدارها .. وعندما يضيع جلال هذا القدر يتحول إلى حدث .. فالحياة والموت من الله .. وما بينهما أحداث تتراوح بين قليل من الجبريـــة وكثير من الحرية .. وعندما يتولى شخص ما أحد أعمال الله فيضع لحياته نهاية .. يتحول القدر إلى حدث تتجلى فيه آيات الدهشة والعجب والإبهار .. ولهذا يصبح الانتحار حـــدث تشرأب له كل الأعناق !! .

وإذا كان يرحل فى اليوم الواحـــد مئات وألوف من البشر .. نسـير فـــى جنـازتهم جميعًا .. ونحمل نعوشهم لعالم النهاية .. ولكننا لا نذكر من كل هؤلاء ، إلا مـــن اختــار نهايته بنفسه ، وحمل كفنه على كتفه وسار فى درب الحياة لا يلوى على شـــىء ، إلا أن يرحل متى أراد الرحيل .

وإذا كان موت الشخصيات العامة الفنية أو السياسية أو الأدبية المشهورة يعد حدثًا .. فإن انتحارهم يكون بمثابة القنبلة !!

☹ ☹ ☹

والمنتحر شخصيته مرهفة الإحساس والمشاعر ، تتسم بالأفكار الخلاقة التى تسمو بصاحبها لدرجات عليا من الفعل الذى لا يطيق الصمت وقت وجوب الكلام .. وعندما لا يملك أن يفعل شيء يموت واقفا كى ينتبه الغافلون !!

وإن كانت حياتهم جديرة بالإعجاب والتعجب .. فإن رحيلهم أحيانًا يكون أكبر علامة استفهام !!

علامة استفهام تبقى ماثلة على نقطة النهاية بلا تفسير .! وحكاية صديقى الذى علمنى كيف أقرأ ، وماذا أقرأ ! وعلمنى معنى القراءة ، وشكل الكتابة والتفكير هو إحدى تلك العلامات .. !!

كان مفعما بالحياة ، ومملوءاً بالأمل ، لم ير فى الحياة معركته ، ولم يأخذها على أنها نفق يتطلب السباحة ضد التيار لعبوره ، بل كان مؤمنا بأن الحياة تستحق بأن تعاش ، بكل أحزانها وآمالها ، بكل أفراحها وأطراحها ، بكل مافيها من سقوط وصعود !!

وكان قبطيًا مسلمًا ، عقله نافذة مفتوحة مشرعة على كل علوم الدنيا وكل ثقافات البشر .

وكنت أقابله فأجادله وينقاشنى ، بمنطقه الحاسم يأتى على كل ماحواه عقلى فيهدمه، ويمضى متواضعا بعقله ، شامخًا بقدراته ، وأبقى أنا حائرا كسيرا ، كسيح الفكر مبلبل العقل .. وفى لحظة يمسك بالخيط الرفيع الذى يفرق ما بين حق المعرفة وباطلها .. وبمنطقه العجيب يبدأ فى ترييب أفكارى من جديد ، ليمزج الماضى بالحاضر فى عجينة واحدة أرى فيها خبز المستقبل .

كنا معًا على طريق الفكر سويًا يهدمنى بمعوله ، ويبنينى بمنطقة ويتركنى ويذهب فأنسى كل شيء وأذكره هو .. !

وفى ليلة عيد الفصح دقت أجراس الكنائس ، واختلطت بأصوات المآذن .. فذهب هو للكنيسة ، وذهبت أنا للمسجد ، وصلينا فى لحظة واحدة لإله واحد أحد .. ونمت فى تلك الليلة كما لم أنم من قبل سعيداً بصديقى الذى يقول :

" ... إن لحظات السعادة أقصر من لحظات التعاسة .. ولكنها لحظات على قصرها جديرة لأن نشقى من أجلها أزمان للوصول إليها ... " .

إنها الجائزة يا صديقى وطريقها الحياة .. فلنغيرها بهدوء مرة ، وبشقاء مرة .. وبتعا ست مرات .. وإنك لن تصل لقرص الشهد إلا بعد مئات اللدغات .

كانت كلماته طيوراً وديعة أطير على أجنحتها إلى عالم الثقة والسعادة والتحدى ! ولكن ضاع كل شيء ، وتبخرت كلماته على سخونة الأحداث وجسامة وقوعها .. !!

لقد جاءنى الخبر فى اليوم التالى عاصفًا وعاتيًا ومدويًا ، ليدمر كل ما كان .. لقد رحل صديقى ومات منتحراً .. !! " .

☹ ☹ ☹

منذ ذلك اليوم وأنا فى صراع محموم وملاحقة لا تنتهى لكل من اختاروا طريق الموت الأكثر درامية . والأشد تعاسة والأكثر غرابة .. إن طريق الحياة شاق ، ومؤلم ، وكثير من الناس لا يقوون على تحمله .. فيفضلون الرحيل ولو كان رهيبا .. والفراق ولو كان أليما .. !! والانتحار شجاعة ، بل ومنتهى الشجاعة .. لكنه فى نفس الوقت أيضا لحظة تعاسة .. ولحظة يأس مميتة سيطرت على صاحبها ، ودفعته إلى حافة الهاوية .. ولذا كان كل انتحار سقوطا مروعا ، تتتابع أصدائه وتتلاقى ، وقد لا يمر وقت طويل قبل أن تهدأ أو تنام .. !!

☹ ☹ ☹

وإن كنا نعرف من ينتحر لجوع أو لفقر أو لعوز أو لرفض وتحدى لإرادته ، أو ينهى حياته لفلس أو لخسارة حربية .. فلأن كل شموع حياتهم هبت عليها رياح عاتية فأطفأتها ، وحاق بهم الظلام من كل جانب ، ولم يروا فى الموت إلا كونه طريقًا وحيداً أمامهم ولا بديل سواه .

ولكننا نعرف أشخاصاً عاشوا الحياة بطولها وعرضها .. وكانت حياتهم أعظم إنتاجهم .. وأروع إنجازاتهم .. بل كان إنتاج بعضهم أفضل ثمرات البشرية .

لقد دانت لهم الحياة بكل مافيها وما عليها ، فلم يشكوا ولم يملوا ، ولم يسأموا ، ولم يتألموا .. لكنهم اختاروا النهاية فى طلقة رصاص ، أو قرص منوم ينقلهم من عالم ملوه

إلى العالم يأملوه !! كانت حياتهم أسطورة الأيام ومحلمة الليالى .. إلا أنهم اختاروا طريق النهاية سريعا جداً .. !!

☹ ☹ ☹

هيمنجواى كاتب قرأت حياته عشرات المرات .. وقرأت كل كتاباته .. وحفظت بعض مقاطعها ، ومازلت مفتوناً بشخصيته المغامرة التى عشقت الحياة حتى الموت .. كانت حياته هى كتاباته .. اشترك فى أكثر من حرب .. خرج من الأولى وفى جسمه ٢١٧ جرحا .. ومن الثانية بساق شبه مبتورة ، وفى الحرب الأهلية الأسبانية كاد أن يقتل ويأسر أكثر من مرة .. ورصاص القناصة يطارده فى كل مكان .. ولكنه عاد وكتب .. وداعا أيها السلاح .

وعاش فى البحر أياما طويلة ، ينتقل فيما بين بلاده أمريكا وأعداء بلاده كوبا ، ليزور صديقه الزعيم فيدل كاسترو .. ويرجع من إحدى رحلاته ليكتب " العجوز والبحر " .

ويذهب إلى أفريقيا مغامرا فى غاباتها ، وإلى أسبانيا مصارعًا للثيران .. ويعود ليكتب ويحصل على جائزة نوبل للآداب .. ولكنه يصحو ذات صباح لينزل سلم بيته وفى البدروم تسمع رصاصة واحدة سلكت طريقها من فمه مخترقة رأسه .. لقد مات البطل .. أطلق النار على نفسه (!!) .

☹ ☹ ☹

ويأتى يوكيو ميشيما .. الكاتب اليابانى .. التى عمت شهرته الآفاق شخصاً متعدد المواهب ، كان ممثلا وكان بطل مصارعة .. ومخرج سينمائى .

ومع ذلك كانت خلاصة أدبه فى ثلاث كلمات " الموت ... والدم ... والانتحار .. " .

لم يكن انتحار ميشيما عملية فردية .. يهرب بها من نفسه أو من الآخرين .. بل كان انتحاره أمام ألف مشاهد .. وأمام كل وسائل الإعلام ، ليعيد لأبناء بلده ، ولكل بلاد العالم أسطورة انتحار " فرسان الهيراكورى العظام " .

لم يكن انتحاره أيضا إستجابة للحظة يأس طارئة .. بل كان عن سبق إصرار وترصد .. عندما عصب رأسه بالقماش الأحمر وبدقه شديدة لا تقل عن دقته فى

لبس " الكيمونو " ويأتى بسيفة ويرفعه أعلى جسمه ، وبكل ما فيه من حياة يغرزه فيهـوى فى لمح البصر من أعلى صدره حتى أسـفل بطنه ، ويأتى مساعده من خلفـه ليضـرب عنقه سبع ضربات متتاليات يفصل فيه عنقه عن جسده لماذا انتحر هذا الكاتب .. وهو لـم ينته إلا منذ ساعات قليلة من إرسال آخر جزء من آخر مؤلفاته الضخمة "بحر الخصـب" المكون من أربعة أجزاء ؟ .

هل كان انتحاره لعقيدة آمن بها ؟ أم لنزوة ألمت به ؟ وإن كان لا هـذا ولا ذاك .. فلماذا ينتحر ، وهو فى قمة عطائه الشخصى والقومى ، كأديب ترجمت كتبه لكل لغـات العـالم !!

☹ ☹ ☹

ويموت " فان جوخ " وهو يخشى ألا يجد ثمن الخبز اللازم لبقائه على قيد الحيـاة .. ولم يبع فى حياته كلها سوى عشر رسومات لم يتعد ثمنها جميعا مائة دولار !

وفى الخامس عشر من مايو ١٩٩٠ طيرت وكالات الأنباء الخبر التالى .. " بيعـت اليوم لوحة " دكتور جاشيه " للفنان الراحل " فان جوخ " بمبلغ ٨٢,٥ مليـون دولار .. ! ولن نتساءل عن انتحـار هذا الفنان الضخم الموهبة القصير القامة ، فحياته كلهـا كـانت حلقات محكمة من التعاسة المؤلمة ، منذ الميلاد وحتى وضع لها نهاية أليمة كانت جديـرة بكل هذا الكم من الشقاء والعذاب !! خرج من بيته صغيراً إلى المدينة الكبيرة باحثـا عـن لقمة خبز تسـد جوعته .. وكان لصراحته وكرهه للنفـاق أن أصبح طريد كـل مكـان يذهب إليه .

ولم يجد قلبا حانيا ينظر له بصدق وإنسانية إلا بين عمال المناجم المرضى ، الذيـن ملأت التعاسـة حـياتهم " وهم يعيشـون فى جـو وظروف أقـل ما توصف به أنهـا لا إنســانية .. لقد شعر بينهم بالدفء لأول مرة ، فأحبوه لطيبتــه ، وقبلـوه لأن يكـون واعظا لهم .. ولكن ترفض الكنيسة أن تدخله جنة الله وترفض قبوله واعظا لأن العمـال أحبوه ، عندما نزل هو إلى مستوى معيشـتهم ليتألم بآلامهم ، ويعانى مأساتهم .. فـأحبوه لذلك والتفوا من حـوله .

لقد طرده القسس من بيتهم .. وطرده الله من بيته .. فلم يكن أمامه طريقا آخر سوى الموت !! فقد يجد الراحة فى النعش ، طالما ضنت بها الدنيا عليه " .

☹ ☹ ☹

ومارلين مونرو .. أسطورة القرن العشرين .. رمز الحب والإغراء.. تزوجت من أشهر كاتب مسرحى أمريكى.. وكانت صديقة لرئيس الولايات المتحدة الأمريكية " جون كيندى " وشقيقه " روبرت كيندى " وزير العدل .

وكانت معبودة الجماهير وفتنة الشباب .. ونجمة الشباك الأولى .. !

ومع كل ذلك لم تطق الحياة .. فصرخت قائلة " سئمت الحياة " .. وفى ذات صباح تدق كل آلات التيكرز فى لحظة واحدة " موت مارلين مونرو " وتكون كل ما نشيتات الصحف الأمريكية وغلاف المجلات الأولى " مارلين مونرو " ملكة الجاذبية الجنسية .. والشهرة الواسعة .. والثراء الكبير .

ابتلعت كمية كبيرة من الأقراص المنومة .. وفارقت الحياة .!

وينتحر ألفيس بريسلى " ملك الروك أند رول .. الرجل الذى يملك أسطولا من السيارات ، وعددا لا يذكر من القصور التى كانت مقابض أبوابها من الذهب الخالص . وبكل قصر حمام سباحة خاص ، ودار سينما جاهزة للعرض فى أى وقت بأحدث الأفلام التى لم تعرض بعد .. وملعب رياضى ضخم .. وتنقلاته كانت فى طائرة خاصة .

كان ألفيس بريسلى معبود الجماهير ، ومعشوق الفتيات .. ولكن حياته كانت للطرب والموسيقى والغناء .. وكانت أغلى أمنية لأجمل فتاة أن تلفت نظر ألفيس إليها ، ولو بنظرة واحدة .. كانت الفتيات يقبلن الأرض التى يمشى عليها ، ويحتفظن بماء حوض السباحة الخاص به .. ويصبغن سيارته بأحمر شفاههن ، ويرتمين أمام العربة أيا كانت سرعتها .. بل وأخذن يطبعن على أجسادهن بالأسياخ المحمية الحرفين الأولين من اسمه " أ . ب " " لماذا ينتحر .. ؟ "

☹ ☹ ☹

ولماذا انتحرت داليـدا " بنت شبرا " ومطربة المليون اسطوانة ، تاركـة وراءهـا جرعات المنوم الثقيلة وورقة صغيرة تقول : " لم أعد أتحمل الحياة .. سامحونى " .

اقرأ كل سير المشاهير ، ويجذبنى هذا المثلث الغامض والخطير الذى يختبـئ بيـن ثناياها .. ولا يظهر إلا فى لحظة الاقتراب منها والضغط عليها .. إن حياة كـل شـخص مهما كانت هى محيط ملىء بالعواصف والأعاصير التى تهب علـى السـفينة فيتفاداهـا الملاح بمهارة مرة ، وبالصدفة مرات .. ولكن تبقى هناك نقاط غامضة .. وهى تشبه إلى حد ما المجهول .. فمن يقترب منها تبتلعه بلا رحمة .. إنها دوامة موسى ، ومثلث برمودا الرهيب وهما يمثلان أكبر معانى المجهول فى أقسى حـالاته ! ووصول الإنسـان إلـى درجة الانتحار هى أعظم حالات المجهول .. فللموت الإرادى شجن أليم ، وإكبار معذب ، وإعجاب مخلوط بالمرارة ..

ومع ذلك فالانتحار هو الشيء الذى يميز الإنسان عن أى مخلوق آخر .. قـد يتفـق الإنسان مع كثير من المخلوقات فى أنه حيوان ناطق ، أو أنه حيـوان مفكـر ، أو حتـى إنسان له تاريخ ، يستفيد من تجاربه ، ويتعلم من ماضيه لمستقبله .. ولكن أبـداً لا يتفـق الإنسان مع أى مخلوق آخر فى كونه " أنه يستطيع أن يقتل نفسه " .

والإنسان مثل الحيوان يقتل ويقاتل ، وقد يقتله الآخرون .. تمامـا كالحمـار الـذى يتشاجر مع حمار آخر ، وقد يجهز عليه غريمه فيرديه قتيلا .. ولكن أبداً لا يقتل الحمـار نفسه .. وقد تأكل القطة أولادها .. إنما لا تأكل نفسها .. !!

إنها الحياة فى أعلى أنانيتها .. ولكن الإنسـان قد يتخلى عن هـذه الأنانيـة بعـض الوقت !!

ولقد نحت سـارتر هذه الحكمة بكل ما فيه من فكر ، وبكل ما به من عرق وجهـد : " إن الفرق بين الإنسـان والحيوان ، هو أن فى استطاعة الإنسان أن يقتل نفسه ، بينمـا الحيوان لا يستطيع ! " .

ومع ذلك لم يقتل سارتر نفسه .. فهو يقول عن الحياة ... " إنها ماسـخة الطعـم ، ونحن نحيا ولم نستشر فى الحياة .. وكأننا نتجرع الحياة من غير عطش .. " .

ونحن نطمع فى المستحيل .. ولا نحصل إلا على الواقع .. ورغم أننا نعـــلم ذلــك تماماً .. فإننا نقبل على الحياة كأننا نعيش أبــداً .. !! ولا نستطيع التنازل عن المطلـــق ، مع أننا نعيش العمر الذى ينتهى !! .

ومع اكتشـــاف الموت يحس الإنســـان أنه جريح بجـــرح يتربص به ولا يندمـــل .. ولا يتوقف عن النزيف .. حتى يصرعه النزيف .. والنزيف هو نفسه الحياة .. !!

أما فرانسوا ساجان فتقول إن البطل يصل إلى نقطة الخطر عندما يبدأ فى تصديـــق الأسطورة التى تحوطه ويعمل على تحقيق ما تصوره.. وكان بوريس فيان يقول : نحـــن نقضى حياتنا متنكرين .. فالخير إذن أن تحسن التنكر .. فلا تحتاج إلى قنـــاع .. وتقـــول ساجـــان فكرت فى الانتحار كثيراً .. وأردته عندما سقطت سيارتى فى حفـــرة وانقلبـــت فوقى .. لقد كنت أعتقد أنى فى حصن من كل سوء .. وكنت أعتقد أنه لا يمكن أن أصاب بالمرض .. ولكن شجـــت رأسى فى الحادث وكسر معصمى ، ومعه إحدى عشر ضلعـــاً من ضلوعى ، وكسرت عظمة كتفى ، وأصيبت فقرتان من ظهرى .. وصلى على القـــس الصلاة الأخيرة .. لولا أخى الذى رفض أن أموت على تلك الصـــورة . فطلـــب ســـيارة ونقلنى إلى باريس ، ولم أستطع المشى إلا بعد ثلاثة أشهر ، وبعد عشـــرات العمليـــات ، فكنت أعتقد أنى سأقضى بقية حياتى كسيحة ، وتملكنى خوف شـــديد ، واســـتمرت الآلام شهوراً وكنت أتعاطى خلالها المسكن ، والمخدرات بكثرة ، حتى أدمنت عليها .. وكنـــت أبكى بغير سبب .. وقرر الأطباء أن أدخل بيتاً من بيوت التمريض لأتخلص من الإدمـــان والمسكنات .. ولكنى لم أســـترد العافية .. وحاولت الانتحار .. !!

والعمل الأدبى هو أكبر تعبير عن ذات الأديب ، وانعكاساً لشخصيته ، وترجمة لمـــا يعتمل فى نفسه من هواجس ، وقد يرى الأديب فى بعض أعماله أنه لا يريد للمـــرء أن ينهى حياته فى لحظة استجابة لنداء القدر القاسى .

وقليلاً ما تنتحر الأمهات .. ولكن خلق لنا البيركامى ، هذا الحدث من تلك المأســـاة الرهيبة التى جسدتها مسرحيته " سوء التفاهم " والتى يقول مـــن خلالهـــا .. إن للإنســـان تطلعاته للسعادة .. ولكن غالبا ما يقابله سوء تفاهم يؤدى غالبا ودائمـــا للمـــوت أو النـــدم والانتحـــار ، فهو عمل يظهر فيه هذا التجســـيد الرائع لشوق الإنسان إلى الســـعادة فـــى عـــالم لم يخلق وطنا لها .

والتى تقول أيضاً إن للقدر سخرياته المفجعة ، وله انتقاماتـــه والتـــى لا تضارعهــا مرارات أكثر التراجيديات سوداوية وقتامة .. لقد عاشت " مارتا " بطلة هـــذه المســـرحية تحلم باليوم الذى تستريح فيه من عناء الخدمة فى الفندق الريفى المنعزل ، التـــى كـــانت تمتلكه أمها .

عاشت مارتا تحلم بالحياة الرغـــدة وبالآمال التى تداعب قلوب العـــذارى .. وكـــان مرور الأيام يزيد من هذا العار ولهفته .. وارتكبت فى سبيل تحقيق هذا الحلم جرائم عديدة بقصد جمع الأموال .. وعندما خيل إليها أن كل شىء أصبح فى قبضة يدهـــا .. المـــال ، والسعادة والمستقبل.. وأن الأمانى قد دنت من التحقيق صفعها القدر فى قسوة عنيفـــة ..!! كانتا الأم وابنتهـــا قاتلتين عريقتين فى الإجـــرام .. قد استمدتا قســـوة القلب مـــن قســـوة الحياة .. وكان كلما حل بفندقهما ضيف وحيد غنى قدمتا إليه المخدر فى قـــدح الشـــاى ، حتى إذا ما فقد وعيه ، جردتاه من أمواله وأوراقه ، وحملتاه إلى النهر فغيبتاه فى جوفـــه وســـره معه !

ديفيد جان – نزيل جديد – تقدم إليه ماريا أخته – الذى لا تعرفه وهـــو يعرفهـــا – الشـــاى على الرغم من أنه لم يطلبه ، وتخرج ، ولا يكاد يفرغ فى جوفه محتويات القدح حتى يقـــرع الباب بشـــدة ، وتدخل الأم – التى لا تعرفه هى أيضـــاً وكـــانت أحاسيســـها تردها عن القيام بهـــذا الفعل – لكى تحاول أن تمنعه من احتســـاء القدح ، ولكنها حيـــن تراه قد شـــربه تدرك أنه لا جدوى من محاولة إنقـــاذه !

يغرق ديفيد فى النوم ، ويقبل الليل .. وتدخل المرأتان ، وتحاول الأم للمرة الأخـــيرة أن تثنى ابنتها عن اقتراف الجـــريمة .. ولكن هذه تزداد إصرارا ، وتنتزع حافظة جـــان من جيبه ، فتخفى ما بها من نقود ، بينما تسألها الأم أن تجلس قليلا ، فتهتف مارتا !

هنا بالقرب منه ؟!

الأم : أجل ولم لا ؟

مارتا ليس لدينا من الوقت الكثير .....

وتعـــود مارتا فى صباح اليـــوم التالى، وتبـــدو سعـــيدة بما ينتظرها ؛ ألا خبرينى يا أماه : أترييننى لا أزال جميلة ؟! وبعد قليل تخرج الأم ، ويعثر الخادم على جواز ســـفر

الابن ، فيفتحه ويتفحصه ، ثم يقدمه مفتوحًا إلى مارتا التى ترفض أن تأخذه .. ولكن يـــد الخادم تظل ممدودة به حتى تأخذه ، ويتركها وحدها ويخرج .

وتقرأ مارتا جواز السفر وتتجمد فى مكانها دون أن يبدو عليها أثر لأى انفعال ، ثـــم تنادى أمها ، وتعطيها إياه !

وتقرأ الأم بدورها ، وتتسمر عيناها على الكلمات فى صمت رهيب ، ولا تلبـــث أن تقرر أمرًا ، ويدور بينها وبين ابنتها هذا الحوار الأليم .

الأم : ويحى ، لقد كنت أعرف أن الدائرة ستدور هكذا يومًا !

مارتا : أمـــاه !

الأم : دعينى يامارتا ! لقد عشت ما يكفى .. عشت كثيرا أكثر من ولدى ، وليس هذا من نظام الطبيعة .. الآن أستطيع أن أنضم إليه فى أعماق ذلك النهـــــر ، حيـث تغطــى الأعشاب وجهه !

مارتا : أماه ! .. لن تتركينى وحيدة ؟!

الأم : إن قلبى الهـــرم ، الذى كان يعتقد أنه بمنجاة من كل شـــىء ، يعـود اليـوم فيستشعر الألم .. وعندما تعجز أم عن التعرف على ولدها ، فإن دورهـــا علـــى الأرض يكون قد انتهى ! وتخرج الأم حيث تلقى مصيرها بجوار ابنها فى جوف النهر !

وحينئذ يجن جنون الابنة .. !! وهى تتذكر الأحلام المنهارة ، والبحر الذى عشـــقته وتمنت أن تعيش على شطآنه ، حيث الشمس والهواء الطلق والحرية .. وتتمثل لها وحدتها الرهيبة .. فتقرر أن تقتل نفسها هى الأخرى .. !!

☹ ☹ ☹

كان أريستوفـــان عميد كتاب الكوميديا ، وشاعر الإغريق المرح علـــى حـد قـول فولتير ، يضحك كى يمنع نفسه من الانتحار .. وقد حول مأساة الحياة إلى مزحة وفكاهـــة وقلب جدها هزلا وتهريجا ..

ويقول اهرنبورج عن هيمنجواى المنتحر : لو أن غريبًا رأى هيمنجواى فى أســـبانيا لظنه بوهيميا رومانتيكيا ، شارب خمر ماجنًا قناص وحوش أو صياد حيتان والحـــق . إن

هيمنجواى كان يعمل بلا كلل .. وكان هيمنجواى يقول : لا بد من العمل حتى لا نستسلم للملل . ولو لاحت لى صفحة مما كتبته باهتة . أمزقها على الفور وأعيد كتابتها خمس مرات أو عشرا .. وذات يوم قال له هيمنجواى .. " إن الأشكال تتغير بلا شك ، ولكن الموضوعات .. إن موضوعات أى كاتب فى العالم لا تتغير .. وتستطيع أن تعدها على أصابع يدك .. إنها الحب والموت والعمل والقتال وكل شيء ينطوى ويدخل تحت هذه الموضوعات حتى الحرب والبحر .. !!

وإذا كان هيمنجواى يرى أن النجاة فى " العمل " فإن سيمون دى بوفوار ترى أن "الحب" هو الطريق الثانى للخروج بسلام من هذه الحياة .. فلقد اكتشفت أن دواء الملل هو الحب .! ودواء الوحدة هو المشاركة .. فضلا عن أنها اكتشفت هذا المعين الذى لا ينضب من المتعة والعمل .. !!

العمل .. الانطلاق .. التحرر .. المسئولية .. فالحل الوحيد للحياة ليس هو الاستسلام ليأسها المرير.. أو لتعاستها التى تتربص بنا .. والحل هو ليس أن نحيل أنفسنا أو أجسادنا على الاستيداع .. أى على اللذة المغرقة .. بل الحل بعد أن ننهض وأن نفيق وأن نصحو ونحن نتجرع الألم ونحن نبتلع آلامنا ، كما نتناول حبات الأسبرين .. لقد اكتشفت سيمون دى بوفوار أن تقبُل الموت فى شجاعة هو إنهاء للموت إحتجاجاً عليه .. أن تختاره بشجاعتك ، خير من أن تستسلم له ، كما تستسلم الماشية للسكين .. ومن هنا كان إيمانها بأن الحياة جديرة بأن تعاش .. ومع هذا اللغز العادى كما يقول الأستاذ كامل زهيرى فإن الإنسان يحيا ويموت ، وتبدو روعة الحياه ومتعتها وكرامتها . فالإنسان يستطيع أن ينهض من وحشته ، ومن قدره المتربص به ليعيش حياة فاضلة جديرة بأن تحمل هذا الإسم !! .

والمنتحر دائما يقف وحده .. لا أحد يدرى به .. ولا أحد يهتم به .. ولا أحدا يعنيه.. يولد غالبا وحده .. ودائما يعيش وحده ولو فى وسط الناس.. وعلى طريق الحياة يقف وحيداً .. يتسول أو يتعلم أو يشتهر ويموت .

فالانتحار هو شعور بالوحدة أولا .. فصاحبه يشعر بأنه دائمًا فى خطر .. يحمل همه وحده ، وقد تكتب له النجاة لو مضى بهمه ، فقد يحمله عنه غيره .. ولكنه يقف فى جانب الطريق وحيداً بعيداً عن كل الناس ولذلك ينزلق سريعًا إلى حافة الانتحار ، وعندما

يقف الإنسان وحيدا بهمه .. فريدا بقدره .. تنهار أعصابه ، ويصاب تفكيره بالشلل .. وقد يرتكب جريمة لينجو .. وقد ينتحر لينجو أيضاً .. !! .

الكاتب الأمريكى أرثر ميللر قال عن زوجته مارلين مونرو المنتحرة : " كانت تقسم الناس قسمين ، إناس قادرون على إيذائها .. وإناس قادرون على إيوائها " .

وهذه هى طبيعة الفتاة الخائفة المذعورة .. الفتاة التى تخاف الناس ، ومن كل شىء حولها .. إنها الخائفة الصغيرة .. ولدت صغيرة .. وماتت صغيرة .. وبقيت طول حياتها وحيدة مذعورة ، لا تعرف لها أبوين .. وإن سألها أحد عن أبيهما ؟ قالت : مات منذ وقت طويل .

إنها كانت تطلب دائما الأمان والحماية من كل من حولها .. ولكنها لم تجد من كل من قابلتهم سوى القسوة والرغبة الجائعة .. لقد هربت لتصبح وحيدة للمرة الألف أو المليون .. ودخلت الدير وخرجت منه لتدخل الاستديو لتجلس وحيدة صامتة بالساعات الطويلة أمام الرسامين .. ولتقبل أول رجل يقول لها " أحبك " وتتزوجه فوراً .. كانت تبحث عن الأمان ولو فى رقبة رجل .. أى رجل !! ولأنها لم تطمئن تركته بعد شهور .

☹ ☹ ☹

إن الناس بقسوتهم وسوء فهمهم يخلقون الوحوش التى تفترسهم ، ليهربوا منها ، ويصبحوا هم فى النهاية ضحايا أنفسهم ، أو ضحايا صناعتهم !!

فكل وحش بداخله يحتاج إلى لمسة حنان إلى كلمة طيبة .. إلى ابتسامة رقيقة ، وفى الحال سيتحول إلى ملاك طيب .. يرقد حتى يركبه الطفل الصغير ويسلس قياده ويخلع أنيابه ويقلم أظافره .. ولكن لأن كل إنسان غبى .. أنانى .. قاسى .. لا يريد للمعذبين أن يهتدوا .. فعزاؤه أن يبقوا فى شقائهم ، حتى يرى فى قسوتهم وعذابهم كم هو طيب وحنون وجميل ورسول وإله أحياناً .. أعتقد أن " فرانكشتاين " هذا الإنسان الضخم المخيف .. لو وجد من يبتسم له لاهتدى فى الحال .. كان فرانكشتاين بشع الوجه والخلقة ، مع أنه لم يكن مسئولا عن شكله .. ولذلك كان يتعذب لأن الناس يخافون من بشاعته ، ويفتحون أفواههم ويهربون من وجهه .. وكان هذا الإنسان المخيف المفزع يتمنى أن يجد إنساناً يعطيه بعض الدفء .. قليل من الثقة .. والرغبة فى صداقته دون

أن ينظر إلى وجهه .. كان فرانكشتاين يتعذب لأنه لم يكن مسئولا عن شكله – تماما كمارلين مونرو – لقد عرفت أن الجمال لعنة .. والفتنة جحيم .. ولكن ما ذنبها أنها جميلة ؟!! ولماذا لا يعاملها الناس على أنها إنسان ، وليس على أنها دمية ؟!! وتذكرنا مأساة مارلين مونرو ، بثعلب الأسطورة القديمة عن الطائر الصداح ، الذى سيسكن برج المملكة ليتغنى حتى لا ينهار البرج ، والذى هو " رمز الملك والعرش " فقد رأى الملك فى منامه أن البرج لن يستقيم إلا إذا حضر هذا الطائر .. وكان له ثلاثة أولاد أوفياء محبين له ، فذهب الأول يبحث عن الطائر ، فوضع بلاد ووضيعته بلاد حتى وصل إلى مفترق طرق مع غروب شمس النهار .. فخرج له ثعلب من مكان لا يعرفه وأدهشه أن الثعلب يتكلم ويقول : أيها الضيف اسقنى من مائك وأطعمنى من طعامك .. !! لكن الأمير نهر الثعلب وضربه ، فالتفت الثعلب للخلف فجأة ، وعلى الفور تحولكل من الأمير وحصانه وكلبه إلى ثلاثة تماثيل من الرخام .. ومرت شهور ولم يعد الأمير ، فحزن عليه والده وبكته كل المملكة .. ورأى الابن الثانى أن العرش مهدد بالضياع إن لم يحضر الطائر الصداح ، فاستحلف والده بأن يسمح له بالذهاب للبحث عن هذا الطائر .. ويرفض الملك ولا ييأس الأمير .. وبعد محاولات يرضى الأب .. ويمتطى الأمير حصانه ويصحبه كلبه وينطلق الثلاثة إلى حيث المجهول .. ووصلوا إلى نفس المكان من مفترق الطرق ، وفى نفس موعد الغروب حيث التماثيل الثلاثة ، فينزل الأمير من على حصانه ويشعل ناره ليأكل ويستريح .. ولكنه يفاجأ بالثعلب يقول له : أيها الضيف اسقنى من مائك .. وأطعمنى من طعامك .. ويجرى الأمير خلف الثعلب ويرميه بحجر ويضربه بعصاة .. ويلتفت الثعلب ، ويتحول الأمير وكلبه وحصانه إلى تماثيل .. !! ومرت سنوات على المملكة الحزينة والابن الثانى لا يعود أيضا .. وابيضت عينا الملك من الحزن .. وكان الأمير الثالث قد شب عن الطوق وأصبح رجلا هو الآخر .. ومرت سنوات طويلة حتى استطاع إقناع والده بالذهاب للبحث عن أخويه وإحضار الطائر الصداح ...

وعندما وصل إلى مكان التماثيل الرخامية جلس ليستريح ، وبرز له الثعلب من تحت الأرض ..

وقال له : اسقنى من مائك .. وأطعمنى من طعامك.. فتعجب الأمير من الثعلب الذى يتكلم بلغة البشر ، وشعر بأن فى الأمر شيئًا خفيًا .. فسمح له بأن يأكل معه ويشرب ..

وفجأة .. أصبح الثعلب شابا يافعًا ضخم الجثة قوى البنيان .. فتعجب الأمير لهذا الأمر .. وطلب من " الرجل الثعلب " ، أن يحكى له حكايته ، ويطلعه على سره ..

فشكره الشاب كثيراً ، وقال له أنا أمير ابن أمير ، ولكن حقد على الساحر وسحرنى إلى ثعلب ..

وقال لى لن ترجع إلى هيئتك إلا إذا عطف عليك شخص ما .. !!

ولكن من ذا الذى سيعطف على حيوان عرف عنه المكر والدهاء والخديعة .. ؟!

وكنت أنت هذا الشخص الطيب .. وكنت أنا فى حاجة لنظرة حنان واحدة .. وكلمة طيبة ، ومعاملة كريمة تعيدنى لإنسانيتى .. !!

ولو وجدت مارلين مونرو الحنان والعطف والابتسامة المخلصة ومعاملتها كإنسانة لها احتياجاتها ولها تطلعاتها ونزواتها .. إنسانة فى حاجة لمن يفهمها لا لكى يغتصبها .. لو أعطوها هذا .. ما توفيت ولا رحلت .. ولكننا بغباءنا وضعنا الوردة فى حوض من الذهب ، وملأناه بالبارفانات فاختنقت الوردة وماتت !!

لقد كانت مارلين تنوى أن تعطينا أعظم مالديها .. ولكننا رفضنا أن نعاملها كإنسانة .. فأجهضنا موهبتها .. وابتسرنا قدراتها .. فضاعت وإلى الأبد .. !! .

وعندما يسأل الله الشيطان فى " فاوست جيته " ! ألم تجد إنسانًا واحدًا على الأرض طيب .. ؟!

ويجيب الشيطان " مفيستو " : ولا واحد !

البشر جميعًا أشد وحشية من الوحوش .

وكان " فاوست " عالمًا تقيًا ورعًا كل همه البحث عن الحقيقة فيسأل الله : حتى فاوست !!

ويجيب الشيطان لا يختلف فاوست عن بقية البشر ، ولكى يثبت الشيطان صدق نظريته ، يعرض على الله أن يتخلى له عن فاوست فترة كى يجربه .. ويقول : اعطنى فاوست أيها الإله فترة قصيرة وأنا كفيل بإفساد روحه إلى الأبد ..

ويقبل الله الرهان !!

على الجانب الآخر كان فاوست " يجلس على منضدته حائراً يصرخ .. من أنا ..؟!

وماذا تعنى الحياة ؟ .. وماذا أساوى ؟!

لقد هضم عقله علوم الفلسفة والقانون والطب والأديان ليصل إلى سر الحياة وروح الأرض والتى أخذ يناجيها قائلاً :

أيتها الروح التى يحيط وجودها الأرض الواسعة كم أحس بالتقارب بين طبيعتك وطبيعتى .. !! وترد الروح : أيها الإنسان إنك مثل سائر المخلوقات التى يستطيع عقلك أن يصورها ولست مثلى .. وتختفى روح الأرض كما ظهرت ، تاركة صدى كلماتها تدوى فى عقله ، فتقضى على آخر آماله فى الحياة .. !!

فبرغم العلم والمعرفة التى غمر حياته فيهما حتى قرأ كل ما خطته أيدى بشرية .. برغم كل هذا لم يعرف من هو ؟ وما هى الحياة ؟!

فيقف ويصرخ .. من أنا حتى أطاول الآلهة ؟

إننى .. أرتجف ويصرخ .. من أنا حتى أطاول الآلهة ؟

إننى أرتجف وأنا أحس وطأة الشعور بضآلتى .. إننى كالدودة الحقيرة ، من التراب خلقت .. وفى التراب أعيش .. فهل أجد هذا العلاج الذى أبحث عنه ؟!

ويرنوفاوست ببصره الشارد وهو غارق في تأملاته إلى قارورة صغيرة تحوى سما زعافًا ..!!

ونسمعه يناجى القارورة :

" ... مرحباً بالشواطئ المجهولة التى سوف تنقلنى إليها محتوياتك المميتة .. وفيما هو يشرع برفعها إلى فمه .. يسمع أجراس عيد الفصح تدق من بعيد .. ويسمع فى سكون الليل صوت فتيات الجوقة وهو يتهادى إلى أسماعه عبر النسيم .. وهن يغنين لحنًا ملائكيًا عذبًا .. تهتز له أوتار قلبه .. فتعاودوه ذكريات حياته .. ومظاهر فرحته بالعيد .. ويلمع الدمع فى عينيه .. وينحى قارورة السم بعيداً ، ويصغى إلى دقات الأجراس !!

وبعد أن يقبل الله رهان الشيطان ..

يبادل الشيطان فاوست بأن يسلم له نفسه ، مقابل أن يمنحه الصحة والشباب ، والمتعة .. وتنقلب حياة العالم الباحث عن الحقيقة رأسًا على عقب ، ويصبح فتى فاجرًا طائشًا لا هم أمامه ولا من ورائه إلا السعى وراء نداء الشهوات .. وتنقلب حياته من شك لضياع لانتحار على موائد الشهوات ..

وغابت عنه السعادة .. فالسعادة فردوسه المفقود .. وهو يبحث عن الحقيقة .. ومازال يتخبط بين نزوة وشهوة وغرام وضياع ..

إن فاوست برغم علمه لم يعرف أن السعادة الحقة ..فى أن تعيش من أجل الآخرين ، وأما ما عدا ذلك هو أنانية وانتحار !!

يقول جان بول سارتر : " فى بعض المواقف لا مكان إلا لتبادل حدين أحدهما الموت " !!

ويحيا الإنسان على أن يتصرف بحيث يستطيع فى كل حالة أن يختار الحياة .. والحياة جحيم ومحاولة الخروج منها معناه العدم !!

وعبثًا يحاول الإنسان الخروج .. فالباب مفتوح ، ولا حارس هناك أو سجان .. ولكنه غالبًا ما يؤكد البقاء باختياره فى هذا الجحيم .. لأن الخروج " العدم " أفظع من الجحيم .. !!

وهذا هو عذاب الإنسان .. فالهروب من الحياة عدم .. والبطولة ليست فى الفرار .. ولكن البطولة فى الاستمرار .. والانتحار فى النهاية عدم وضياع .. !!

وحول هذا المعنى يقول " مالرو " :

" ... إذا كانت الحياة لا تساوى شيئًا .. فإن شيئًا – أى شىء – لا يساوى الحياة .." !!

هذه الحياة التى تحوى فى جوفها كل هذه القوى الضعيفة الصغيرة .. لكنها أيضًا – فى نفس الوقت – هى القوى العنيفة المدمرة .. !!

هذا " القمقم " الذى نسميه " الحياة " يحوى بداخله ملايين العفاريت التى تسعد وتحزن وترفع وتخفض وتحطم وتبنى وتدمر .. !!

فهل مثل هـذه الحياة تستحـق أن ينسحب الفـرد منها .. أو يتنازل عنها بلا مقابل ولا ثمن ..؟!

ولكن السبب فى تعاسة هذا الإنسان هو حيرته بين ما يريد ، وبين ما يستطيع .. إنه يريد أن يكون إله فى بعض الأوقات .. ونبى حسبما يريد ..

وشيطان فى كل الأوقات .. يريد أن يكون سعيداً ومغامراً ، وغنياً وقوياً .. !!

يتمنى كل هـذا ، وهو فى سجن لا يستطيع منه الخلاص .. ولذلك فهـو يحـلم ، وإن لم تتحقق أحلامه يصيبه الملل مرة ، والتمرد مرات ، ويبدأ فى تحطيم كل شىء فـى طريقه وإن لم يستطع يقوم بتحطيم هـذا السجن الذى يعتقله ، ويحول بينه وبيـن تحقيـق آماله .. وليس هذا السجن سـوى جسـده ونفسـه .. !!

فهو سجين نفسه .. وسجين ذاته .. وهو أيضًا السجن والسجين والسجان .. !!

ولذلك فالحياة تبدو تعيسـة مرهقة ومملة للكثيرين .. فبداخلنا سجون ، ومن حولنـا سجون .. وغباءنا وجهلنا قد يحـول أبواب هذه السجـون إلى أسـوار عالية لا تفتح ولا تغلق إن أراد السجان أن يفتح للسجين لكى يتنسم رياح الحرية .. وإذا كان الداخـل إلـى سجون الدنيا مفقـود ، والخارج مولود .. فهذه السجون لا خروج منها ولا ولادة .. ولكن الداخل مفقـود ، والخارج مقبور .. فلقد شهد الجميع جنازته يوم ولادته من بطن أمـه ، وتم دفنه فى تراب هذه الحياة وانتهى كل شىء .!!

وإن جاء البعض وحاولوا أن يفتحوا أبوابًا فى قلاع هذه السجون .. أو ثغـرة فـى جدار المجهول ، تنهال عليه الضربات من كل جانب .. ولن يجد أمامه إلا أن يختار بيـن طريقين !!

إما الموت وإما البقـاء خلف هـذه الجدران .. وإن رفض سـيموت فـى النهايـة انتحاراً ..!!

وإذا كانت الحياة عمل وأمل .. وكان الانتحـار كفر وخطيئـة .. فلمـاذا يهـرب الإنسان من الأمل إلى الكفر .. ؟!

☹ ☹ ☹

وإن كان الانتحار رؤية قصيرة المدى .. وعقل قاصر .. وقلب جاحد .. فلماذا ينتحر العلماء بكل ما حوت عقولهم من سعة أفق ونظرة بعيدة المدى ؟!

ولماذا ينتحر العشاق بكل ما فى قلوبهم من حب للناس وللحياة ؟!

وبقى هذا السؤال يؤرقنى طويلاً :

فالأديان حرمته ، ، فهو يأس من رحمة الله .. والقوانين جرمته . فهو اعتداء على نفس لها حق المواطنة والفلاسفة أنكروه فهو هروب وضعف وتخاذل .

ولكن إذا كان من غير المستغرب أن ينتحر البعض لمشكلة ما واجهتهم .. فإنه من الغريب حقًا ويقينًا أن تنتحر القلوب الشابة والعقول المستنيرة .. !!

سقراط لماذا انتحر ؟

وهل كان انتحاره هروبًا من تعذيب ؟ مع أنه كان فى إمكانه طلب العفو ، أو دفع غرامة ويفتدى نفسه .. أو الهرب بمساعدة تلامذته .. ولكن أصر على الانتحار بكل ما فيه من قوة العقل وعمق المنطق وحكمة الفيلسوف .. !!

ولماذا فضل الانتحار بين تلاميذه عشيًا وهم يبكون قائلاً لهم : "دعونى لأسترح" !! .

ولماذا انتحر " ماركى دى كوندرسيه " الكاتب الفرنسى الموسوعى الفذ صاحب المؤلفات الضخمة فى التاريخ والأدب والمستقبليات .. الذى ولد فى ١٧ سبتمبر ١٧٤٣م والذى قالت عنه " مدام دى لسبيناس " : إنه واضح ودقيق ، عادل ومتسامح ، يجمع بين سهولة التعبير ورشاقة الأسلوب عند " فولتير" وبين لذاعة " فونتنيل " وعمق "نيوتن " ويضيف إلى معارفه الواسعة الاستنارة والذوق الجميل . وإذا تحدثت إليه ، أو قرأت مايكتبه ، أو ناقشته فى الفلسفة أو الأدب أو العلوم ، أو الفنون أو نظام الحكم ، أو التشريح لقلت لنفسك مائة مرة إنك أمام عبقرية قل أن يجود الزمان بمثلها. فهو لا يجهل شيئًا حتى التفاصيل التى قد لا تتفق مع ذوقه أو مع شواغله . وتساعده على ذلك ذاكرة عجيبة تعى كل شيء ولا تنسى شيئًا قط .

وبرغم تنشئته الدينية التى تربى عليها فى بيت خاله الذى تكفل برعايته مع والدته إثر وفاة والده بعد ميلاده بأربعة سنوات فقط إلا أنه برع كثيراً فى علوم الرياضيات ، التى هيأته دراسته وأبحاثه لأن يصبح عضواً فى أكادمية العلوم وعمره ٢٥ عامًا فقط .

وكان لقاؤه بفولتير ١٧٧٠ نقطة تحول فى حياته والتى أصبح بعدها لا يقتصر فى دراسته على مجال الرياضيات بل تعداه إلى مجال السياسة والاجتماع والفلسفة والاقتصاد الاجتماعى .

وكان للمفكر الكبير " بسكال " مكانة كبيرة فى الأوساط الثقافية الفرنسية دفعت كوندورسيه لإعداد بحث عن " تمجيد بسكال " واهتم بإعداد طبعة جديدة لمؤلفه الخالد "الأفكار " .

وفى هذا البحث لم يخشى كوندورسيه من أن ينقد بسكال لعدم اهتمامه بعلوم التاريخ الطبيعى ، وأثار هذا النقد بعض السخط عليه فى الأوساط العلمية ، بل إنه كان من أسباب تعطيل انتخابه عضواً فى الأكادمية الفرنسية .

وعندما طلبت إليه أسرته ألا يتقدم لعضوية أكادمية العلوم لظنها أن الانشغال بالعلوم لا يليق بأسرة نبيلة . وكانت تفضل له أن يصبح قائداً فى سلاح الفرسان ولكنه لم يرضخ لرغبة أسرته إلا عاماً واحداً . وفى العام التالى تقدم لهذا المنصب وانتخب بالإجماع .

وعندما بلغ الثالثة والأربعين من عمره تزوج كوندورسيه ، وفى نفس هذا العام نشر له مؤلف عن "حياة نورجو" عبر فيه عن آرائه السياسية وهاجم فيه بلاهوادة ولا خوف امتيازات النبلاء على الرغم من أنه كان بحسب مولده واحداً منهم ..

وعندما انتخب سكرتيراً للجمعية التشريعية ثم رئيساً لها كان من أول المهام التى قام بها إلغاء قانون امتيازات النبلاء ، ثم كرس جزءً كبيراً من وقته لتنظيم التعليم العام .

وعندما نشبت نيران الثورة الفرنسية انتخب عضواً فى لجنة دستور الثورة فى أكتوبر ١٧٩٢ . وعهد إليه مع بعض زملائه بحث قضية الملك لويس السادس عشر ، وكان موقفه منها فى غاية الاعتدال وتوخى العدالة القانونية ورأى أن الحكمة تقتضى عدم السير في إجراءات إعدام الملك . بل إنه صرح وبدون مواربة أنه ضد عقوبة الإعدام عموماً .

ولكن مجلس قيادة الثورة لم يأخذ برأيه ، وأعدم الملك لويس السادس عشر وزوجته مارى انطوانيت بالمقصلة .

ولما رأى أن الدستور الذى شارك فى وضعه أدخلت عليه تعديلات كثيرة غيرت من معالمه ، هاجم هذا التعديل قائلا : إن إرادة الشعب الحقيقية يجب أن تحترم . وأنه من

الخيانة للشعب أن نعتقد أنه غير قـادر على إجراء انتخابات مباشـرة حـرة . كمـا أن الدستور الذى لا يعطى ضمانات للحريات المدنية . يعتبر بلاشك دستورا معيبا .. !!

ولم يطق الثوار صراحة كوندورسـيه ، فأصدروا الأمر بالقبض عليه . ولكنه كـان قـد احتاط للأمْر واختبأ فى منزل " مدام فرنيه " وهى من أصدقاء أسرته .

وفى هذا السجن الاختيارى شغل كوندورسيه نفسه بكتابة " تاريخ تطور البشرية " فى ديسمبر ١٧٩٣ ، وانتهى منه فى مارس ١٧٩٤ وجعل عنوانه من مخطط للوحة تاريخية عن ضروب التقدم التى أحرزها العقل البشرى .

والذى يعبر فيه عن ثقة لا حد لها فى مستقبل البشرية ، وهو أمر يثير الدهشة .. كما يقول د. محمد السيد بدوى فى مخططه الصغـير عـن هـذا الكتـاب .. إذا تذكرنـا أن كوندورسـيه قد كتبه وهو تحت وطأة الحكم بالإعدام الذى صدر ضده .. فقد اسـتعرض فيه بعين فاحصة الحالات الماضية والحالة المستقبلية التى بدا له أن المجتمعات الإنسـانية تسير إليها .. ونجح فى أن يبتعد عن ذهنه شبح الأفكار التشاؤمية التى بعثتها فى نفسـه أحداث فرنسا فى ذلك الوقت ، ولم يظهر فى كتاباته أى أثر لحالة العزلة التى اضطر إليها ولا أى كلمة تنم عن الشكوى مما آل إليه مصيره ، بل كان المجال كلـه خالصـا للعقـل الهادئ المتزن ، والنظرات الفلسفية الشاملة ، والمشاعر النبيلـة التـى تؤمـن بالرسـالة الحضارية للإنسان .

ولخص كوندورسيه رأيه فى مستقبل البشرية بقوله : " كل الظواهر تدل علـى أننـا على أبواب عصر سيحقق ثورة من أكبر الثورات التى حدثت فى حياة النـوع الإنسـانى وتضمن لنا الحالة الراهنة للمعارف الإنسانية . إن هذه الثورة ستحقق السعادة للبشرية .

وعندما انتهى كوندورسيه من كتابه هذا ، بدأ يساوره الخوف من أن تكون إقامته عند مدام فرنيه سبباً فى جلب الإيذاء لها . فخرج من عندهـا ذات صبـاح ، رغـم رقابتهـا الشديدة لمنعه من القيام بهذه المحاولة واتجه إلى ضاحية " فونتنى أورزو " حيث يقطن أحد أصدقائه القدامى . ولكن هذا الصديق لم يقبله عنده أكثر من أربع وعشرين ساعة . وخرج كوندورسـيه مرة أخرى إلى الشارع ، واحتمى فى أحد المحاجر فى سـهل مونـروج ، وكان لا يخرج منه إلا ليلا ، ثم اضطره الجوع وألم الجرح الذى أصيب به فى ساقه إلـى الخروج يوماً بعد الظهر ، ودخل إلى أحد المطاعم حيث طلب غداء لا يتفق مـع هيئتـه الزرية . فارتابت صاحبة المطعم فى أمره ، وأبلغت عنه سلطات الأمن ، فقبـض عليـه وسيق إلى السجن .

وعندما فتح الحراس فى الصباح أبواب زنزانته لاستجوابه وجدوه جثة هــــامدة ، إذ كان قد تجــرع جرعة قوية من السم المخبأة فى أحد خواتمه ، وبهذه النهايـــة المحزنــة انتهت حياة هذا المفكر الذى أمن بخير البشرية فى المستقبل فى ٨ إبريل ١٧٩٤ .

انتحــار القوة والعقل

ولم يغب شبح الفنان البائس فان جوخ عن عين " مارتن لوثركنج " عندما ثار علــى الكنيسة وعلى رهــبانه رجال الدير وتزوج راهبة هاربة من الدير ، والذى لم يكن هجومه عليهم إلا محاولة جريئة منه لفتح ثغرة فى هذا الجدار ، ومحاولة منه لرد الاعتبار لكثــير من الرهبان الذى طالبوا الكنيسة بالعدل والاعتدال ، فطردتهم ونددت بهــم ، وتواعدتهـم بالويل والثبور ، وكان زواجــه من هذه الراهبة الهادية استحضارا وامتثالا لطريق "فــان جوخ " الذى كان يتمثل السيد المسيح فى جميع خطواته .. ولكن دفعــه رجــال الكنيســة للإلحاد .. لأنهم رأوا فيه راهبا أكثر من الرهبان أنفسهم .. رأوا فيــه تهديــدا لسـلطتهم الكنسية بما ابتدعه جوخ من الانصهار فى قلب بوتقه العمال الفقراء . والكادحين التعســاء بمناجم الفحم .. ولأنه ترك كل نعيم الكنيسة وترفعها وابتعادها عن هؤلاء الأوباش ، ولأن العمال أحبوه والتفوا من حوله .. طردته الكنيسة ونبذته بعيدا .. وجاء مارتن لوثر كينــج ليهاجم البابا فى كنيسة القديس بطرس الذى يقرض الرسوم على البغايا فى روما، والـــذى يفرض الرسوم على منحه صكوك الغفران التى يبيعها للخاطئين .

وعندما أعلن كنج احتجاجاته الخمسة والتسعين على باب الكنيسة فــى عيـد جميــع القديسين .

واحتج على مرسوم البابا لفصله من عمله ، وقام بحرق هذا المرسوم البابوى مؤسساً بذلك الحركة الاحتجاجية أو البروتستانتية فى الدين .. والذى كان له دور ضخم فى تطوير الكنيسة افتداء لجهود فان جوخ ، ومازالت علامات إصلاحاته مضيئة على طريق النهضة الغربية والتى مازال هذا الجيل يعيشها حتى اليوم !!

حرية فى التعبير والكتابة ، بعيدا عن التهديد بسيف الدين ، ورفعه علــى رقبــة أى مفكر أراد أن يجتهد ، فإن تكلم قطعت رقبته ، وإن كتب تم طرده من رحمة الدين بواسطة مجموعة من تجار الدين والعقيدة الذين يرتدون طقوس الدين ويشربون أســـراره .. فــإن اقترب أحد منهم وأراد كشف زيفهم بادروه بالكفر والزندقـــة والخـــروج عـــن الحظـــيرة الإيمانية .. لقد صنعوا من أنفسهم حراسا للدين .. وكهنة له .. ورفعوا فى أيديهم عصـــا التكفير ، ينقضون بها فى أى لحظة على كل من أراد أن يميط اللثام عـــن كذبهـــم .. أو

سولت له نفسه بالاقتراب من هذا الجلال ، وذاك الجمال الذى يتربعون علـــى عرشـه ، فيحكمون باسم الدين ويتحكمون ويتكسبون المال والخضوع بصوت العقيدة !!

والسلطة دائما تحكم باسم الدين .. أو باسم القوة .. والحكم باسم القوة إن ذهب مــن أصحابه يوماً تحولوا إلى الدين والتصوف ، والذى هو إحدى وسائل الهرب والتى تشـبه الهرب بالكأس أو بالمرأة ..!! وإن اختلفت وسيلة الهرب بالجنس أو بالتصوف . إلا أنهـا تتعدد وتتلاقى فى كونها هرب وانتحار .. !!

فالتصوف هرب من الدنيا ، وقضاء على كل إحساس ولكن بغير متعة .. والجنـس هرب من الدنيـا وإغراق للحس .. وإن كان إغراقاً إرادياً .. إلا أنه يقضى علـى كـل إرادة . !!

وكما تنتحر السلطة ضمناً .. فإن العقل والعلم ينتحران حقيقة.. وعندما ينتحر عـالم أو أديب ، فهو ينتحر من أجـل قضية ، أو لإعـلاء قيمة ، أو لإيقاظ همة أمة وتنبيههـا من خطر قادم !!

فالعالم الذى اخترع القنبلة الذرية حاول الهرب إلى روسـيا .. والطيار الذى ألقـى هذه القنبلة على اليابان أصيب بالجنون ..

والعالم الذى اخترع القنبلة الهيدروجية لإنجلترا هرب إلى ألمانيا وانتحر ، وزميلـه الذى اخترع قنبلة الكوبالت انتحر !!

لقـد تنبه ضميرهم إلى خطورة أعمالهم وإلى الكارثة التى تنتظر البشـرية علـى أيديهم .. لأنهم استخدموا عقولهم فى القضاء على حضارة الإنسان .. وفى القضاء علـى تاريخ العقل الإنسانى ، فى حين أن دوره الصحيح هو إضافة المزيد من النور فـى كـل طريق .. ولو أراد مجانين أقوياء أن يفعلوا بالإنسانية ما يفعله هؤلاء العقلاء ، مـاصنعوا أسـوأ من هذه الاختراعات المهلكة !!

والمنتحر لا يخاف على حياته ، وغير خائف بالمرة من تنفيذ الطريقة .. فلقد أثبتـت إحدى الدراسات الحديثة أن الطلاب المراهقين الذين حاولوا الانتحار ، أو هددوا به ، كانوا أقل خوفاً من الموت .. بالمقارنة بالطلاب الذين لديهم ميل أقل للانتحار .. أو الذيـن لـم يحاولوا الانتحار أساساً .

وثبت كذلك أن المراهقين الذين حاولوا الانتحار كانوا واعين ومهتمين بكل ما يكتب عن الموت .. واتضح أيضاً أن الموت بالنسبة لهم لم يكن مغامرة بل علاجاً لمشـكلاتهم على الأقل من وجهة نظرهم ..

وفى دراسة ذكرها د. أحمد عبد الخالق فى كتابه قلق الموت " أجريت عـــام ١٩٨٢ على ١٠٣ من النســاء اللاتى تراوحت أعمارهن بيـــن ١٨، ٣٢ عامًــا ممــن حــاولن الانتحــار .. وكذلك ٢٤ مفحوصاً لم يحاولوا الانتحــار ، وطبق عليهم مقيــاس قلـــق الموت .. وكانت كل النتائج تشــير إلى وجود نية انتحارية قوية لدى الأشــخاص الذيــن لديهم قلق موت منخفض .

ويقول الباحث نتيجة لضعف هــذا الارتباط فليــس مــن الممكــن أن نفــترض أن المريض الذى يقــرر أنه يخاف من الموت بوجه خاص لن يقوم بمحاولة انتحارية تــؤدى به فعلاً إلى الموت .. !

وفى دراسة أخرى أجريت على عينة من غير المرضى لم تظهر علاقة واضحة بين الاتجاه نحو الموت والاتجاه نحو الانتحار ..

ومن ناحية أخرى اتضح أن المرضى السيكياترين الذين حاولوا الانتحار قد كشـــفت إجاباتهم عن ارتباط غير جوهرى إحصائيا بين قلق الموت ، وكـــل مـــن مـــدى إحبـــاط المحاولة ومستوى خطورة محاولة الانتحار .. !!

ويخلص الباحث إلى أنه لا علاقـــة بين قلق الموت ومحاولة الانتحار التـــى تنتهـــى بإنقـــاذ الشخص ..

ومن ناحية أخـــرى وجـــدوا فى دراسة أخرى أن المساجين كـــانوا أكـــثر انشـــغالا بالموت .. كما كانوا أكثر اكتئاباً بموقف الموت .. مع وجود أفكار انتحارية لديهم أدت إلى أن يحاولوا الانتحار أكثر من مرة ..

وترتفع نسبة الخوف من الموت لدى الأطباء بالمقارنة إلى بقية المهن ، ويمكن تفسير ذلك بأن الأطباء اختاروا هذه المهنة حتى يتمكنوا على الأقل من السيطرة على خوفهم من الموت .. !!

وفى نفس الدراسة وجدوا أن الأطباء الباطنيين يخافون من الموت بدرجة أعلى مـــن خوفهم من .. زملائهم ..



أنت مسئول عن دمائك ، ودماء الآخرين .. فإن قتلت غيرك فأنت مجرم .. ومابين الإثم والجريمة أنت محاصر بالصراط المستقيم .. وإلا فأنت فى النهاية لم تجن شيئا سوى خطيئة الحياة .. !!

مثلث رهيب يتحرك فيه أى إنسان مابين إثم وجريمة وخطيئة .. !! ولا مهرب .. !!

حياة قاسية يبدأها الإنسان ما بين أمل فى ثراء.. ورجاء فى سعادة .. ووعيد لا ينتهى.. ووعود لا تأتى .. وحرية محدودة .. وأسرار بلا حل .. وبداية لم تختارها.. وحياة لم تشاءها .. ودور لم ندرب عليه .. وأمل فى الفوز بعيد .. وكل هذا رغما عنك .. وعندما تريد الخروج تجد جميع الأبواب مغلقة فى وجهك .. !! ماذا ستفعل ؟! سؤال يبدأ .. ولكنه لا ينتهى !!

ومع ذلك فالحياة التى جئنا إليها هى الميلاد من عدم .. بقاؤها بالعمل .. وفناؤها فى الكسل .. ورباطها الحب .. وإن عرفت أسرارها ملكتها .. وإن بقيت مكانك خسرتها .. فى يدك أن تجعل منها جنة .. وبيدك أيضا أن تحولها لجحيم .. والدنيا جحيم الكراهية .. وجنة العاشقين ..!!

ومع أسوأ الظروف تصبح جحيماً .. ولكن على أصحاب الجحيم أن يناضلوا حتى يصلوا إلى تغيير واقعهم .. وإلى نهاية ترضيهم ..!!

فالجحيم عذاب ونضال .. ولكن محاولة الخروج من الجحيم فناء وضياع .. وإذا كان الخروج من الحياة هو العدم .. ولذلك أصبح على كل إنسان أن يختار بين الجحيم وبين الفناء .. بين الوجود .. وبين العدم ..!!

وإذا كانت الحياة معركة فدورك فيها أن تقاتل .. لا أن تقتل نفسك .. أن تدافع عن نفسك ، وسيفك وأرضك حتى آخر نفس .. وإن رضيت الهروب ضاع كل شىء .. ضاعت نفسك .. وضاع سلاحك .. وفقدت وطنك !!

وإذا كانت الحياة عذاب وجحيم وألم .. فالانتحار ضياع وفناء وعدم .. ولك أن تختار .. !!

وليس من السهل على الإنسان - أى إنسان - أن يقامر بعمره .. أو يغامر بحياته ودنياه من أجل لا شىء .. أو من أجل مجهول لا يعلم عنه شيئا !!

وأنا أقول لك الحياة بين يديك ، وملء عينيك وطريقها مليء بالأشواك .. ومرصوف بالدماء .. ومعبد بالآلام .. ولكن حكمتها الخالدة تقول : " إن من لا يميتنى يقوينى .. أو يحيينى " وأنت مازلت على الطريق تعدو .. وقلبك لا يهدأ .. ولكنك فى حاجة لأن تنزف من وقت لآخر لتجديد دمائك .. وفى حاجة لأن تتألم لتستشعر نعمة الحياة .. !!

ما ألاحظه أنه بين الحب العميق والعشق الشديد ، يعيش الموت قريبًا جدًا من حبل الوريد .. وهو شاهد على كل هذا الإقبال على الحياة .

والسأم هو التردد ما بين حياة وموت .. ولكن السعادة يقابلها الحزن الشديد .. على طرفى النقيض يعيش كل منهما .. فإما حب .. وإما حزن .. !!

ولهذا عندما يعترى هذا الحب صدمة ما .. لا يقف موقف وسط .. بل ينتقل على النقيض الآخر فى لحظة واحدة وبمقدار ١٨٠ درجة .

" روميو " لم يكن يفكر فى الموت على الإطلاق .. بل كان يتنفس السعادة مع نسمات الحياة طالما هو بجانب " جولييت " .. وطالما كانت هى سعيدة ، فهو أكثر منها سعادة .. ولكنه عندما رآها جثة هامدة .. لم يفكر فى الحياة من أجل أن يعيش لكى يرفع لها صورة زيتية بحجم كبير على جدار حجرته .. أبدا لم يفكر فى أى شىء من كل هذا .. بل انحصر فكره فى شىء واحد.. وهو أن يلحق بها .. وبنفس السم تجرع كأس الموت..!! انتحر روميو وانتحرت جولييت انتحرا حبًا ووفاءً .. وإخلاصًا .

لقد كان عشقهما حبا .. وكان حبهما موتا ..!! أحبا لأعلى قمة من ذرى الحياة .. ومن على نفس القمة نزلا معا .. ولكن جثتين هامدتين .

إن الفرق بين الحياة والموت .. وبين التعاسة والسعادة خيط رفيع . وإن كانت هذه حالات فردية أو حالة أفراد .. فإن حالات الجماعة سواء كانت دولة أو أمة لا تختلف عنها أيضًا .. فالشعوب تصاب بالسعادة بنفس إصابتها بمرض التعاسة ودائها .. والشعوب الأكثر عشقًا للحياة .. هم أيضا الأشد إقبالا على الموت .. الفرنسيون أكثر شعوب الأرض عشقًا وخيانة ، وأكثرهم عريًا .. وهم أيضا أكثر شعوب الأرض موتًا وأكثرهم انتحارًا .. !

والشعوب الإسكندنافية ولا سيما السويد بالذات .. هى أغنى بلاد الله ثراء وثروة ووفرة فى النعيم .. وهى أيضا أكثر بلاد الأرض تعاسة واكتئابا وانتحاراً .. لدرجة أن علماء الانتحار أطلقوا على منطقة معينة من الكرة الأرضية خطا وهميا يشبه خط جرينتش وأسموه " خط الانتحار " .

ويمر هذا الخط ببعض مناطق أوربا ، مقتحما آسيا حتى الجنوب الشرقى فى اليابان ، وصولاً إلى أمريكا الشمالية .. والمفارقة الغريبة أن البلاد الأكثر تأزمًا هى البلاد الأقل انتحاراً .

ومن خلال قراءتنا للتاريخ نشاهد أن الإيرلنديين هم أكثر الشعوب تمسكا بأرضهم وعشقا لها لدرجة أن الشعور بالقومية لديهم لا يموت بداخلهم على الإطلاق ، وإن ماتوا هم .. فمن موتهم يشتعل لهيب الحرية .. ولا بد من الإشارة إلى الاستشهاد الإيرلندى ، إضرابا عن الطعام .. والذى يعد أشهر إضراب فى التاريخ .. للإضراب عن الطعام حتى الموت لمجموعة من الشبان لأيام طويلة زادت عن الشهرين .

ولم يكن الإضراب لنساك فى معبد .. أو لشيوخ فى نهايات العمر .. بل لشباب لا يتعدى متوسط أعمارهم الثلاثين عاما .. هذا الإضراب الذى تابعته عيون العالم كله من على شاشات التليفزيون وصفحات الجرائد خلال عام ١٩٨١ . وما تبع ذلك من عمليات ازدراء عالمى للتعنت البريطانى .. وتحفظ ذاكرة التاريخ بوبى ساند ، وجو مكدونالد ، وفرانسيس هيوز ودفع إصرار هؤلاء الشباب العالم كله للتساؤل .. لماذا هذا الصيام حتى الموت ؟ ولماذا هذا الاحتجاج الطويل بالبقاء فى زنزانات عارية رطبة .. ؟!

ولماذا هذا الإصرار على رفضهم للملابس .. وبقاءهم ملتحفين بأغطية السجن .. فيما شرع معتقل إثر آخر فى الإضراب عن الطعام حتى الموت !!

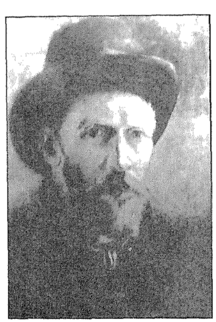



فان جوخ

فان جوخ مات وهو يخشى ألا يجد ثمن الخبز اللازم لبقائه على قيد الحياة .. لم يبع فى حياته سوى لوحتين وعشر رسومات .. لم يتعد ثمنها جميعاً مائة دولار .. وفى الخامس عشر من مايو ١٩٩٠ طيرت وكالات الأنباء الخبر بأنه قد بيعت لوحة " دكتور جاشيه " لفان جوخ بمبلغ وقدره ٨٢,٥ مليون دولار .. !

ولم يرسم فى حياته العشر سنوات الأخيرة من عمره ، ورحل وعمره سبعاً وثلاثين خريفاً .. عاش بين عمال المناجم قديماً .. ودفعه رجال الدين للإلحاد.. تمثل السيد المسيح فى كل خطواته .. ومات وهو يعلم أن لا إله فى هذا الكون .. عاش فناناً .. ومات مجنوناً ..

ولد لابن قسيس بهولندا .. أخذ منه كثيراً من ملامحه القاسية ونشأ منطوياً على نفسه .. له ميل شديد لعدم الاختلاط وحب الطبيعة والتدين والتأمل فى الكون .. كان أمل والده أن يصبح يوماً ما قسيساً كبيراً.. وقطع مرحلة فى التعليم حتى وصل لسن السادسة عشرة ثم فضل أن يعلم نفسه بنفسه .. فدرس اللغتين الفرنسية والألمانية وأتقنهما ، وأجاد الإنجليزية .. وكان له ميل ما للقراءة .. وفى تلك السن أخذه عمه ليعمل فى محل له يبيع اللوحات الفنية .. فأظهر فان جوخ كثيراً من الحذق والذكاء فى كيفية إقناع الزبون بالشراء .. وانتقل إلى الفرع الرئيسى بلندن .. وشعر بأن الدنيا تضحك له وبأنه ينتقل من نجاح لنجاح ..



فـــان جـــوخ

وفى لندن بدأت مأساته تتضح معالمها ، كان مهتمًا بنجاحه ولبسه ، ويظهـــر دائمًــا بصورة الوســيم ، وسكن فى حجرة مع أرملة وابنتها .. ينهــض مبكــرًا ليقــرأ بعــض الأناجيل ويتناول إفطاره مع أرسـولا وأمها .. وأحب أرسـولا .. أحبهــا مــن طــرف واحد .. ولم تشعر هى أبدا بالنار المتأججة فى حشاه وقلبه .. وعندما صارحها فوجئت ، وصدته فى نفور وأراد أن يقنعها بحبه .. فأخذها عنوة بين أحضانه وقبلهــا بوحشــية .. فأفلتت من بين يديه ، وهى تكاد تبكى وتقول يا مجنون .. يا ذا الشعر الأحمر.. وطردتــه أمها من البيت .. لكنه لم ينس حبه .. لم يكن يحبها رغبة فى جسدها.. فكان يحبها لــذات الحب .. ورغم الطرد والإهانة والألم الذى يقطع نياط قلبه .. إلا أنه مــازال يــأمل فــى الزواج من أرسولا .. لقد ترك البيت .. لكنه لم يترك لندن من أجلها .. وكان لا ينقطـــع عن الذهاب لبيتها ليراها .. أو ليسمع صوتها ، ويعود حزينًا مكتئبًا .. كيف يتعذب وهــى لا تهتم به ولا تكترث ، ورجع انطوائيا حزينًا من جديد .. وطرده صاحب العمــل مــن المحل .. لقد كان خيال أرسولا لا يفارقه ، وطيفها يشاركه الطعــام والنــوم ، وتقرحــت أجفانه .. وأراد أن يذهب إليها ليشكو لها نار الهوى .. وعذاب الجوى .. وعمل مدرسًــا ولكنه فشل .. واتجه إلى الوعظ والنسك .. وأحبه الناس ، وخرج بنجاحــه فــى الوعــظ وحمل آماله ونجاحه وذهب لبيت أرسولا .. وهو يرى أنهــا ستســتقبله بيــن أحضانهــا وسيتزوجها .. وأن كان فى نفسها بقية شىء من خطيبها سأقنعها بالزواج ..

وسيعيشا سعيدين .. كل صباح يقبل يديها .. وعندما يأتى المساء يركع عند قدميهــا يشكر الرب الذى أهداها له سكنًا وقلبًا .. لم يمنعه أنها أكثر من مرة أغلقت البــاب فــى وجهه .. وهى تقول له أغرب عن وجهى .. وهو فى تفكيره وأحلامه لم يشــعر بــالبرد والصقيع وأن ملابســه كلها مبتلة .. واقترب من البيت .. لكنه لم يكن هادئًا كعادتـــه .. ولا يخيم عليه صمت الجليد .. ولم يسمع فى الحى صوت المطر.. لقد غلب عليه صــوت موسيقى تتماوج خارجة هاربة من داخل بيت حبيبته .. وانتظر وسأل .. وقيل له نظن أنه بالبيت عرسًا .. وانتظر .. وفتح باب أرسولا ، وخرجت وهى متأبطة شابًا طويلاً وحولها رهط من المهنئين .. وركبا العروسان .. ويرى فان العريس يمد يــده ليطــوق خصــر عروسه .. ويطبع على فمها قبله طويلة .. وشعر بصدره ينشق وبدوار يمــلأه .. ورأى أحلامه تتهاوى تحت ضربات المطر ، ومهاوى القدر .. وبنفس كسيحة وقلب كســير .. رجع يشق طريق الثلج والمطر وجمع حاجياته وغادر لندن ..

هــو والمــرأة :

والمرأة فى حياته فــان جوخ عجب أمرها منه .. وعجب أمر القدر منهما جميعًا.. لم تقترب منه امرأة إلا وهربت .. ومن أحبها بصدق لم تحبه .. ومن أحبته تموت إنتحارًا

فما إقتربت منه امرأة إلا وهربت إما من المكان .. وإما من العـــالم كله .. وكان الفنـــان منذ شـــبابه يتردد على فتيات المتعة المشتراة فى لاهاى .. وبقدر ما أحب كثيراً بقدر مـــا لم تبادله أية امرأة حباً بحب .. وبعد أرسولاً أحب ابنة عمه الأرملة الشابة التـــى جـــاءت تقضى بعض الوقت فى منزل عائلته ، وجد فيها فان مسحه من حـــزن .. وكثـــيراً مـــن جمال .. ذلك الجمال الواهن الذى يميل إلى الضعف .. جمال النحافة والأناقـــة .. ذلـــك الجمال الحزين .. ويعرض عليها الزواج .. ويقدم قبل الزواج الحب .. ويعطيهـــا قلبـــه وعقله .. لكنها ترفض وتفر هاربة إلى حيث أتت ..

ولم يجـــد الحب فى البيوت .. وخلف الجـــدران والنوافـــذ .. حيـــث الحبيبـــة فـــى انتظاره .. فكلهن يبتعدن ، كأن قلوبهن من ألواح الثلج قد قُدت .

واتجـــه إلى فتيات المتعـــة .. وأحب منهن فتـــاة عاش معها بعض الوقت .. لكنها لا تطيق تقلبـــات الفنان فيـــه .. ولا تصبر على نزواته النفســـية ، ولـــم تســـتطع هـــى الأخرى إلا أن تعطيه ظهرها .. وفى النهاية تهرب ..

وقابل فتاة أخرى ممن يأكلن بأثدائهن .. قابل " ارثيل " تلك الفتاة اللعوب الصغيرة .. أعجب بها أو هام حولها ، وذات يوم وهو جالس وحيداً تترك فتاها وتتجـــه إلـــى حيـــث نظراته المتقدة بالوجد والشر فى نفس الوقت ، واقتربت منه ، وكانت أذنيـــه كبـــيرتين .. ولتسخر منه اقتربت وهى تمسك بأذنيه وهى تقول : " فان " أذنك جميلة قوى " .. وفـــى البيت يترك صديقه جوجان نائماً .. وبسكين المطبخ يقطع أذنيه ويضعهما فى مظروف.. وفى اليوم التالى يسلمه لها .. فيغشى عليها .. وأحب ابنة الدكتور جاشيه وهى آخر مـــن أحب قبل أن يرحل ..

ويقول فان جوخ فى المرأة التى يحبها :

" ولا أرغب فتاة صغيرة جميلة ، بل امرأة قبيحة المنظر أو عجوز فقيرة . أرغـــب فى امرأة تعيسة بصورة أو بأخرى .. " .

لقد كان مزيجاً من التعاسة والقلق والابتكار وكان فناناً يعلم كيف يكون .. ؟ ولكـــن بطريقته المجنونة .. هو أن تكون أو لا تكون .. فأحب ولم يُحب ، ولم يكره وكـــره مـــن كل بنات عصره ..

وقدر له أن يبقى العمر حبيس الفقر والحرمان .. وحتى يوم أن جادت عليه الأقـــدار بفتاة تحبه وكانت جارته فى لاهاى .. لم يحبها هو .. لكنها رغبت فى الزواج منـــه ولـــم يعارض .. وفى اليوم التالى وجدوها جثة هامدة .. لقد منعها أهلها من الاقتراب منه ..

وبعد أن فشل أن يكون بشراً .. وفشل فى حبه من أرسـولا .. أشـار عليـه أحـد القساوسة بأن يذهب لبعض عمال المناجم .. حيث العمال لاهم عبيد ، ولا هم حيوانـات.. إنهم مسوخ تمشى على ساقين .. ويعملون عراة تحت سطح الأرض بأكثر من سـبعمائة متر .. فى جو مليء بتراب الفحم والغـاز السام .. وفى محيط لا هواء فيـه .. يعمـل الشبان بجوار البنات .. وأطفال فى التاسعة من عمرهم ولا تصل بهم السن إلى العشـرين إلا وهم مصابون بآلام الرئـة .. وإن لم يقتلهم الغاز الملتهب .. قد يعيش طويل العمـر منهم للأربعين ثم يموت بداء السل ..

هذه هى الحياة .. حيث لا إنسانية .. وحيث الحياة معذبة.. وحيث الوجوه بلا استثناء سوداء .. فى هذا المكان القاتل عاش الفنان والتحـم بالعمال .. ورفض أن يعيش بعيـداً عنهم .. كان أكله الخبز الجاف والجبن المملح ، وينام فى كوخ مـن الخيـش .. وحيـث يموت البشر كالكلاب بعد شقاء ١٣ ساعة فى اليوم .. ووصلت أخباره إلى لجنة التبشـير فعينته مبشراً مؤقتاً بخمسين فرنكاً فى الشهر .. ولم يصبح فان كوخ فرداً أو شـخصاً .. فقد أمسى مؤسسة يعلم الصغار .. ويطعم الجوعى .. ويواسـى المظلومين ويعـزى الحزنى .. ويضمد جراح المنكوبين .. ويصلى من أجل أن يرفع الله الظلم عن هؤلاء..

وعندما رآه مندوبا لجنة التبشـير خارجاً من كوخه الحقير بقشه القـذر .. وخيشـه الذى يستر به جسده .. وعينيه الغارقتين فى وجهه .. تركهما ليقيم قداساً جنائزياً .. فتبرما منه واعتبراه خارجاً عن تعاليم الدين .. لأنه عاش مثل الفقـراء ، وخـدم المحتـاجين .. وأعطى المعوزين .. وفصلاه من لجنة التبشير .

وكانت صدمة .. اهتز لها إيمانه .. بل دلف منها إلى الإلحاد .. وشـعر كيـف أن الفشل يلاحقه أينما ذهب ؟ .. والضياع طريقه .. فاستسلم لقدره .. وهو لا يعـرف مـاذا يخبئه له القـدر ؟..

كان عمره فى ذلك الوقت ٢٧ عاماً .. عمر القلق ولكن من يملك قلقه .. ليكون قلقاً منتجاً .. ومن يملكه قلقه يذيبه فى دوامات من ضياع ..

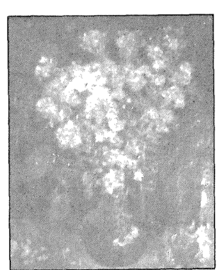
وذات مسـاء ركبه الشك وتساءل : ما فائدتى لنفسى ؟ وما فائدة العالم بى .. هل لى أنا هدف وهل أنا أعيش حقاً ؟.. ولا يعرف هل هو جالس أم واقف .. ولكن الذى لا يعرفه كيف ساقته قدماه إلى حيث بوابة المنجم .. إلى حيث كان يعظ ويضمد الجراح .. وعلـى عجلة معدنية يجلس بالقرب من البوابة .. لعله يأنس وجها يتحدث إليه .. وإذا يرى عاملاً

وقد جلله السواد أن كان للسواد جلالاً .. التعب يسحقه ، ورغم ذلك يضع يديه فى جيبه.. وجذبه المنظر .. بل شمله بكل كيانه .. فمع كل هذا التعب والمرض ، ويد العامل مطمئنة فى جيبه يقف هادئاً .. ويسير فى تؤدة كأنه فى نزهة .. ولا يشعر فان جـوخ إلا والقلـم الرصاص بين أصابعه وعلى ظهر خطاب قـديم فى جيبه يرسم خلفيـة المنجـم ويخـط صورة العامل .. ويخرج غيره فيرسمه ويرسم المزارع والأراضى قبـل أن يختفـى ..

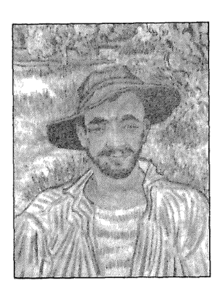
وينتفض سريعاً ، ويرجع لتوه إلى البيت .. وعلى ضوء المصباح ينقل الرسمتين .. وفى الصباح يرسم صاحبة البيت وزوجها .. ولا يفق إلا على شهقاتها وهى تصيح : فان جوخ أنت فنان !! .. ويتساقط منه العرق ويعلم أخيراً أنه وجد الطريق.. ويذهب عنه القلـق .. وفى القرية يرسم ويتعلم .. ويدرس أصول الفن ، ويعمل ليل نهار . وينسى كـل عـذاب الماضى .. وفشـل الأيام الخوالى .. وتلم به الحمى لكنـه يحتفظ بصفاء ذهنـه وقدرتـه وذكائـه ..

وينتابه السؤال المحير .. من أكون ؟ .. من أنا ؟ .. ويجيبـه الصمـت .. ويبتلعـه الجوع والحرمان .. ويلتقطه أخـاه " ثيودرن " فيكسـيه ويملأ معدته .. ومازال سـؤاله بلا جواب .. وينطلق الفنان الشـاب بين الحقول كـالزهرة تنقـض ريشـته كالعاصفـة المشبوبه فى قسوة .. وأحياناً أخرى كالعاصفة الصاعقة ..

وبين المروج الخضراء .. وبيارات البرتقال والفاكهة .. وتجمعـات زهـرة عبـاد الشمس يقف كالمذهول كأنه بين حضرة إله .. ويتأمل كل هذا الجمال .. وهذا الـدلال .. وكل هذه البساطة .. وهذا الضعف الجميل .. كان يرسم بعقل ، ويعيش بجنون .. ورسم : " آكلوا البطاطس " و " القارئة " و " عباد الشمس " ..



لوحـة زهرة الخشخاش إحدى أعمـال فان جوخ وهى حالياً بمتحف محمود خليل



لوحة البسـتانى إحدى أعمال فان جوخ

فى باريس :

وفى باريس يعيش فنانًا بين مشاهير الفنانين ، وعباقرة الريشة .. جوجان .. تولوز لوتريك .. بيسارو .. وانعكست صحبة الفنان على حياته فكانت فى سعادته بأن تخلص من ألوانه القاتمة الحزينة .. واهتم بالطبيعة وألوانها الزاهية .. ومن أجل ألا يكون عبئًا على أخيه ترك فرنسا إلى الجنوب ..

وهناك وفى ضوء الشمس المتوهجة مع صحبة عباد الشمس كانت لا تتعب له ريشة .. ولا تكل له همة .. فكان يرسم اللوحة أو اللوحتين فى اليوم الواحد.. وينتقل إلى مرحلة النضوح الكامل .. مرحلة التعبير عن النفس .. والتخلص من النقل الأمين لكل ما هو أمامه .. فطوع فرشاته ليرسم ما تعكسه نفسه دون التقيد بالطبيعة .

وتاق إلى صحبة صديقه جوجان فأرسل له يدعوه لزيارته وينزل فى ضيافته.. ويأتى جوجان ملبيا .. ويمكث شهرين هما الجحيم لكليهما والمتعة لتاريخ الفن .. حفلت تلك الفترة بالمناقشات الحادة بين هذين القطبين .. وعبر فان جوخ عن حدة تلك المناقشات فى إحدى خطاباته لأخيه يقول :

" نخرج من تلك المناقشات ورءوسنا مثل البطاريات التى فقدت شحنتها " .

وعقب نقاش حاد وشجار بين الفنانين .. قرر جوجان إعداد حقائبه للرحيل .. حاول فان جوخ الاعتداء على صديقه بمدية حادة .. ولكن جوجان ردعه بنظرة واحدة .. وفى نفس الليلة ظهرت على فان جوخ أولى نوباته العقلية .. فقام جوجان وحمله ووضعه فى السرير حتى شفى .. وتكررت هذه النوبة فيما بعد وخلالها مما دفعه إلى قطع أذنه بنفس السلاح الذى حاول أن يقتل به صديقه ..

واشتدت عليه أعراض المرض .. فطالب جيرانه بإيداعه إحدى المصحات العقلية .. واختلف الأطباء فى تحديد الوصف المعملى لمرضه ما بين انفصام فى الشخصية .. والخلط العقلى وهو الهوس الحاد ، ومن قائل بسوداوية المزاج الاكتئابى .. والبعض يقول إنها مضاعفات لمرض الزهرى ..

ولقد كان فان جوخ مدمنًا للمشروب الكحولى المستخلص من نبات الشيح مع سوء التغذية .. وهو الذى أدى به لتلك النهاية الحزينة . وما بين الفشل فى الحب .. وبين

الاكتئاب ، والفشل فى الحياة .. وما بين المقارنة السوداء فى اللحظات الصعبة التى يعيشها فيما بينه وبين الناس .. وذات صباح حيث نهض من فراشه وأمسك بالريشة ولكن خانته قدرته على الرسم والتحكم فى أدواته .. وشعر بأن خبزه اليومى فى خطر ، نتيجة ترك أخيه لعمله مما سيترتب عليه أنه سيقطع عنه المعونة .. وما بين حقول القمح الذهبية والتى طالما رسمها وما بين كومة من السباح خلف المزرعة .. وحين ذهب الحب وبقى الزيف .. وحين ضاقت الدنيا عن لقمة عيش وقطعة جبن .. ويتمرد الجسد العليل على الروح الخالدة ، والعقل النبيل .. وسقطت الفرشاة من بين الأصابع .. وكف عن الإرسال كما كف من قبل عن الاستقبال حين قطع أذنه ..

فملعون أنت أيها العدم .. ولتكن نهايتك رصاصة مدوية .. وفى التاسع والعشرين من يوليو ١٨٩٠ سكنت الرصاصة صدره .. لتبدأ سيمفونية العبقرية الخالدة صافية .. وتنصت آذان العالم أجمع ..



الانتحار اللامعقول

الانتحار اللامعقول

ولكن لوكنت تريد الانتحار حقا .. فهذا من حقك .. فلك حق التصرف في حياتك وبكامل حريتك.. فالنجاح في الانتحار كالنجاح في أي شئ .. والفشل فيه يعرضك لبيروقراطية البشر .. لأنك لم تفلح في الرحيل بعيدا .. وترتاح وتريحهم .. ولكن إن كنت تريد ذلك فعلا فأي الأساليب تفضل ؟ ألا تحب أن ترحل في هدوء .. ؟! وفي سلام واسترخاء تام .. عندما تقرأ ذلك فقد تذكر تلك الكوميديا السوداء لكتاب اللامعقول .. كوميديا في جوفها ملهاه وتراجيديا حزينة .. فقد يقلل الحرص على الحياة الرغبة فيها .. ويرحب بالموت .. وقد يتخلص الصديق من صديقه ويهتف للعدو .. وتنتحر الشهامة على أبواب عصر من الألم والحمق .. ويفلس العقل في وسط مخلوقاته .. وتبور الحكمة ولا تجد من يحفظها أو يشتريها .. ويموت بائعوها حسرة وكذا .

وقد يكون الانتحار لامعقول .. ولكنه قد يكون بطولة واقتدار عندما يكون لا للنفس.. ولكن لكل النفوس .. فلقد ينهي الشخص حياته فداء لأهله .. أو ينهيها حزنا على الإنسانية المهدرة .. أو يأساً من اعتداء الإنسان على أخيه الإنسان .. أتذكر أنه عندما قامت إسرائيل بعد حرب ١٩٤٨ بين اليهود والعرب أن استاذاً للأدب العربي بجامعة القاهرة وكان يهوديا .. وكان له أصدقاء كثيرون بمصر .. ومحبوب من تلاميذه ولكن هذا المستشرق اليهودي انتحر بعد إعلان قيام دولة إسرائيل .

لماذا .. ؟ .. لم يكن انتحاره خوفا على أن اسرائيل لم تقم في مكان أحسن من فلسطين .. أو في دولة واسعة كمصر ولكن حزنه كان لمعارضته في أن تقوم دولة إسرائل على جثة دولة أخرى .. وكانت معارضته أصلا في وجودها ..

فقد رأى الأستاذ في قيام مثل هذه الدولة خطراً كبيرا على اليهود والعرب معا .. وازداد شعور الأستاذ ليهوديته وغربيته وشعر أن وجوده وإقامته في مصر شيء صعب .. وبني دينه يبقرون البطون .. ويقطعون الرقاب وينسفون البيوت .. ولحبه المخلص لمصر ولحبه لتلاميذه وكتبه لم يقدر على أن ينظر إليه كمستشرق يهودي .. ولهذا آثر أن يرحل بعيداً .. وكان انتحاره اقتداراً ووفاءاً !! ...

ويذكر أساتذة الطب والجراحة بصفة خاصة هذا الجراح الفرنسي الكبير – "**تيري دومارتيل**" – والذي كان رئيسا للمدرسة الفرنسية لجراحة الجمجمة العصبية في الثلث الأول من هذا القرن .. وكانت له جراحاته الرائدة في هذا المجال ، وما يزال جراحو العالم إلى اليوم يستعملون أدوات جراحية باسمه ، ويأخذون بنظرياته التشريحية

بالأسلوب الذى ابتدعه للوصول إلى الدماغ من خلال العظام الجمجمية .. وكان هذا الطبيب من عائلة أرستقراطية .. فلأمه شهره واسعة تعرفها الأوساط الأدبية كحفيدة لميرابو الكبير وكأديبة مشهورة .. وكان أخوه مندوباً سامياً للحكومة الفرنسية فى سوريا أثناء فترة الاحتلال .

وفى هذه المنزلة العالية والرفعة العلمية المقتدرة .. عاش هذا الأرستقراطى النبيل كأى من أبناء وطنه يصحو على صوت العصافير وينطلق بين الأشجار كالريح لا تحدوا آماله حد .. ولا تعوق أحلامه أسوار .. وتشرب الأدب وكتب الشعر ورسم اللوحات فى وقت فراغه .. وكانت الجراحة عنده فن وعلم وهو يمسك بمبضعه بين يديه ويفتح أول فتحه فى الرأس بحذر واقتدار كبيرين كأنه يرسم لوحه أو يقرض بيتاً من الشعر .

وإذ هو كالعصفور فى انطلاقاته تنشب الحرب العالمية الثانية وتهوى الأمم والإمبراطوريات تحت ضربات هراوات هتلر الثقيلة .. ويجتمع أبناء فرنسا ويقررون إعلان عاصمتهم باريس وبلدهم فرنسا مفتوحة أمام الطاغية .. وفى مايو ١٩٤٠ فى ذلك اليوم المشهود تدخل الفيالق الألمانية باريس .

وبدلاً من أن تصدها الجثث والمدافع .. يرى الطبيب دومارتيل البعض يقذفون الجنود بالورود .. وهم فى زهوهم ونشوتهم لا يسألون .. ومن وراء الستارة المسدله على نوافذ المنزل .. يقف دومارتيل متطلعاً إلى صفوف الجنود الألمان يقرعون الأرض بأحذيتهم فى زهو واختيال .

وأمام هذا الموقف التراجيدى الأسود لم يتمالك جراح الأعصاب المتمكن أعصابه.. ومن منطقته مد يده ليسحب مسدسا وليصوبه إلى رأسه .. وأطلق على هذا الرأس الذى يعلم سراديبه وأسراره رصاصة واحدة .. واحدة .. يعلم أين ستذهب .. ويذهب بعدها ..

وعندما قامت الحرب الفيتنامية وشاهد العالم فظائعهما بين قوتين غير متكافئتين .. قوة باغية تريد باطلاً وقوة تدافع عن الوطن والشرف والعرض والأرض بكل ما فيها من شهيق وزفير .. فى هذا الوقت خرج النساك من المعابد .. وخرج الكهنة والزهاد البوذيون فى ميدان عام .. وأشعلوا النار فى أجسادهم احتجاجا على الحرب والظلم والغزو الأمريكى لبلادهم .



حيوانات تنتحر

هل كل هذه الحالات انتحار ؟

وهل الانتحار هنا بطولة .. أم هروب ؟!

سؤال مازال ينتظر الجواب ..

ودعونى أحكى لكم قصة الأسد سلطان ..

فى السيرك وقبل أن ينتهى مدرب الأسود محمد الحلو من نمرته .. التصفيق حاد وأكف الصبايا والحسناوات تملأها الدماء .. من الانفعال .. محمد الحلو أمام الأسد .. مرة يحتضنه ومرة يضع رأسه فى فمه .. وأخرى يتأبطه ويسير به.. ويأمره أن ينام فيخضع الأسد للأمر وينام الحلو بين فخذيه .. والأسد يفتح فمه وأنيابه الفتيه تبعث الرعب فى القلوب .

ويستدير الحلو ولأول مرة ليحيى الجمهور ويعطى ظهره للأسد لثوانى .. ولحظة وتموت الصفقة على الأكف .. يكون الأسد فيها قد غرس أنيابه ومخالبه فى ظهر الحلو ورقبته .. ويهيج الجمهور .. وينهض معاونو الحلو ويهجموا على الأسد بالكراسى حتى يخلصوا المدرب من بين أنيابه ..

ويذهب الحلو للمستشفى .. ويذهب الأسد لحديقة حيوانات الجيزة .. ويموت الحلو بعد ثلاثة أيام متأثراً بجراحه .. وفى اليوم الرابع يذهب ابن الحلو ليزور الأسد سلطان ويقف أمام القفص ويراه سلطان ويدير رأسه ويمتنع عن الأكل .. وفى صمت تام يعيش تسعة وثلاثين يوماً لا يأكل فيها إلا ذيله .. وفى الأربعين يموت سلطان .. وقد أبى أن يعيش بعد أربعين صديقه ومدربه .

مات سلطان الإنسان كما قال د. مصطفى محمود .. مات الأسد الحيوان .. ولكن لم يمت الشعور بالذنب .

وأنا لا أعرف هل لو عاش سلطان .. كيف كان للحب أن يبقى .. وللأخلاق أن تسود ؟ .. !!

هل انتحر الأسد .. ؟ .. وهل آن للإنسان أن يمتثل ؟ ..

وإن أنسى لا أنسى ليلة مات فيها كلب كان كأى كلب .. ولكن لا أعرف بأى حاسة كان يتحرك .. كان صاحبه جار لنا وكان موظفاً بالمركز .. وفى ذهابه وإيابه يركب

موتوسيكل .. وغالباً ما يكون رجوعه بالليل والظلام يغطى القرية بملايته السوداء .. وفى وقت ما من الليل يهيج الكلب .. وينبح ويصرخ من خلف الباب .. وفى ثورته يرفع مخالبه على الباب ويعبث به ليفتحه وعندما يفشل يرتد سريعاً فيصعد على السطوح ثم يعود فينزل سريعاً .. وبعد دقائق قد تطول يصلنا صوت الموتوسيكل وصاحبة البيت قد نهضت من نومها قبل أن يصل لتفتح الباب .. ويخرج الكلب مسرعاً ويهدأ الموتوسيكل ويقفز الكلب ليحتضن صاحبه ..

واعتدنا فى قلب الليل عندما ينبح الكلب أن نعلم أن صاحب البيت فى الطريق .

ولكن ما كان يزيد عجبنا .. أننا كثيراً ما كنا نسمع صوت الموتوسيكل يمر بجوار المنزل ولا نسمع صوت الكلب وقد يكون نائماً فلا يتحرك وهو متنبه الجفن .. لقد كان الكلب يميز رائحة صاحبه وصوت ماكينته من وسط ألف ماكينة أخرى .. وإلى أن جاء يوم وأراد هذا الرجل أن ينتقل بأسرته إلى محل عمله ليستريح من السفر ويريح الأسرة من الانتظار .. وحمل الأسرة وحمل كل شيء إلا الكلب .. وقال لأرجع مرة أخرى وآخذه .. ولكنه تأخر أياماً تعدت الأسبوع .. وجاء ولم يستقبله الكلب ودخل البيت ولم يسمع صوته .. وأحس بالغربة ، فلأول مرة لا أحد يهش له أو يعانقه .. ورمشت عينه.. ودق قلبه .. وكان الكلب بعد سفره قد انقطع عن الزاد والزواد وخاصم كل شيء حتى الماء .. وفى ركن بعيد مد ذراعيه ووضع بينهما رأسه ككلب أهل الكهف .. ولم يقم من مكانه بعدها أبداً .. ومن رآه قال كان يبكى .. ومن رآه قال انتحر .. !

هذا الانتحار وفاء .. وذاك انتحار وفاء واحتجاج .. احتجاج على سلب استعمارى .. واغتصاب وطنى وعرضى .. وماذا كان سيفعل دومارتيل وحده .. هل كان سيحرر باريس ؟.. وهب لو انطلقت تلك الرصاصة إلى رأس جندى ألمانى بدلاً من رأسه .. هل كانت هى التى ستحرر وطنه .. فلو فعل هذا لكان نصيبه مئات الطلقات .. وأخيرا هو ميت قتيل .. وهل ثمة فرق بين الحالتين .. بين أن يموت بيده أم بيد الجنود الألمان .. فى الحقيقة .. الحالتين انتحار.. فالأولى احتجاج على العجز ، والثانية استهتار بحياة وإثبات عدم جدواها .. وقد يجر ذلك أن تقتل كل أفراد أسرته وأن تخرب عشرات البيوت ..

ولذا آثر الطبيب الإنسان الشفاف دومارتيل الرحيل وحده .. كما آثر ذلك النساك البوذيون ..

وكما فعل خليل حاوى الشاعر الرقيق بعد أسبوع من اجتياح القوات الإسرائيلية لشطرى لبنان .. فكانت رصاصاته صرخة احتجاج وسخط على الجبن العربى .. وكان انتحار دومارتيل من أكبر الأسباب التى أججت روح المقاومة الفرنسية حتى تحررت باريس .

وبقى انتحار حاوى لعنة واتهام لكل الجيل العربى الحالى ومداد سخط وصرخة احتجاج على العجز العربى .. وصار دمه يحمله كل كتف عربى .. ويود لو يهرب من لعنته .. ولكن إلى أين .. ؟

وما يعز على الانتحار ويصعب أن يحدث من هذا الطبيب الناجح أو هذا الشاعر المشهور .. وأن تموت هذه القمم والامجاد التى أضافت لبلدها امجادا وأعلت من نجاحاتها هنا يكون الموت خسارة وحراماً .. ولكن الموت الحلال لمن لم يضف لهذا العالم جديد .. ويكون الموت لكل مستهتر لا يرفع من قيمة ذاته أو قيمة وطنه .. والموت لكل عاطل اكتفى أن يكون بين القوم حامل شهادة كحمار يحمل كتباً ومازال يمد يده لأبيه ليأكل .. ومازال متطفلاً على عرق غيره .. إن الموت هنا واجب وضرورة والبقاء هنا يكون للاستعراض على شاطئ الزمن ليتقلب عليهم الليل والنهار .. ولتتقلب عليهم العوامل الجوية وليس لهم فى الحياة إلا أن يأكلوا ليناموا وليستيقظوا من جديد فى وسط النهار .. أمثال هؤلاء لا يحب أن ندعوهم للانتحار .. بل الانتحار عليهم واجب وضرورة .. هؤلاء زوائد ليس لها إلا أن تعطل وتثبط .. ولو خرجوا من ميدان الحياة لانتصف الحال واعتدل المائل .. لأنهم يصرون على البقاء كقوة مرضية لا دفع لها إلا للوراء .



انتحار طفل

ولنتعرف على الفرق بين بقـاء هـؤلاء .. وبين انتحار طفل لا لشـيء إلا أنه لم يجد لأمه وجبة عشاء ..

الحادثة رصدتها مجلة صباح الخير.. حادثة انتحار طفليـن فـى يـوم واحد .. لم ينتحر الأول بحبل أو بسم أو برصاصة والسلام .. لقد كان أبشـع انتحـار .. وكان انتحاره وصمة عـار للبشـرية كلها.. وكان احتجاجًا على مفاسـد الحياة بين مـن لا يستطيع أن ينام ليله من الجوع و بين من لا يستطيع النوم أيضًا إلا بعد أن يأتى الطبيب ليعطيه الأدوية والأقراص التى تذيل التخمة التى أصابته ..

أذكر اسمه – ياسر – من إحدى حوارى حى الظاهر بأعوامه الثانية عشـر ، ومـع إخوته الأربعة أصغر منه وأخـوة محمد .. توفى أبوه بصعق كهربائى وأمام أمـه التـى أصابتها السكتة فلم تنطق وقيدها الشلل فلم تتحرك بعدها أبدًا إلا على أربعـة .. وعـاش ياسر مع إخوته على إحسان الناس وبقايا طعامهم .. وكان طفلاً .. وكان حـرًا بأعوامـه القليلة يشارك فى أحزان الحى ويرقص فى أفراحه .. نراه فى كل شـق وبجـانب كـل حائط وعلى كل سطح ..

وذهب لأعمامه يسألهم أن يعطوه ليطعم أمه وإخوته فأعطوه مرات ومرات وبعدهـا طردوه .. ذهب لأخواله ولم يتحملوه .. ثم ذهب يعمل فلم يقبله أحد لصغر سنه .. وأخيرًا وقف على ناصية الشارع ويده ممدودة أمامه .. يوم والثانى ولا يشعر إلا ويد تسوقه مـن قفاه .. إنه المخبر .. وفى القسم يصبح ياسر فى موضع اشتباه .. وعرف لأول مرة أنـه متشرد.. وأعجبته الكلمة فى البداية .. وكان ينادى زملاءه يا متشردين يا ولاد الكلـب .. لكنه سرعان ما فهم الكلمة فكرهها .. وكره معها الناس كل الناس .

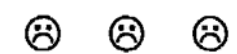
وذهب ياسـر من جديد وبدلاً من أن يلعب مع الأولاد فى تراب الحارة تنقـل بيـن أكثر من عمل ولكن الناس لم يعطوه .. وإن أعطوه فالفتات .. وبأجر لا يـأكل بـه هـو وإخوته حتى العيش الحاف .. وفى الحجرة الوحيدة التى كان يعيش فيها مع إخوته وأمـه الكسيحة والتى تنخفض عن الشارع بنصف متر لم يستطع ياسر أن يعود إلى مكان نومـه إلا بعد أن تنام أمه وينام إخوته ويبدأ يتسلل بين الأرجل والأفخذ والشعور المهدلة يفسح له مكانًا وتشـعر أمه بدخـوله وتشـفق عليه وتؤثر الصمت وإن لم تصمت دموعهـا فـى ليلها الطويل .

وفى ليلة عاد ياسر لكنه فوجئ بأن إخوته فى انتظار عودته.. وكان أول ما صدمه عند دخوله صوت أخيه الصغير محمد ينفجر فى وجهه .." جبت أكل ياخويا .. أنا جعان يا ياسر " .. وكنوع من الدفاع عن نفسه شتم وضرب وسب وخرج من الحجرة هارباً من كل العالم .. وبقى وقتًا تأكد فيه أن عودته ستكون وإخوته فى سابع نومه ، وكالعادة سحب كل جسمه ودخل ، ولكنه لم ينم ، ولم يبحث عن مكان يرتمى فيه للصباح .. وفى الظلام كان يعرف مكان صفيحة الجاز وسحبها وسكبها على رأسه حتى غرق كل جسمه.. وتشم أمه الرائحة وتنادى : يا ياسر انهض يظهر إن أخوك ضرب صفيحة الجاز برجله وسكبها تحتنا .

ولم تتم الكلمة إلى وكأن الشمس قد سقطت بالحجرة .. وأصبح ياسر كتلة من اللهيب وتشرخ المفاجأة لسانها .. وتفتح الشبابيك والأبواب ويسرع الناس بالبطاطين .. ولكن بعد أن أصبح ياسر كتلة من الفحم الأسود اللزج ..

والطفل الثانى وفى نفس اليوم وجده إخوته معلقًا بحزام البنطلون فى الشباك من رقبته.. وكان ابنًا لمحصل لمترو مصر الجديدة.. وكان الأول على منطقة مصر الجديدة.. فى الشهادة الابتدائية .. يصلى ويحفظ القرآن .. ورحل بعمره الذى يتعدى الثانية عشرة .. وغادر العالم .. وليبكى زملاؤه بالصف الأولى الإعدادى الأزهرى .

ومازال الناس نيامًا لا أعرف متى سيصبحون .. ولكنى اؤكد أنهم بالموت وحده سينتبهون .. !



ووجد فى الانتحار حريته

الناس أحرار فى أن يعيشوا و أن يموتوا ؟؟

لا قيود ولا حظر.. ولكن يوجد صنف من الناس محرم عليهم أى نوع من الحرية .. حتى حرية الموت ليست لهم .. فالمأكل والمشرب والحل والترحال والذهاب والمجيء والضحك والبكاء ليس لهم فعل ذلك .. إلا بأمر سيدهم .. يأتى الشخص للحياة فيكون طوع بنان السيد حتى يعطيه السيد صك المرور للعالم الآخر ، فيذهب غير مأسوف عليه .

ولكن وجد فيهم من استطاع أن يتحرر من كل شيء برغم القيود الحديدية المكبل بها يديه وقدميه .. موثوق بها إلى حلقة بالجدار.. وأسوار أخرى تلف نفسه بالقيود النفسية ، برغم كل هذا أراد هذا الإنسان الموت وأصر عليه فاستجاب له القدر .. ومات رغم أنف سيده .. هذا الإنسان الذى حرم من كل أنواع الحريات .. أستطاع رغم الظروف أن يملك حرية واحدة فريدة .. هى حرية أن يغادر هذا العالم الظالم فى أى وقت وبمحض إرادته هو وبكل شموخ .. إنه هو الذى ينوى الموت ويصر عليه فيحقق ما نوى ودون أمر ممن يملكون إصدار الأوامر .

هذا هو المواطن الأفريقى " كيتوش " الذى وجد فى الموت كل أحلامه فى الحرية ! ..

كان عهداً بغيضاً يجسم فيه الاستعمار على نفوس الأفارقة .. وترزح الأمم تحت نير الظلم والاستبداد خاضعة إلى أن يتم الله أمراً كان مقدوراً .. وكانت كينيا من نصيب الرجل الأحمر .. البريطانى الوقح .. وأبناء كينيا سود كالرحم - كالليل الذى يستشعر مخاض النهار ..

وكان كيتوش يعمل فى خدمة مستوطن أبيض فى مزرعة فى " مولو " .. وفى مساء أحد أيام أربعاء شهر يونيو أعار المستوطن الشاب مهرته ذات الغرة البيضاء إلى صديق أبيض مثله ليصل بها إلى محطة السكة الحديد ليأخذ القطار فى طريق عودته .. وأرسل الرجل الأبيض كيتوش الأسود فى أثره ليعود بالمهرة ..

وكان يعلم أنه سيذهب راجلاً خلف السيد ويعود بالمهرة راجلاً أيضاً أمام المهرة ..

فمكان يجلس فيه السيد لا يجلس فيه العبد القذر الأسود .. ولكن امتطى كيتوش صهوة المهرة وأطلق لها العنان تسابق الريح ، ولم يبالى كيف ستكون النتيجة لو علم سيده .. بمجرد أن يمارس شيئاً يريده ولو لدقائق أعظم من حياة طويلة عريضة يعيشها

تحت ظل الاستبداد وظلم السيد .. كان يشعر بأن ما يجرى فيه من دماء وأحاسيس ورغبات هى التى تجرى بعروق السيد .. وقد تكون أقوى .. فلماذا هو السيد ؟ وأنا عبد ؟ .. وكان يؤرقه السؤال .. ويقلقه الجواب .. واطمئن قلبه عندما مر الأربعاء ومر الخميس ثم الجمعة .. وعرف أن السيد لن يعرف .. وجاء يوم السبت .. وجاء للسيد من يخبره بجرم كيتوش ....

ويا للعنة .. الغلام الأسود يمتطى صهوة مهرة الرجل الأبيض ويجلس عل مكان كان يجلس عليه من قبل .. وجلد الغلام بالسياط وأوثق بالحبال وألقى فى مستودع العلف .. وفى ليل ذلك اليوم لحق الغلام التعس بالرفيق الأعلى .

وكان دائمًا ما يغلق ملف العبد الميت .. سواء مات من العمل أو الجوع .. أو مات مقتولاً .. أو مات لمجرد أن أراد السيد أن يرفه عن نفسه وعن ضيوفه فيأتى بأحد الغلمان ليكون هدفًا لرمايتهم .. أو أن يقوم بجلده وهو مصلوب إلى عمود فى ساحة واسعة .. والضيوف تلتهم اللحم المشوى ذو الرائحة الشهية .. والسوط ينزل ويصعد ليترك مكانه خيوطًا من دماء تثير إعجاب السيد وضيوفه وزرقه كلون البحيرة ينتظرونها إن لم يسل الدم .

ولكن وبشكل ما فتحت قضية كيتوش بعدها بشهور وشكلت محكمة عليا للنظر فى القضية .

وكالعادة كان رأى جميع المواطنين المجتمعين فى بهو المحكمة أن القضية واضحه ولا تحتاج إلى عناء .. وأنها لا تتعدى أن يقوم السيد بدفع مبلغ كتعويض لأهل الغلام .. والله يحب المحسنين .. !!

وأمام هيئة المحكمة، وهم طبعًا من البيض، جرى استجواب المتهم الأبيض لا لتقرير الجرم .. ولكن لمعرفة نيته .. وهل هو مذنب قصد قتله .. أم غير مذنب .. وذكر المتهم أنه عندما استدعى الغلام كيتوش .. حضر ووقف بين يديه ، وعلى بعد ثلاث ياردات منه فقط .. ثلاث ياردات .. إنها عند البيض مصيبة .. كارثة .. والتقت أعين المحلفين .. إذ كيف يجرؤ أسود على أن يتمثل أمام سيده الأبيض واقفًا .. بدلاً من أن يأتى راكعًا والتراب يغطى رأسه ويمرغ فيه وجهه .. يالوقاحة السود .. وسوء أدبهم .. ثلاث ياردات وأمام سيده رأسًا برأس .. وهنا اهتزت الصورة .. وانقلبت الأوضاع لسوء

الأدب .. وأصبح الأبيض مجنياً عليه ، واستدر عطف هيئة المحكمة لحقه الذى لحقه الأذى .. يداس على طرفه الأسود الذى أراد أن يكون له ما للأبيض من هواء وكرامة ..

ويذكر الأبيض كيف أنه سأل الغلام عمن أعطاه الأمر ليركب المهرة ، ولم يرد الأسود .. وكرر عليه السؤال أكثر من خمسين مرة ! وفى النهاية رد الفتى وبوهن شديد "لست لصاً " وكان رداً وقحاً استحق عليه أن يجلد بالسياط ... ولقد تم جلده فى حضور اثنين من أصدقائي وكانا فى غاية الاستمتاع لمهارة الجلد وقوة ضرب السوط ، حتى لا يزيد من ألم المجنى عليه .. وبعد ذلك أمرت أن يوثق بالحبال ويلقى به فى مستودع العلف .. وبرر ذلك بقوله : خشيت أن ينطلق الغلام وبدافع الانتقام يفسد المزرعة وينشر بها الضرر .

ويذكر أنه عندما ذهب إلى المستودع ليرى فيه الغلام .. وجده وقد انتقل بعيداً عن المكان الذي وضع فيه .. والقيود ليست فى يديه ورجليه ومغمى عليه .

واستدعيت خادمين وأمرتهما فأوثقاه من جديد وبصورة أشد مما كان عليها أول مرة .. وأن يبقيا فى حراسة هذا الأسود الوقح الذى جرؤ على فك قيوده دون إذنه .. وما كاد يستلقى السيد على فراشه حتى جاءه أحد الخادمين ليبلغه بأن الغلام قد فارق الحياة .

وكان تقرير الموت للأسود قانوناً يرجع لنية السيد .. هل أراد بجلده له أن يموت ؟ .. إنما الأعمال بالنيات .. ودرجة الجرم تتوقف على نية السيد لا على النتيجة التى أدى إليها فعل ذلك السيد .

وقال الطبيب الشرعى بأن المتوفى مات نتيجة الضرب والجلد .. ولكن الطبيب النفسى قال رأى فى غاية الغرابة والاعتزاز " بأن الوفاة حدثت لأن المتوفى هو الذى نوى الموت وأراده وأصر عليه " .. وذكر الطبيب بأن تجاربه العديده فى تلك المستعمرات أعطته قناعة تامة بأن الأفريقى إذا أراد الموت وأصر عليه فلا بد وأن يستجيب القدر ! ..

وأخذت المحكمة برأى الطبيب النفسى وبرأت ساحة المتهم وبررت جلد الغلام بالسياط بأن القصد منه كان التأديب !

" ولقد أثبت القاضى هنا أن النيات تبرئ القاتل وتجرم المقتول " .

خرجت هذه القضية أخيراً من بين الوثائق البريطانية والتى أفرج عنها منذ سنوات ومن يطلع عليها سيصل لنتيجة هامة أو فى غاية الغرابة ..

أن الفتى الكينى " كيتوش " والذى حرم من كل أنواع الحريات استطاع رغم كل الظروف المطبقة أن يملك حرية واحدة وفريدة وهى حرية أن يغادر هذا العالم فى أى وقت ، وبمحض إرادته ولأول مرة فى حياته أن يكون قراره فى أن يعيش موته وهو حر .. !

ولتقع الأمور فى نصابها .. أقول للذى انتحر إنه على حق .. أنت صح .. أنت لم تجبن فانتحرت برغم أنك لست ضعيفاً .. وقاومت وحاربت وأخيراً وعندما لم تجد إلا فى موتك حياة لك ولغيرك أقدمت !

أما لمن يجلس بجوار حائط الحياة يتخفى من الشمس ويحتمى من المطر إلى أن تفوح منه رائحة العفن والتحلل .. ويأتى الرحيل فى جبن وهو لا نفع له فى نفسه إلا أن يصيب الآخرين بضرره وكله وتواكله .. أقول له اذهب فتخلص من نفسك وخلص الآخرين منك ..

أقول لك اذهب وأنا أعلم انك أجبن من أنت تنتحر .. وأضعف من أن تجاهد ..

وأردأ من أن تسير فى مناكب الأرض لتبحث عن رزقك ..



فن الانتحار

وأقول لهؤلاء الذين يريدون أن ينسحبوا من الحياة بهدوء ... ويودوا لو لم يشعروا بألم ما .. أو أن يكون موتهم في توقفهم الأخير .

خرج في فرنسا منذ سنوات كتاب كان قنبلة في وقته .. والكتاب يدور موضوعه حول الموت الجميل .. أى الموت بالأحلام .. والموت الجميل تقوم به جمعيات ومصالح وهيئات مشهورة ومعروفة للكل .. وهذه الجمعيات يتم الإعلان عنها مثلها مثل الرابسو والصابون الرخيص .. والإعلان بسيط وسريع ويحمل عدة كلمات تعطيك إيحاء بأهمية تلك الجمعيات أو عندما تعزم على أمر الذهاب للعالم الآخر ، ما عليك إلا أن تخطف مشواراً إلى احدى تلك الجمعيات وتعرف منها التفصيلات كاملة ، والنصائح المهمة .. سنعطيك كبسولة أو شىء ما تطبق عليه يدك وتنام .. أو أن تبلعه مع قليل من الماء وتسترخى على السرير .. أنصحك قبل النوم أن تكتب وصيتك .. !! .

الكتاب باختصار اسمه " فن الانتحار " .. والآن أتركه يقول لك في مرح وخفة وكأنه يعلن عن نوع جديد من البارفان ..

جمعية الموت الجميل الفرنسية .. تعد عملاءها بوصفات للموت لا تحتمل الفشل .. ومستعده لتوصيلها للمنازل .. إنها الموت من أول نظرة ..

مصلحة الموت الأمريكية من باب المصلحة لباب القبر بدون المرور على الحانوتى لو أمكن ذلك .. مصلحة تحتفظ لكم بأسراركم حتى تودعكم وإياها إلى غير رجعة ..

جمعية الموت بقدر بزمبابوى .. حيث الموت بين الأدغال .. وأنت بين فروع الشجر أو وأنت تلتهم تفاحة .. حفلة موت وفرصة لن تتكرر ..

التجمع الألمانى لإقرار حق الموت للجميع .. يضمن لك ميتة مريحة .. ميته وبعدها الجنة .

جمعية المخرج البريطانية .. جربنا مرة ولن تنسانا بالمرة .. جمعية تضمن لك الخروج ، حيث لا مدخل بعد ذلك ! ...

إلى السادة راغبى الخلاص .. وإلى التواقين للخروج من هذا العالم .. إن لم تعجبكم كل تلك الوسائل لرحلتكم الأخيرة الرائعة إلى حيث الظلام والسكون والصمت .. فعليكم

استشارتنا فلنا جمعيات مماثلة فى أغلب دول العالم من جنوب أفريقيا لاستراليا لكنـــدا .. للنمسا والنرويج ، والسويد ونيوزيلندا وسويسرا ، وحيث تغمضون أعينكم علـــى أعظـم مناظر الدنيا جمالاً وإلى الأبد .

إن الموت حقيقة تأتى ، ولا تستطيع منعه .. وعند إقدامه نقف أمامه وقفـة العـاجز الذى لا حول له ولا قوة .. وتلك الجمعيات لها مقارها ومقننة دولياً .. ولهـا مؤتمراتهـا التى تنفذ توصياتها بكل دقة .. وهذه الجمعيات تعطيك الحق لأن يكون لك حرية الموت .. فـإن أتيت للعالم جبراً .. فليس عليك أن تخرج منه جبراً أيضا .. بـل لـك أن تخـرج باختيارك وفى أى وقت تشاء .. حرية أن تعيش فى حرية .. أن تمت فى حرية والحريات لا تتجزأ طالما أنك لم تسئ إلى حريات الآخرين .

والكتاب برغم موضوعه السوداوى .. إلا أنه جذاب شيق .. تلتهم صفحاته بانبهـار وأنت لا تصدق أنك تقـرأ فى أكثر المواقف جلالاً واقتداراً ... فالموت هو الحقيقة الوحيدة فى هذا العالم .. والكتاب لم يقرأ فقط ولم تجذب غرابته القارئ لأن يعلم شـيئا جديـداً ، وعالما مجهولاً .. بل الذى أدى للاستغراب أن يتلقى رجال البوليس مـن أحـد الأطبـاء المسئولين عن غرفـة الانعاش بكلية طب " تولوز " أنه قد تلقى ثلاث حالات انتحـار .. اتبع فيها المنتحرون طرق إعداد حفلة الموت والتى جاءت بالكتاب وبدقة .. والكتاب أثار الرجال المدعين بالحفاظ على قيم وأخلاقيات المجتمع .. والحرس القديـم للبيروقراطيـة قديمها وحديثها .. وأثار الكتاب السخط بين الأطباء ورجال القانون ورجال الاجتمـاع .. وأصبح الكتاب حديث المجتمع .

وتخرج الصحف على صورة شاب فى الرابعة والعشرين نائماً على سـريره لكنـه ميت وإلى جواره الكتاب مفتوح على بابه العاشـر .. وهو البـاب صـاحب الوصفـات الحقيقية أكيدة المفعول والتى عدد بها المؤلف المقادير والجرعات بدقة فائقة .

والأدوية المستخدمة هى التى غالبًا ما تستخدم فى علاج أمراض القلـب والضغـط وضد الألم والمنومات ! ..

والعجيب أن كل هذا يحدث فى مدينة تعشق الحياة كباريس .. !

المدينة التى يعيش فيها نجوم السينما العالمية نصف أعمارهم تحت الأضواء الفرنسية يعبون من إبهارهـا .. ويستحمون بعطر أعلامها .. ويتنشقون بسحر كاميراتها .. تلـك هى باريس .. التى كانت ومازالت مقصـداً ومـلاذاً لأفـواج مـن الفنـانين والكتـاب

والعاطلين .. وأفواج من طلاب العلم وطلاب اللهو سواء .. يـأتون مـن شـتى أرجـاء الأرض إلى مدينة الفن والنور ... المدينة التى توافرت فيها متعة العقل ومتعة الـروح .. ومتعة الجسد ..

تلك هى باريس الجنة .. وباريس النار .. وباريس التى خرج فيهـا كتـاب .. فـن الانتحار .. وهذه هى المدينة .. وهذا هو فنانها نجم السينما الفرنسية الصاعد .. المنمنـم الملامح .. الحزين البسمة .. كحيل العينين رقيق الطباع خشن الطموح ..

" باتريك دوفر " بطل الأحداث الفرنسية .. هذا الطفل الشاب البرئ .. والذى رحـل فجأة صباح يوم الجمعة ١٦ يوليو ١٩٨٢ وهو فى عامة الخامس والثلاثيـن . وبعـد أن سعت إليه كل آمال الشباب أنهى حياته برصاصة واحدة اخترقت تلك الـرأس الصغـيرة والتى طالما حلمت بالمجد والحياة .. ورحل ليـترك وراءه بكـاء العاشـقات ، ودمـوع المعجبين عندما يشاهدون أحلامه ويرون هذا الإتقـان المبدع فى فيلم " فندق أمريكـا ".. وليلعنوا صاحب الكتاب الذى حمل فتاهم على جناح المـوت الجميـل .. ليـترك المجـد والشهره .. وليقول للموت أهلاً ... وبعد عناء الرحلة الأولى آن له أن يسـتريح .... وإن يرفض السيناريوهات العديدة .. ولا يقبل إلا ما تريده نفسه .. الفلوس لم يعد يعرف لهـا مكان .. فجاء بسكرتير ليقوم بمهمة المفاوضات مع المنتجين .. النساء اشهاهن يقبلن عليه واجملهن يخطبن وده .. ولنعلم تلك العاطفة المشـبوبة التى جمعت بينـه وبيـن الممثلـة الجميلة " كاترين دينيف " " وناما " بأحد وصفات الكتاب القنبلة .. ناما ولكنهما لم ينهضـا فى اليوم التالى .



إعــلان المــوت

الحرية هى أولى الحقوق التى تولد مع الإنسان والحرية فـــى الغرب مكفولة للجميع .. حـــرية الحياة مثلهـــا مثـــل حريـــة المـــوت .. مثل حـــرية التنقـــل .. لا حـــدود ولا قيـــود.. ولا أسوار .. عالم حر .. عالم مفتوح .. حتى أنك تفتح الجريدة وتطـــل علـــى صفحـــة الإعلانات المبوبة لتقرأ هذا الإعلان مثلاً ، فى ١٤ يونيو ١٩٧٧ يدعو الناشر الـــذى لـــم يوقع أسمه إلى " حفلة انتحار " .. هذا الإعلان فى جريدة "ليبرايون" وتحت العنوان تقول الكلمات : الموت بشكل ثنائى أو مع مجموعة تحول إلى " احتفال " .

يقول المراقبون للحـــالة بصراحة ، لم يمر مثل هذا الإعلان بنكتة وابتســـامة كمـــا توقعنا .. بل لقد وجدنا حالات متناثرة من الانتحاريين الشباب .. والعشاق الصغار ..

بعد حفلة لهو وعناق نجد المراهقين ممسكين بخناق بعضهم فى حضن واحـــد إلـــى الموت .. ولم يمر ذلك العام حتى ظهر إعلان آخر يتساءل " من يدلنا على ميتة هادئة ".

إن من حقنا الرغبة فى الموت .. ولكن ليس بإلقـــاء أنفســـنا من الطابق العشرين .. أو بإطلاق الرصاص على رءوســـنا .. هيا أيها الأطباء تخـــلوا عن أنانيتكم وأرشـــدونا إلى ميتة سهلة .. رائعة .

التوقيع

بيـــاتـــريس

ويتساءل مؤلفا الكتاب عن هذا البياتريس ويقولا : " إن كان الموت حقيقـــة يوميـــة واردة فلماذا لا يكون الطريق إليه واضح المعالم .. سهلاً لكل راغب فيه ؟ " ..

نعلم جميعاً أنه ما وجد العلم إلا للحياة .. والحفاظ على الحياة .. لكن إن يكن العلـــم للدعوة للموت والحض عليه فهنا كثير من علامات الاستفهام .. ويأتى الكتـــاب المذهـــل بحقائق أكثر غرابة برغم أنه لم يفعل إلا أنه رفع الستار عن المسرح ليعلم الناس حقيقـــة اللعبة وأسرارها .. وإن لم يكن هذا الكتاب إلا عامل كشف فقط .. فلم يأت بجديد أو يخلق من عدم .. والكتاب يسرد حقائق مذهلة عن طرق للموت فى بلاد أخرى .. فيذكر أن أول مؤسسة وجدت للدفاع عن حق الإنسان فى الموت EXIT والتى تأسست فى بريطانيا عام ١٩٣٥ ، ووزعت فى ١٩٨١ أكثر من سبعة آلاف نسخة من برنامجها للمـــوت الشـــهى

اللذيذ .. والتى تبدأ بابتلاع الأقراص .. أو باستنشاق الغاز .. أو بالاستمتاع بحمام ثلج وإلى الأبد .. وانتهاءً بحقنة من النسيم العليل تخلصك من عذاب ومشاهدة المسلسلات المصرية الممطوطة .

☹ ☹ ☹

مؤتمرات الموت والانتحار

وأصبح للموت مؤتمراته واجتماعاته والإعلان عنها .. مؤتمرات تجد من يمولها وينفق عليها .. فعلاً عالم غريب .. وناس أكثر غربة .. هذا فى نفس الوقت الذى يموت فى أفريقيا وحدها فى العام الواحد ما لا يقل عن خمسة مليون طفل بسبب سوء التغذية ..

المهم أنه قد عقد فى اكسفورد وفى الفترة ما بين ١١:١٤ سبتمبر سنة ١٩٨٠ وبحضور عشرين وفداً يمثلون خمس عشرة دولة ، عقد مؤتمر " الموت حق لكل إنسان" وانتهت توصيات المؤتمر إلى ضرورة التجمع تحت لواء اتحاد عالمى شعاره :

" إذا لم تكن الحياة اختياراً ... فليكن لنا فى الموت خيار .. "

☹ ☹ ☹

بيدنا لا بيد عمرو

حقيقى فى عالم الموت النووى والكيماوى والبيولجى " من يريد الموت لا ينتظر القانون " .. ولا تكييف التهمة .. فكم من حالات الموت الجماعى قامت بها الدولة .. وكم من حالات انتحار دفعت بها الأجهزة البوليسية .. لأناس أقوياء الإراداة .. مرفوعى الرأس والرأى .. رفيعوا المبدأ .. لم يتحملوا كل هذا العذاب والتى تعجز جهنم عن الإتيان به ، ووهنت إرادتهم بوهن الحياة .. ووهن كل شيء .. فوضعوا لحياتهم فى النهاية حداً .. عناداً فى قاتليهم ! ورغماً عنهم حتى لا يتركوا لهم متعة فى أن يروهم وهم يتعذبون .. وقالوا بيدنا لا بيد عمرو .. هذه هى مذبحة الدولة .

فعندما تنوء قوى الإنسان تحت الضغوط الخارجية الموحية فى السجن السياسى ، يفضل هؤلاء الموت الاختيارى ، والذى قد يضطر إليه الإنسان .. وتذكر كلمات أولوبكا – ما ينهوف – زعيمة منظمة " بادر ماينهوف " والتى كتبتها من سجنها فى فبراير ١٩٧٤ إلى محاميها وقبل انتحارها .

قالت :

" مشكلتهم معنا أن حسنا السياسى لن يغادر أجسادنا إلا ومعه أرواحنا ... " .

وأيرلندا الدولة التى تهيمن عليها بريطانيا وتطبق عليها بالناب والمخلب ولا تدعها تفلت .. برغم الجهود المضنية التى يقوم بها ثوار الجيش الايرلندى .. فعندما فشلت كل المحاولات الفدائية والهجومية لم يجد زعيمهم "ساندرز " إلا الدفاع السلبى .. ولكن كيف .. هل يفعل ما فعله غاندى .. ولكن غاندى عاش مع تحرير الهند .. ومات ساندرز احتجاجاً وإدماغاً لكل ظالم مستبد .. وأصبح ساندرز ورفاقه رمزاً للبطولة والنضال .. وقوة تدفع ثوار الجيش الأيرلندى ...

إضراب الرئيس عن الطعام :

وفى السادس من نوفمبر سنة ١٩٤٨ أنهى الرئيس البوليفى سيلز سوازو إضرابه عن الطعام .. وبإضراب رئيس بوليفيا سجلت تلك البلد رقماً قياسياً آخر غير التى سجلته فى مجال كثرة الانقلابات .. وهذه هى المرة الأولى فى العالم التى يلجأ فيها رئيس دولة إلى الإضراب عن الطعام أثناء فترة حكمه تعبيراً عن الاحتجاج .

وكان الرئيس البوليفى قد بدأ إضرابـــه فـــى ٢٥ أكتوبـــر ١٩٨٤ احتجاجًـــا علـــى الادعاءات التى وجهت له من جانب عضو برلمان وقال فيها :

" إن ســـوازو استقبل زعيم عصابة مخدرات وأنه تلقى منه رشوة لتســـهيل صفقـــة مخدرات " مما اضطر سوازو إلى الصيام عن الطعام .. وعلل صيامــــه بســـببين الأول : احتجاجًا على ما أســـماه بالاضطرابات .. ثانيًا : لإعادة الوحـــدة الوطنية والســـلام إلـــى بوليفـــيا .

وأعلن سوازو بعد إنهائه للإضراب أن طريقته قد نجحت تمامًا .. ونصح الزعمـــاء السياسيين الآخـــرين بتجربة طريقته فى حل المشاكل التى تعانى منها بلادهم .

وفى أعقـــاب الثورة انتشرت الملصقات تقول : " قبل أن تنتحر .. تعالى كى تلتقـــى بنا " وكانت صاحبة الدعوه هى الدولة بطبيعة الحال .. والتى أنشـــأت مراكـــز للتقصـــى النفسى لتعقب حالات الانتحار التى كانت منتشرة قبل عام ١٩١٧ وما بعدها .. وإنه لمـــن أشهر حوادث الانتحار التى حدثت فى روسيا على المستوى الرسمى هى حالة انتحار "بول ولارا " ، لقد وضع الاثنان حدا لحياتهما مستخدمين " الســـيانور " .. ولقد كـــان " بـــول لافرج " أحد الماركسيين البارزين ومتزوجًا من لورا ابنة كارل ماركس بناء على ســـبق إصرار من بول على الموت فى ســـن السبعين .. ولموته حزنت روسيا .. وحزن العـــالم كله ، وشيعه لينين بنفســـه ..

ومازلنا مع الكتاب القنبلة .. وفى أخطر فصوله يأخذنا المؤلفان للبحث عـــن أســـهل الطرق المؤدية للموت بالعقـــاقير ..

وتم اختيار العقاقير بالذات لأنها وسيلة لدى الفرنسيين .. ويسهل الحصول عليها من الصيدليات .. وتحت عناوين تحمل أســـماء أدويـــة ضد الألم .. أدوية منشـــطة لعضلـــة القـــلب .. أدوية لعـــلاج ضغط الدم .. أدوية ضد الاكتئاب .. أدوية مهدئـــة .. وأدويـــة منومة .. مع تصنيف لأنواع العقاقير ووصف الكمية اللازمة تمامًا بالجرام لموت هـــادئ جميل .. بل مع دراسات مقارنة بين تأثيراتها السريعة والبطيئة .. كيف تعمل وعلـــى أى الأجهزة تؤثر ؟ ...

باختصار كيف تقتل .. ؟

ولنتأكد من صورة .. ولنتأكد كيف أشرفت على الموت .. وببساطة جداً يشرح المؤلفان .. كيف أصبحت على حافة الهاوية .. ومن أين سيواتيك مصيرك ؟ .. من الرئة .. أم من المخ .. أو من الشرايين ؟ .

بل ويتماديان بنفس البساطة ليدعواك لمشاركتهما فى متعة " تركيب مجموعة من العقاقير " ويستفيضان فى الثرثرة .. وكأنهما يشرحان لك كيف تعد طبق بيض من كتاب أبلة نظيرة ..

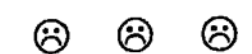
وليسهل عليك الأمر .. ومن أجل ألا ترهق نفسك فى البحث وأنت تأخذ قرارك يذودك الكتاب بكافة عناوين وأرقام الجمعيات التى تساعدك على اتخاذ قرارك .. وأيضا بأرقام التليفونات وساعات العمل .. وغالباً ما تعمل ٢٤ ساعة فى اليوم .. وأيضاً من يجبن يقول له الكتاب هناك جمعيات لإنقاذك لو ترددت .

أثار هذا الكتاب الكثير من دوائر الاستفهام وعلامات التعجب فى كل الأوساط الفرنسية .. ولكن هنا يطرح سؤال أساسى : ..

لمن بالتحديد كتب هذا الكتاب ؟ ..

هل هو حقاً لراغبى الموت ، أم لمحبى الحياة الحقيقية ؟ أم هو دعوة خبيثة ومن نوع جديد تقول لك : حرام .. لا تنتحر .. وأنت حر .. وهديناك النجدين ..

والكتاب دعوة للحياة والأمل .. ويقول لمن يريد الانتحار فلتذهب إلى الجحيم ولتتركنا نعيش نحن فى غنى كامل عن أمثالك .. إنك تحمل الاكتئاب والحزن والغضب أن لم يكن موتك وانتحارك ذا قيمة .. وها هى وسائل وجمعيات تساعدك على إن ترحل بعيداً .. ارحل يا أخى وخلصنا ..



انتحار المتنبي

ما بين الانتحـــار والشجاعة أحيانًا خيط رفيع .. بل نكاد نسمى كثـــيراً من دروب الشجاعة تهوراً .. أقرب للانتحار منه للشهادة .. فـــالجندى الذى يعلم أنه لا محالة هالك إذا دخل فى مبارزة مع خصمه.. أو كـــان بمفرده فى مواجهة مجموعة كبيرة .. وقتل .. هل من الممكن أن نسمى هـــذا شـــهيداً ؟ .. فهـــو فى نفســـه يعـــلم أنه ميت ومقتول قبل أنه يشـــهر ســـــيفًا أو يرفع يداً ..

ولنذكر معا أن المتنبى عندما اصطدم بعدوه ابن عباد وهو عائد من صيده ، ووجـــد أنه لو دخل معه فى مبارزة أنه حتمًا سيقتل غيلة وغـــدراً ..

ورأى المتنبى أعداءه ففـــر هاربًا .. لينجو من نفســـه وهو الشاعر صاحب المبـــدأ ورفيق الموقف .. ورآه خـــادمه وهو يهـــرب فنادى عليه : يا أبا الطيب كيـــف تفـــر وأنت القـــائل :

الخيل والليل والبيـــــداء تعرفنى ... والسيف والرمح والقرطاس والقلم

عندئذ لوى أبو الطيب لجام فرسه واستدار للخلف ليدخل فى معركة مع أعدائه يعلـــم فيها أنه لا محاله مقتول ، وإن لم يستطيعوا التغلب عليه سيغدروا به ..

وقد حدث .. ومات المتنبى.. الرجل الذى قال عنه أبى رشيق صاحب كتاب العمدة :

" لما ظهر المتنبى ملأ الدنيا وشغل الناس " .. مات وماتت معه أشـــياء واشـــياء .. ورحلت معه قيم وثروات عربية " .

لكن السؤال الذى يرمى بنفسه هنا :

هل يعتبر أبو الطيب بطلاً ؟ وهل موته شهادة ؟

وإن كان كذلك كما يزعمون .. فـــأى بطولـــة هـــذه ؟ البطولة التى لا غـــاية لهـــا إلا الفناء ؟ .. وأى شهادة تلك التى غايتها الهلاك .. ؟! ولا تلقوا بأيديكـــم إلى التهلكـــة .. وهل من وقف أمام القطار يقـــال عنه شجاع ؟ .. وأى معيار لشجاعته ؟ .. إنها الشجاعة الممطوطة ..

الحقيقة أن أبا الطبيب انتحر .. وانتحر من أجل نزعة فردية .. ونعرة أنانية .. هـذا الشاعر دفعته حميته وكلماته ومن ورائها غرائزه .. ككاتب .. ليظهر أمـام النـاس أنـه الكاتب والشاعر .. صاحب القول الفعل .. وصاحب الفعل الكلمة .. هـذا الكـاتب جبـن وهرب عندما كان وحده ، ولما ذكره أحد قرائه بقـوله استدار ليقـاتل .. إنـه انتحـار المراءاة .. انتحار المرائى .

ولتعرف الفرق بين انتحـار المتنبى وانتحـار الطبيب النمساوى وجـراح العيـون الكبير .. والذى ذهب يستأصل العين المريضة لأحـد مرضـاه .. وبعـد أن اسـتأصلها اتضح له أنه استأصل السليمة وكانت اليسرى .. فأسرع إلى غرفته بالمستشـفى ووضـع فوهة مسدسه على عينه اليسرى وأطلق النار فمات لساعته .. !

هذا الضمير وهذه اليقظة وكل هذا الخلق فى أن يقتص من نفسه من أجل الآخرين .. أن يقتص من كله من أجل جزء بالآخرين .. والمتنبى خشى أن يقول عنه الناس إنه يكتب ليقبض .. وضميره تركه بين الصفحات .. فلو لم يراه أحد لعاش المتنبى عمراً أطول .



عندما يكتب المفكر لينتحر

ما من كاتب إلا واتخذ الانتحار مادة لفكره الروائي أو الشعرى .. أو الأدبى .. بل قل أن يوجد فى رواية شخصية منتحرة .. فالانتحار ليس مستغربا .. وليس بمستبعد .. بل هو موضوع يعيش بيننا وبقوة .. ويؤكدونه جميعا وفى جميع أعمالهم بأن الإنسان لم يجن فى حياته الطويلة على ظهر الأرض إلا الشقاء والتعاسة ..

هذا التيار تستطيع أن تلمسه عند " كافكا " حين يؤكد فى كل رواياته "بأن الإنسان قد حكم عليه بالحياة .. وإن أول علامة من علامات المعرفة الناضجة هى الرغبة فى الموت " .

وقال البير كامى كلمته المشهورة بأن هناك مشكلة فلسفية واحدة هى الجديرة بالبحث لجديتها وهى " الانتحار " .

والمسرحي الأمريكى أوجين أونيل يبنى مسرحياته أيضًا على أن :

" الحياة صراع بين الوهم والحقيقة " .. أى بين ما هو فكرى غير ظاهرى وبين ما هو مادى ملموس محسوس .. ويؤكد أونيل أن " الوهم هو الذى يعين على تحمل الحياة فى حين أن الحقيقة باهظة الحمل بل هى تعنى الموت " .

ولقد بدأ ت . س . إليوت حياته الشعرية سنة ١٩١٧ متشائمًا كارهـًا للحياة إذ أصدر فى هذا العام مجموعة قصائد مختاره وأشهر ما فيها أغنية العاشق ج . الفريد بروفردك .. وشخصية بروفردك هى نفسها شخصية إليوت .. والرجل البائس فيها والذى يخشى أن يرتد خائبًا ، والذى لا يجرؤ على الحركة إذ يخشى أن يزعج الكون .. والذى يدخل نفسه وذاته تعيقه ليتدبر .. فى خلال تلك الدقيقة يجد متسعًا للعزم والعدول عن العزم والعدول عن العدول .. لا تتعجبوا ..

هذا الرجل المتوقف عن الفعل هو نفسه ت . س . إليوت .

ومن البؤس والتشائم انتقل لحظيرة الدين لكنه فى النهاية لم يسترح فهجرها وأخذ ينعى العالم فى قصائده .. و " الرجل الأجوف " أو " الأرض الخراب " ، " والموت عطشًا " إلى آخر الرباعية .

ويرى إليوت أن الخلاص هو من خلال قصائده هذه .. اهبط إلى العـالم السـفلى .. إلى العزلة الدائمة .. العالم الذى ليس عالماً ! ولكنه ما ليس بعالم . واللحظة التى تسـعد الإنسان هى :

" لحظة الوجد فى الشجرة التى تلاطمها الأمطار " ..

" لحظة الوجد فى الكنيسة التى تخترقها تيارات الهواء حين يتكاثف الدخان .. نذكرها أجل مشتبكة بالماضى والمستقبل " ..

وبالزمن وحده تقهر الزمن .

وكل سعى الإنسـان إلى الخلاص فى مدى عشـرين قرنـا قـد آل إلـى العقـم والإفلاس .. إن الدورة التى لا تنتهـى للفكـر والعقـل .. والتجـارب التـى لا تنتهـى والاختراعات التى لا تنتهى .

قد علمتنا الحركة ، ولكنها لم تعلمنا السكون . وعلمتنا الحـديث ، ولـم تعلمنـا الصمت .. وعلمتنا الكلمات ، ولم تعلمنا الكلمة .

وجهلنا يقودنا لنقترب من الموت .. ولكن القرب من الموت ليس قرباً من الله .

أين الحياة التى أضعناها فى العيش .

أين الحكمة التى أضعناها فى المعرفة .

أين المعرفة التى أضعناها فى الأخبار .

أين دورة السماء فى عشرين قرناً .

قد أبعدتناعن الله وقربتنا من الموت .

إنه التخبط فى دروب عشواء ..

☹ ☹ ☹

هروب .. أم انتحار

ومن لم يستطع أن يهرب من الحياة .. يهرب من نفسه .. يهرب من الناس .. والمجتمع .. وما يفعله هو أن يدير للحياة ظهره ليتخفف من أحمال الأسرة والمستقبل والأمل والدفء وينطلق وحده خفيفًا .. ويغرق وحده فى غمار المجاذيب والمغيبين على أرض الحضور .. فإن ذهبت امام مسجد الحسين سيصطدم وجهك بجمع من هؤلاء بلحاهم البيضاء ، ووجوههم السمراء والجلاليب البيضاء ، والعمم الخضراء والمسابح الطويلة .. ومنهم الشباب بقوتهم التى تجر خلفها عربة كارو ويلقون بظهورهم إلى حائط الضريح .. ويحدقون فى المارة ببلاهة .. لقد نفضوا أيديهم من كل شىء ووجدوا فى الكسل متعتهم .. وفى التنصل من كل ما هو مسئولية وما يمت لاعباء الحياة من صلة .. مثلهم مثل الحيوانات الضعيفة التى قنعت بالشمس .. وقنعوا ببعض سيجارة وبقية من رغيف .. ويحكى لنا كاتبنا الكبير توفيق الحكيم .. حكاية شاب شرقى هاجر إلى باريس وبرأسه عين متطلعة نهمة إلى طلب المعرفة وكل ما هو جديد مثير فى عالم غريب ويشرح ذلك فى كتاب - زهرة العمر ، يحكى حكاية الكلوشار الفرنسى والذى رأى الحكيم يدور بالمتحف .

وبطيبة الشيخ العجوز صاحب العين الثاقبة رأى حيرة وقلق وغربة الشاب بين جوانب المتحف .. ويقترب من الشاب المبهور وراء اللوحات الرائعة وأخذ يشرح له محتواها وتفسيراتها .. ومذاهب الفن المختلفة .. ويقرأ له كتب الأدب .

وذهب الشاب لحجرته .. ولكنه لم يكن وحده .. لقد كان بذراعه يد متعلقة .. لم تكن لفتاة فرنسية تطلب المتعة لليلة وتذهب .. بل يد لأحد المجاذيب المعتوهين وهو الذى قابله فى المتحف .. وفرح الشاب بالمجذوب المثقف برغم أنه يعيش عالة عليه .. وعندما أحس الشاب أنه لم يعد فى حاجة لهذا الكلوشار الصاحب والدليل المرهق تخلص منه فى جمود وقسوة .. وما لا تعلمه أن هذا الكلوشار العجوز كان فى يوم من الأيام شاعراً مشهوراً له اسمه وصيته .. ودارت الأيام ووقع الشاعر تحت رحاها فطحنته وألقت به على الهامش .. وشيع الشاعر المشهور فى يوم أسود ، وهو حى جنازة اسمه وشهرته ، ولم يحتمل الحياة فأراد الهروب منها للأبد .

ولما فشل .. خرج من البيت مشيعًا وراءه كل عزيز .. وأدار للحياة ظهره وجلس على ناصية شارع الصعلكة ..

وكالتابوت يسير على قدمين ..

☹ ☹ ☹

وعندما ينتحـــر شخص عادى .. قد يكون غالباً من جـــراء مشكلة معينــــة أرقــت نفســـه .. فآثر الهروب من الحياة على أن يواجـــه مشكلته .. فكل شيء فى هـــذا العـــالم عبث .. من وجهة نظره .. وكل ما يطلبه لا معقول .. وكل دائم فان .. وصحيح اليـــوم خطأ الغد .. وجميل الأمس قبيح الآن .. حياة لا نعلم من حقيقتها إلا الشقاء والتعاســـة .. حياة تطرح منها كل ما هو جميل وحلو ليبقى لنا القبح والملح .. كـــل هـــذا الكـــم مـــن التعاســـة .. وكل صنوف الضياع والألم .. وكل هذا لا يساوى شيئًا .. لأنه لا شيء ..

إذن لماذا نعيش ؟ .. ولماذا خلق الله العالم ؟ ولماذا نشقى ونتعب ؟ وطالما كل نهاية هى فى الموت .. ماذا يضيرنا إن متنا اليوم أو متنا الأمس ؟ ..

هذا الإنسان الصغير عندما يعيش حياته فى تصادم لا ينقطع .. ولا يخرج من أزمة إلا ليدخل أخرى .. ولا تنتهى مأساة إلا لتبدأ مأساه جديدة .

وعندما يشعر بأن الظلم مطبق على حياته .. وكل عمره .. وأنه لا فائدة ولا نهايـــة للشـــقاء .. ماذا يفعل ؟

ينتحـــــــــر ...

قد نعطيه بعض العذر .. وقد نلومه لأن الإنسان ما وجد إلامن أجل موقف وجود .. والإنسان محكوم عليه بالحياة .. محكوم عليه بالحرية .. والحرية هى المسئولية ، وهـــى قرينة أو قريبة للقدرية .. فكان يجب أن يقاوم حتى يسقط وسط الميدان لا أن ينشـــد هـــو السقوط .

فالإنسان لم يخلق من أجل أن يسقط .. بل خلق من أجل أن يسمو ويرتقـــى .. مـــن أجل عمران عالم تتراكم عليه كل القوى المرئية والغير مرئية لتحطيمه .

ولكن قبل أن نتحدث فى انتحار العباقرة .. العباقرة ينتحـــرون لمـــاذا ؟ .. عبـــاقرة يملكون الشهرة .. والمال والوسط الاجتماعى .. وفى النهاية يرون أن الحياة عبث .. وانه لا ثبات لهذا العالم المتغير المتقلب ..

فقبل هذا يجب أن نعرف هل الدافع للانتحار شيء من الجنون .. وما هي تلك العلاقة التي تربط الجنون بالعبقرية .. هل كل عبقري مجنون .. وهل كل مجنون عبقري .. ؟

إن اشراقات العقل من إشراقات الجن .. وهي نتاج عمل جنوني لا يتحمله الإنسان العادي .. فيتهم صاحب تلك الإشراقات بالجنون والتخريف .

لقد حكم على جاليليو بالحرق .. وكفرته الكنيسة .. لماذا ؟ .. لأنه أثبت خطأ نظرية ارسطو وقال إن الأرض والعالم كله يدور حول الشمس وليس العكس .. واتهمته الدنيا كلها بالجنون .. وأحرقت كتبه وطورد في حياته .. وحكم عليه بالإعدام .. ولم يجد إلا كهوف الحيوانات وجحور الذئاب ليحتمي فيها من ظلم الإنسان الغبي .. القاصر الفكر الرافض للحوار ..

كثير من الكتب صدرت لأنها تناقش مسائل يعتبرها البعض حكراً لهم وحدهم .. أن يعتبر البعض الدين كهنوتاً لا يجوز لأحد أن يفتش فيه .. أو يدس فيه أنفه .. ولأن تنتقد قاعدة دينية .. وتشرح إحدى تلك الطقوس .. تنهال عليك الكلمات كالمعاول .. والألسنة كالحراب ..

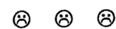
أصحاب الإشراقات الذين ينشدون الحرية بشمس فكرهم .. وليتطلعوا لتخليص الانسان من ربقة الذل ووثنية العادة والتقليد .. ولن ننسى ما حدث للقاضي والمفكر قاسم أمين عندما دعى لتحرير المرأة .. لقد خاصمه الأصدقاء .. ورماه الناس بالكفر والزندقة .. وطالبوا بمحاكمته وإهدار دمه ..

بل حدث ذات مره أن ذهب له أحد العامة في فيلته بطريق الهرم .. وعندما منعه البواب من الدخول ثار وملأ المكان ضجيجاً.. وعندما نظر المفكر الحر من النافذة يستفسر عن الامر قال له البواب .. إنه يريد أن يأخذ الست الكبيرة ليمشي ويجلس معها .. وفهم القاضي وابتسم في مرارة وسمح له بالدخول .. ولما سأل حاجته قال له أريد أن أجلس مع حرمكم .. أليست هذه دعوتك ؟ .. وهنا كان على المفكر الحر أن يبين لصاحب العقل الجامد والتفكير العاجز أن حقيقة دعوته هي الحرية وليست الإباحية .. ولم يخرج الرجل إلا وهو أشد المؤمنين بأفكار هذا الرجل .

وما نعنى بقوله هنا هو أنه بين الجنون والعبقرية .. خيط رفيـــع .. وإن اشـــراقات العقل لهى منحة من الله لا يتحملها الإنسان العادى .. فلقد جاء الرسول الكريـــم بأســمى رسالة عندما قال بالتوحيد والسلام .. قالوا مجنون ومدع .. ولم يؤمنوا بـــه ، وأبـــوا أن يصدقـــوه .. ومر من الزمـــان ثلاثة وعشرون عاماً من التعذيـــب والجهـــاد والنضـــال المستمر .. والدعوة التى لا يتخللها يأس .. بل إيمان بأن المستقبل أفضل من الحاضر .. وبرغم الدمـــاء ، وبرغم الدموع وطول الليل كان لابد من أن يخرج من رحـــم الســـواد شعاع نور .. وكان النهـــار.. وكانت الأمة الإسلامية .. وبقيت الأمة ورحل الرســـول .. أو مازال وسيزال الكلمة الصادقة فى فم الزمان .. لا صدق يتعداه ، ولا حق دونه .

ولقد اهتم الكتاب ومؤلفو السير على مر التاريخ بجنون العباقرة وعبقرية المجانين .. ولا يخلو كتاب من كتب التراجم تقريباً من الحديث عـــن شـــذوذ المشـــاهير وشـــطحات المفكرين والعظماء .

وفى واقع الأمر إذا تأمل الإنســـان سيرة العظماء والعلماء لوجـــد أشـــياء غريبـــة وقدرات لا يتمتع بها الإنسان العادى .. والأمثلة كثيرة على شذوذ وجنـــون العبـــاقرة .. هؤلاء الذين أقاموا الدنيا ولم يقعدوها بسبب تفوقهم العقلى وانجازاتهم العقلية الباهرة .



نيوتن .. تلميذ فاشل

كان السير اسحاق نيوتن مكتشف قانون الجاذبية وقوانين الديناميكا (علم الحركة) ومؤسس علم " التفاضل والتكامل " ، وواضع نظرية ذات الحدين فى الجبر ، كان فى بداية حياته تلميذا فاشلا بليدا وعلى وجه خاص فى الرياضيات .

وكان إسحاق نيوتن لا يقدر على حل المسائل الرياضية التى يعطيها لهم السير فى المدرسة .. وتعود على أن ينقل حلول تلك المسائل من بعض زملائه .. وحدث ذات يوم أن رفض هذا الزميل أن يعطيه الكراسة ليغش منها نيوتن واجب مدرس الرياضيات .. وخرج .. وأقسم من ساعتها بأنه لا بد وأن يتفوق عليه وعلى مدرسه .. وقد كان .. فلم تنجب البشرية –وللأن – عملاقًا يضاهى صاحب هذا القسم فى عبقريته الرياضية الهائلة !

فلم ينتحر يومًا مجنون .. والمنتحر إنسان فى كامل قواه العقلية .. وهذه هى الشعرة الدقيقة التى تفصل الجنون عن العبقرية .. والمنتحرون ضاقوا يأسًا .. أو ضاقوا ألمًا .. أوضاقوا قرفًا .. فأرادوا أن يهربوا من اليأس والألم والقرف ..

ومن أراد بانتحار أن يصحوا ضمير وأن تستيقظ همم .. أو أن يذكر النائمون .. هذا هو المنتحر الشهيد .. مجنون أو عبقرى عاقل أو عصبى .. نحن نشد على يده .



الجنون و العظمة

وعبر دقات التاريخ على مسرح الحياة دمر الجنون حياة كثير من الشعراء والمبدعين وكبار الفنانين .. وقد عبر عن ذلك الشاعر "درايدون" بقوله : " يربط بين الإبداع والجنون تحالف ثابت ومتين ، ويفصل بينهما فى كل حين خيط واه لا يكاد يبين " .

وقد حذرنا شكسبير بأن نبحث دائماً عن علاقات الجنون عند العظماء من الرجال .. وهذا بالضبط ما حاولته الباحثة جامبون حين راحت تنقب فى التاريخ القديم والحديث عن ملامح الجنون عند عظماء المبدعين ..

ولقد وجدت هذه الملامح واضحة عند شيللى وبايرون .. ذلك المجنون الشرير الذى تشكل معرفته خطراً .. وقد كان كلاهما يعانى من الكآبة المرضية الحادة .. وقد عانى كولردج ، ودانتى ، وجبرائيل روسينى من الكآبة التى تؤدى بصاحبها إلى التهلكة والجنون والانتحار .

وقد كان جوته يعانى من مرض " السايكلوثيمك " وهو اضطراب عصبى ومزاجى حاد يجعل المصاب به يتأرجح بين المشاعر المتناقضة ، ترافقه فرحة غامرة إلى أعلى عليين .. وتنحط به كآبه قاتمة إلى أسفل سافلين .



الانتحار

وفى التاريخ الحديث هناك خمسة من الشعراء الأمريكيين الحائزين جائزة يوليتزر الأدبية الكبرى وكلهم أقدموا على الانتحار .. منهم الشاعرة "سيليفا بلاث" الزوجة الأولى لشاعر البلاط البريطانى " ثيد هيوز " . ولكن هل معنى ذلك أن ينزل الإبداع الأدبى إلى مرتبة الجنون .. أو يرتفع الجنون إلى مرتبة الإبداع الفنى .. ؟

وأبدا فلم يكن الجنون يوما مرادفا للفن .. فقد يصاب بعض المبدعين بالجنون .. ولكن ما كل مصاب بالجنون مبدع خلاق .

ولقد أدى هذا المفهوم الخاطئ إلى موجة من الانتحارات عمت طلاب الفنون فى الغرب فى مرحلة ما .. فلقد كان المفهوم وقتئذ عند كثير من الطلاب والأدباء والشبان .. وإنهم إن كانوا مجانين أو مصابين بالجنون فهذا يعنى بالضرورة أنهم فنانون مبدعون .. أو يعتقدوا بأن سمات العبقرية أن يكون الإنسان مختلاً عقلياً ومعنوياً .. فقد يرافق الجنون العبقرية .. ولكن لا يلزم أن ترافق العبقرية الجنون .. .



الأخـوة الأعـداء

كل ما يمت للحقيقة قريب من الموت.. وكل شيء فى هذا العالم نسبى متغير ولا مطلق ولا ثابت ، وكان الموت ، وكان الانتحار أكبر حقائق فى هذه الدنيا .. فالموت موت .. لا يتحمل أكثر من تلك الحقيقة ، والانتحار موت لا يحمل بين طياته إلا الصدق فى التنفيذ .

ومنذ القدم والموت والانتحار هما الوجه الجذاب للحياة .. بل هما خلودها .. فهذا الصراع ما بين الحياة والموت .. وما ينحصر بين هذين الشاطئين يجعل بحر الحياة فى حركة مستمرة تتشبث بالخلود ..

ويذهب الخلود .. ويبقى الموت .. ويخلد الانتحار .. فعلى عرش طيبة تقاتل الشقيقان فى هذا المشهد المفزع الذى جسده كثير من الأدباء قديماً الشقيقان هما " اثيوكل وبولينيس " ولدى أوديب .. اللذين اقتتلا قتالاً مريراً على عرش طيبة حتى قتل كل منهما الآخر ، ثم قتل هيمون حبيب أختهما انتيجون وهو يحاول الحيلولة بينهما ، ويشتد الحزن بأمهما " جوكاست " فتقتل نفسها ، وتنتحر انتيجون حسرة على أخويها ومرارة وولعًا على قتل حبيبها " هيمون " .. وفى النهاية يقضى "كريون " على نفسه بعد أن تحقق له كل ما كان يصبو إليه حيث خلاله العرش وكاد يتبوأه .. ولقد عمل " كريون " جاهداً على تأجج نار العداوة والبغضاء بين الاميرين.. ولدى أخته .. وبث الفرقة بين الناس ليتقاتلوا ، وأوقع بين اليونانيين وأهل طيبة ليناصر أولئك " ايشوكل " ويناصر الآخرين " بولينيس " ، لا يرعى عهداً ولا تحركه عاطفة الأبوة .. فيضحى ابنه " ميتسيه " بنفسه ، بعد أن يتقدم وسط المعسكرين دون وجل أو خوف .. ويهيب باليونانيين وأهل طيبة قائلاً :

" قفوا أيها المتوحشون .. اعلموا حكم القدر الذى قضى أن يضع حدًا لشقاقكم إننى .. آخر دم من نسل ملوككم وقد فرضت عليه الآلهة أن يسفك دمه .. فتقبلوا هذا الدم الذى ستريقه الآن يدى وتقبلوا السلام الذى لم تطمح إليه خواطركم " .

ولا تثنى التضحية " كريون " عن عزمه ، ويمضى فى خطته حتى النهاية ، منافسًا ابنه " همون " فى حب " انتيجون " ومعتبراً ولده غريمه فى الحب ..

وفى النهاية وبعد كل هذا الكم من المصائب والدماء والرقاب المسفوكة لم يجد " كريون " شيئا إلا الموت والانتحار .

☹ ☹ ☹

مایاکوفسکی

مایاکوفسکی

إلى الجميع .. ها أنذا أموت الآن
لا تتهموا أحداً .. ولا أريد أدنى ضجة
فالموتى يبغضون الثرثرة ..
أى أخى .. يا إخوتى .. يا رفاقى
سامحونى
إن ما فعلته ليس مخرجًا ولا أنصح به لأحد .
ولكنه كان مناسبًا لى .. ولا حل آخر غيره كان
يلائمنى
أحبينى يا ليلى
إلى رفاقى فى الحكومة
أسرتى هى ليلى بريك
وأمى وإخوتى
فإن استطعتم أن تجعلوا حياتهم سعيدة ولو قليلاً
فشكرًا لكم ..
لقد ابتدأت الأشعار .. فأعطوها إلى
آل بريك
فسيجدون أنفسهم فيها ..
وكما يقال
" لقد انتهى أمر تافه "
وقارب الحب تحطم على صخور الحياة اليومية ..
أنا والحياة كلانا آخذ حقه من الآخر ..
ومن العبث أن نستعر من الأحزان والملمات ..
عيشوا سعداء ...

فى اليوم التالى .. وفى حجرة بممر لوبيا نسكى وسط مدينة موسكو وجدوا هذه الأبيات الحزينة .. ووجدوا قبلها جثه مايا كوفسكى بوجهه الهادئ الحزين .. الذى لم يقربه الموت أبدا .. وكان شهود الجريمة دم ومسدس ورسالة أخيرة ..

ولكن من هو القاتل ؟ ..

هذه كانت آخر كلمات الشاعر الروسى الكبير فلاديمير ماياكوفسكى .. وقبل أن ينتحر فى تلك الغرفة الحزينة ..

وبرغم أنه أوصى بعدم الثرثرة .. فما زالت الثرثرة فى قمتها حول الأسباب التى أدت لانتحار الشاعر الكبير .

من الرحم السواد .. ومن السواد النور ومن زمن القهر والحرمان .. وحيث الظلم يعم البلاد فى إحدى قرى جورجيا .. حيث الجبال سامقة ، والهامات مرتفعة .. يولد مايا كوفسكى .. من مناخ القرية اليومى البسيط يتمتع بطفولة متحررة من كل كبت .. ولم يلبث أن ركب الأسطورة ، وتقمصها وامتطى ظهر الخرافة .. وامتدت يده لرفوف المكتبة .. لكنه يزهد الكتب .. إلى أن وجد دون كيشوت فيعشقه ..

بكل هذه الحرية العفوية التى يحملها قلبه يذهب إلى المدرسة .. وتصدمه عجرفة أبناء الموظفين .. فيحن إلى القرية حيث الكل جميل .. وحيث البساطة واليسر .. ويتملكه شعور الاغتراب .. ويترك كل رفاق الدراسة ويبحث عن البساطة ، ويجدها هناك حيث الجنود أبناء القرى والفلاحين ، ومعهم يعرف الصعلكة .. والتسكع على ضفاف نهر " زيون " .. ويتعلم أن يأكل كما ولدته أمه بيده .. لا بشوكة البرجوازيين .

وعمره إحدى عشرة سنة يتعرف على الكتابات الثورية .. السرية والعلنية التى كانت تأتى بها أخته من موسكو حيث كانت دراستها.. وتتفتح عقليته ورأسه على جرح ينزف من الظلم السائد .. عن عمال المناجم حيث لا عدد معين لساعات العمل .. وحيث الأجور لا تساوى شيئًا .. وتأخذه حمى الاضطرابات السياسية ، والمظاهرات السلمية .. ولم ينس أحداث الأحد الدامى حيث الإضراب العمالى لطرد بعض العمال ، ويتجمع أكثر من ١٥٠ ألف شخص ويذهبوا ليقدموا عريضة تظلم للقيصر .. وحيث الأطفال والزوجات مع زويهم .. تقطع القوات العسكرية والبوليس الشوارع والساحات فى وجوههم .. وتنطلق المدفعية .. ويدوى الرصاص على الأطفال والعمال والنساء .. والخيالة تضرب بالسيوف .. وتدوسهم حوافر الخيل ، وتجهز على الجرحى .. ويقتل أكثر من ألف عامل .. ويجرح حوالى خمسة آلاف .. ولينهى الرصاص والسياط وسنابك الخيل الإيمان بالقيصر الطيب .. .

ومن قبل ومن بعد تتعدد الاضطرابات ، ويكثر الضحايا ، ويزداد الفقر ... والضغط .. ويشارك شاعرنا بكل ما فيه من قوة بالكلمة والمنشورات .. وتتلقفه أيادى

الاعتقال.. ما بين الأصوات الجهورية ودقات سنابك البنادق يمتثل الشاعر فى صمت .. وتصبح خطوات ابن الخامسة عشر مراقبة محسوبة من قبل السلطة العليا ويعتقل لفترات متعددة ثم يطلق سراح الفتى .. ويشترك فى عملية فدائية لتهريب ثلاثة عشرة سجينة سياسية من سجن " ثوتشكايا " ويطول اعتقاله إلى ستة شهور .. وفى الزنزانة ١٠٣ يحكم عليه بالحبس الانفرادى .. وأرادت السلطة نفيه لمدة ثلاث سنوات أخرى إلى إقليم " ناريم " .. ولكن دائماً كان صغر سنه هو الذى يساعده على إطلاق سراحه .

ومن خلف الجدران .. حيث القهر والسواد والعدم ، يكتب أشعاره الأولى ، وقصائده المتحفزة بأنيابها ومخالبها .. وعند خروجه يصادرها البوليس .

ودائماً لم يكن السجن شراً أبداً .. بل كان فرصة ليتعرف على شكسبير ، وبايرون وديستوفسكى وتولستوى وبصورة أكثر عمقاً .. ويتولد لديه الحلم الأدبى ...

ويطرح سؤاله العصيب عن الدور وماهيته ، والكيفية التى يتحقق بها .. وحاصرته بحار الحيرة الفكرية القلقة ، وكيف الطريق للتعبير عن النفس .. وينظر لنفسه .. وينظر لأفكار الآخرين .. بوشكين قسطنطين ، بالمونت ، فيدور سولوجوف ، إيفانوف وحاول من بين كل هؤلاء أن يخرج بشىء جديد ..

إنه يرى فى نفسه بذرة لنبت جديد .. ويذهب لزيارة أحد الرفاق فى الحزب البلشفى والاشتراكى الديمقراطى ويقول له :

" أريد أن أخلق فناً اشتراكياً " .

وكانت كلمة .. وكان منهج .. ويضحك منه الرفيق ويقول : " مشكلتك أن عقلك أكبر من معدتك " .

ويعتقل ويفرج عنه فى ١٩١٠ لينسحب من العمل الحزبى ويبدأ الدراسة .. وتبدأ معه مرحلة جديدة ...



ليهبط شيطان الشعر من السماء إلى الأرض

مرحلة البحث عن أشكال جديدة للتعبير.. إنه لا يتفق والكلاسيكيات الفضفاضة .. إنه لا يريد أن يكون بحثا فيما وراء الطبيعة والميتافيزيقا .. إنه يريد للشعر أن يكون صدى لصوت الحياة المعاصرة .. لقد آن الوقت ليصبح الشعر .. تصادميًا عنيفًا.. وأن تختصر القصيدة من قدرها .. وتنزل من سمائها ليلونها طيف الأرض وقهر الفقر ، وعرق العمال ، ولون المناجم .

وكان لقائه مع المستقبليين .. الذين جهزوا على التيارات الشعرية الأخرى ..

واقتحم مايا كوفسكى الساحة .. ولم يقابل بالورود والاستحسان .. بل كان دائمًا على موعد مع الخلاف البرجوازى .. كان يقرأ الشتائم على صفحات الجرائد .. ويحضر مخبر البوليس أمسياته الشعرية .. ولكن الجميع لا يدرك هل ما يقوله مايا كوفسكى شعرًا أم تنكيتاً .. وتحكى أمه عندما سألته ولم تكن تفهم أحيانا ماذا يعنى : " لماذا تكتب هذا النوع من الشعر ؟ " .. أجاب : " يا أمى إذا كتبت كل شئ بوضوح ، فلن أستطيع العيش فى موسكو ، إنما فى مكان ما فى سيبريا .. أو فى ترخانشك ، فى المنفى ، فهم يراقبوننى " .

وكما كان ثورة فى حياته وفى شعره .. كان ثورة فى دأبه وقلقه .. يكتب فى العام الواحد ما يحتاج عمراً لإنجازه .. وينشر له فى العشرين من عمره أكثر من ديوان .. وتراجيديات .. ويسافر فى جولات شعرية خارج روسيا وداخلها .. وحينما يعود من رحلته الطويلة لا يلبث أن يجد نفسه مطروداً من الكلية أثر محاضرة أدبية ساخرة تحدث فيها باحتقار عن العنف البرجوازى ... وفى الندوات يجلس جانباً بجنب إلى كبار الأدباء ، ويصادقه جوركى ، ويناوبه الحديث .

وكان شعره شعر النبوءة ، والأمل .. وكان شعر الثورة والعمل .. وكان شاعر الثورة ويقول :

وحيث تتوقف عيون البشر ، ناضرة
عند رأس الحشود الجائعة
فإننى أرى من بعيد
عام ١٩١٦ يقترب وئيدا
متوجًا بأكليل الثورة ...

وتبدأ الثورة .. ويلقى سؤاله الخالد .. " هل تقبل أم لا تقبل ؟ مثل هذا السؤال لم يكن مطروحًا لدى أبدًا .. إنها ثورتى " .

وينفجر طاقة .. وتتوالى قصائده بلا أقنعة ، وعندما يجد شعر التحريض قاصراً عن الدعم يرسم ويعلق الملصقات .. ويكتب سيناريوهات الأفلام ، ويمثلها ، ويكتب المسرحيات ويخرجها ..

وجاءت الثورة البلشفية ١٩١٦ .. وكان ماياكوفسكى عصفورها ولسانها .. يطوف بالبلاد يدعو للثورة ويغنى للثوار .. وبنفسه يعلق الملصقات ، ويشمر عن ساقيه ويقف فى وسط الفلاحين .. وسط الطين والوحل ويقول أشعاره .. ويصفق معهم وينشد أغانيهم .. ويخرج فى جولة أوربية .. ليدعم الثورة ، وليكسب تأييد العالم لها .. ولم يكن ليتصور أن تكون تلك البنت الشقية أن تكون تلك الثورة التى أوقف عليها نفسه وأعطاها كل كيانه .. لم يتصور أن تكون هى سبب تعاسته .. ونتيجة لمأساته .. وعاد الشاعر من الخارج .. ولكنه رجع لتبدأ مرحلة عدم التوافق ما بين الشاعر بقلقه وثورته وما بين قيادتها.. حتى أنهم اتهموه فى منهجه الشعرى .. اتهموه فى مستقبليته .. وقالوا بأن المستقبلية ضد الواقعية .. وكان قبل الثورة جنبًا إلى جنب مع لينين .. كانا معا فى نفس الخندق .. وقامت الثورة .. وكان بلبلها الصداح والذى جذب انتباه العالم إليه .. وكان صاحبه لينين لا يفتأ فى مناسبة إلا ويذكره ويشيد بإخلاصه وقوة دأبه .. ولكن ها هو يرى الرفيق والصديق لينين بموقفه الجديد والذى لم يألفه منه .. موقف يتسم معه بعدم الثقة بل والحدة .. ووجد أن الثورة قامت على الأوضاع .. ولكن أنى له بثورة على النفوس .. فالذى تغير وذهب هو النظام القيصرى .. وجاء الشيوعى .. لكن المنظمين أنفسهم هم لم يتغيروا .. لا يختلفون أبدًا بعد الثورة عن ذى قبل ..

وإن ضاق عليه الخناق بالمدينة العاصمة يهرب إلى الريف حيث المدافق والمراجل .. وحيث الجنود والأسطول . ولتكتظ الساحات بعاشقى شعره ، وإن ضاقت عليه القرى سافر إلى الخارج ... وتزداد الهوة بين الشاعر والسلطة .. لم يكن أبدًا أن يسكت عن مهازل البيروقراطية وعبثها .. والتى تؤدى لإهدار قيمة الإنسان فى سبيل إعلاء قيمة الورق والأرقام ..

ويضيق البيروقراطيون والبرجوازيون عليه الخناق فيرفضوا طبع أعماله .. بل ويرفعوها من واجهات المكتبات .. ، واتهموه بالأنانية .. وقالوا إنه شاعر أنانى النزعة .. فردى الروح والسمات لأنه يكرر فى قصائده كلمة " أنا " .

وزادت الاتهامات .. حتى فاض بها الكيل .. وكان اتهامهم الكبير له بقرض قصائده التى تستعصى على الفهم .. وأنه يقلل من أهمية الشعراء السابقين وخاصة " بوشكين " .

وكان رده عليهم دائمًا زكيًا مفحمًا .. وكأسراب الذباب والذنابير تكـــالبوا عليــه .. السرب تلو الآخر .. وهو فى صموده لا ينحنى ولا يلين ، فجـــاء الشــعراء ليهجــوه .. والصحفيون ليشتموه .. ولفقت له الاتهامات على المستوى القيادى ومن الرفقـــاء .. أمـــا على المستوى الشعبى ، فمازال هو شاعر الثورة.. وشاعر الغضب .. الشاعر الذى نزل بالشعر من سمائه العليا إلى أرض الحياة اليومية .. أرض الحلم والألم هذا الشاعر الـــذى كان بلشفيًا ، وعمره لا يتعدى السبع سنوات .. وبعد انتصار الثورة أخـــذوا عليــه قلــة انضباطه الحزبى .. ، وأنه ينظم الشعر الغزلى .. فالقصائد فى رأيهــم يجــب أن تهــدى للثورة .. أما التغذل بالنساء من نوع ما كان يكتبه ماياكوفسكى إلى حبيبته أو إلى ســـواها فليس سوى هدر للشاعرية .. وليس سوى بقية من بقايا البرجوازية فى النفس ..

ومن شعره إلى حبيبته ليلى بريك هذه الكلمات :

اضرعى من أجل جسدك كضراعة المسيحى حين يصلى ...

وهناك روح همجية تترية فى الكثير من قصائده ومنها هذه الأبيات :

جسدك
سأحبه وأحافظ عليه
كما يحافظ الجندى
وقد قطعت ساقه فى الحرب
ولم يعد ضروريًا لأحد
على ساحة الوحيدة المتبقية
مـــاريـــا
ألست راغبة ؟
ودم قلبى سيبعث الفرحة فى الطريق
ويلتصق أزهارًا بغبار سترتى
سترقص الأرض ألف مرة حول العالم
كما رقصت هيروديا
حول رأس المعمدان
زاحفـــا أخرج
قذرًا من النوم فى القنوات .

والشعر دائمًا إما أن يرضى .. وإما أن يغضب .. ولقد أرضى كثيرين .. وأغضب كثيرين .. أرضى الشعب ، وأغضب القيادة ..

وأخذت الأوساط السوفيتية على مایاکوفسکی ثوريته المستمرة الدائمة .. فالثورية بالنسبة للذين تربعوا فى السلطة ، واستقروا فيها أصبحت مسألة مستنكرة .. فبرغم تأييده القوى للثورة .. إلا أنه شعر بعدم الاكتفاء بما تحقق وتمرد على كل إطار رسمى يجد الآخرون أن من الطبيعى الانسباك فى قوالبه ..

وهكذا وجد نفسه وحيداً إزاء الجميع .. فاليمينى يكرهه لأنه ساهم فى تحطيم مفهوم المجتمع الروسى القديم ، واليسارى لا يحبه كثيراً ، وإن لم يكن يكرهه لأنه يبدو له أن مايا كوفسكى خارج الصف ، أو مختلف عنه .. أو غير منضبط حزبيًا بما فيه الكفاية .. فكأنه لا يزال مستمراً فى النزال بينما آن له أن يترجل ويستريح .

المرأة :

أحب مایاکوفسکی أكثر من امرأة .

أحب تاتيانا باكوفلفيا عندما سافر إلى باريس ، وأحب قبلها ماريا الكسندروفنا ولكنها تزوجت . لتصنع له بعد انتحاره تمثالاً عنوانًا للوفاء ..

أحب هاتين المرأتين وهو يجر خلفه تجارب حبه الفاشل .. والحب الخالد الذى لم يفارقه فى حياته .. حبه لـ " ليلى بريك " والتى أحب قبلها أختها " إلسا " .



ليلى هى حبى

وكان الموعد فى مدينة النور .. فعندما سافر إلى فرنسا وهو فى سنه الصغيرة .. وبفلوسه القليلة اشترى قبعة وقميص طويل ، وبنطلون ، وتعرف على السا ، وزارها فى البيت ، وعارض والدها وجودهم عندهم .. ولكنها تمسكت بالشاعر فكان دائماً يزورهم ويقضى معهم طول النهار وتقول السا :

.. لم أكن أحبه ، ولكن كانت بيننا صداقة غير عادية .. وحاول ماياكوفسكى ، وطاردنى أكثر من مرة ..

وفى ذات ليلة صحبته لزيارة أختى ليلى فى إحدى حفلاتها .. وبشكله الهادئ وأنطوائه جلس وحيداً وعينيه لا تفارق وجهها وعندما عدنا للبيت فى آخر الليل سطر تلك الكلمات .. " ليلى هى حبى " .

.. ومن يومها لم ينقطع سؤاله عنها .. أو سؤالها عنه .. وكأن شيئا غامضا اضطرم بينهما فربطهما برباط مقدس ، وقضى معهم فى البيت وقتا سعيدا .. وأصبح زوجها أصدق اصدقائه .. وانفصلت ليلى عن زوجها وذهبت معه ليعيشا معا بعيدا كالحيوانات البرية ويعيش الحب وسط القلق والتوتر.. وتطول سنوات العذاب .... ويشتد الحب بشدة الالم ولوعته .. ولكن لاتهدأ المطارق بل تزداد وتحاصره فى حبه وعواطفه ... واتفق الحبيبان ألا يلتقيا لفترة طويلة .. وأصبحت علاقتهما عابرة .. ولكن أنى لها أن تهدأ وجذوة الحب بينهما لم تخفت أوارها .. حتى التقى الشاعر بمواطنة روسية تعيش فى الخارج وهى " تاتيان باكوفليظ " والتى بادلته الحب .. ورأى فى حبها إعجابا بموهبته وذكائه .. وفى زمن الجفاف والعطش تأتى الحبيبة الجديدة لتمنحه الرواء .. ولتعطيه بسخاء فلقد فهمت فيه روح الفنان .. ورأت من تغلغل الموهبة وقلقها فأخذت تهدهد عواطفه بحنانها .. وتذيب من نفسه أملاح الكراهية ومرارة اليأس .. فتلاشت النظرة التشاؤمية لحبه الفاشل لليلى بريك .. وأصبح معها حبه وعمله الإبداعى هو كل شىء .. وسافرت تاتيان من حيث أتت .. وازداد حنينه .. وارتفعت درجة حرارة الشوق إلى الحمى .. ولم يستطع بعد ذلك صبراً .. فقرر السفر إليها فى باريس .. وطلب جواز السفر .. ولكن كانت البيروقراطية له بالمرصاد ترفض الطلب .. ولما علمت حبيبته بخبر منعه تزوجت ..

وهنا نقول لقد اكتملت حوله دائرة الحصار ..

وكان آخر من رآه من البشر سيدة .. هى " راشيل " ففى مساء ١٣ إبريل ذهبت إليه لتطلعه على الرسوم التخطيطية لديكور مسرحيته " موسكو تحترق " وطلب منها أن تبقى وتحدثه عن شيء ما .. أى شيء .. فقد يخرج على جناحى حديثها من هذا المناخ السوداوى الذى يعيشه ويتنفسه ، ويطبق على رقبته .. فما كان من السيدة إلا أن وجدت شخص يسمعها هى الأخرى .. وكحصان تشيكوف وصاحبه .. فأخذت تحكى له عن زواجها المأساوى والذى انتهى بالانفصال عن زوجها.. وعندما انتهى الحديث خرجت ، وهى تستدير لتغلق الباب ، لمحت المسدس النائم على المنضدة .

وكان صراعًا بين الشاعر وبيروقراطية الحزب .. أرادوا أن يخلقوه كائنًا أديبًا طيعًا .. وكانت إرادته هو أن يتمرد حتى على نفسه .. ولم يتمثل لهم ، وكشف عوراتهم ، وعراهم أمام الجميع وفضحهم ، ... وهو لا يملك إيزائهم سوى صوته المجلجل .. وموهبته الفذة .. وإيمانه العميق بالاشتراكية .. ولقد صفعهم كثيرًا .. ولم يغفروا له أبدًا .

وعندما علموا بانتحاره أرادوا جميعًا أن يتبرأوا من دمه ، وخافوا أن تصيبهم لعنته .. وحاولوا التهرب ، وأكلهم ذباب الندم .. وجاء مفوض الشعب للثقافة والتعليم وأراد أن ينحى بالمسئولية عنهم جميعًا وقال :

" نحن لا نعرف الظروف " .

ولكنه لا يستطيع أن يفلت من دم الشاعر القتيل ويعترف : " لسنا كلنا نظراء لماركس الذى قال إن تجربة الشعر تحتاج لكثير من الحنان .. لسنا كلنا نفهم ذلك ، ولم نفهم أن ماياكوفسكى كان فى احتياج إلى الحنان الكثير ، وذلك أنه لم يكن يومًا محتاجًا لشيء قدر حاجته إلى كلمة حنونة .. ربما كانت أبسط الكلمات " .

ولقد فهموا أخيرًا .. ولكن بعد أن ضاع الدم النبيل على سنابك الحقد والقهر وحراب البيروقراطية .

☹ ☹ ☹

يوكيو ميشيما

انتحـــار كـــاتب يابانـــى

كاتب عمت شهرته الآفاق .

كان روائياً وممثلاً وبطل مصارعة ومخرجاً سينمائياً .

وكان شـــاذاً ...

كان أدبه يتلخص فى كلمات ثلاث هى : الموت ... والدم ... والانتحـــار .. ويـــوم انتحاره كان قد فرغ من إرســال الجــزء الأخير من قصته الأخيرة إلى المطبعة ... ثـــم أخذ يخطط للحادث ... بعد أن سجل كلمته الأخــيرة عن اليابان فى تلك الروايـــة التــى سماها "بحر الخصب" ...

وعند إنزال جسده وجدوا مكتوباً على عصابة رأسه " إن الرجال يجب أن يكون لهم لون أزهار الكرز عند موتهم ".

والكلمة من كتاب الساموراى أو الهيراكورى .. نفس الكتاب الذى اســتخدم شــعاره طياروا الكاميكازى الانتحاريون فى الحــرب العالميــة . والشــعار يقــول " إن طريــق الساموراى هو الموت " .

لقد رتب الكاتب للإجهــاز على نفســه وكأنه يرتب لعمل فنى ....

ففى صباح الخامس والعشرين من نوفمبر ١٩٧٠ اقتحم الروائـــى اليابـــانى يوكيـــو ميشيما مع مائة من أتباعه وتلامذته مقر القيادة العامة لقوات الدفاع الذاتى اليابانية وأسروا رئيس القيادة ... وأمروه بأن يأمر بدعوة الشباب ليستمعوا لميشيما .. وخرج ميشيما إلـــى الشرفة مرتدياً الكيمونو لباس اليابان التقليدى ... ورأسه معصوبة .. وألقى فى الجمـــوع خطاباً حول مجد اليابان .. والبطولة والموت .... وعندما لم يجد من يسمعه انتحر .

ولم يكن الموت عنده عبثاً .. فلا عبث للســاموراى ... فلقد تخيــل ميشــيما نفســه صورة للساموراى القديم ....

وعندما وقف فى الشرفة ... وقف ينعى للعالم البطولة المفقودة ... وحوله جيشـــه ، ومن خلفه رئيس أركانه .. يقف ميشيما ليؤرق الضمير القومى وهو يقول :

" حسن جداً . لقد رأينا كتاباً بيننا يدعونا لأن نستعين بحضارة الغرب للتفوق عليه .. كانت هذه هى الخطة .. وكان هذا هو البرنامج ... ولكن الشىء الذى لم يكن فى الحسبان أن يغير العلم الأمريكى الأوربى أبناء الوطن.وتبدأ الصناعة الغربية وتقاليدها الصناعيـــة عملها فى الإنســان اليابانى .. وتبدأ الصناعة فى خلق جيل وثقــافه مختلفة تمامـــا عــن

تقاليد اليابان القديمة وأخلاق الساموراى ... ولقد تولت الصناعة النيل من تلك التقاليد بإضافة كل مهارات الغرب من إل . إل . إس . دى والشذوذ الجنسى والجاز والاستهتار بالحياة نفسها كحياة .

والتساؤل والقلق عما هو الهدف .

ماذا بعد التفوق الصناعي والعلمى والحضارى ؟ .

ماذا حتى لو وصلنا إلى أن نصبح أكثر البلاد دخلاً وأكثرها إيرادًا قوميًا ؟

جيل جديد طاغٍ مكتسح نشأ ، ووسائل حديثة من راديو وتلفزيونات وصحافة تمسح الماضى كله ، وتحيل مسرح الكابوكى الشهير إلى المتحف ، وتقاليد الجيشا العتيدة إلى متحف الفنون الشعبية . يحتفظ به اليابانيون الأذكياء ليفرجوا عليه السياح ، وبيدهم جرعة من خمر اليابان القديمة ، ويلتقطون معهم الصور والتذكارات " ..

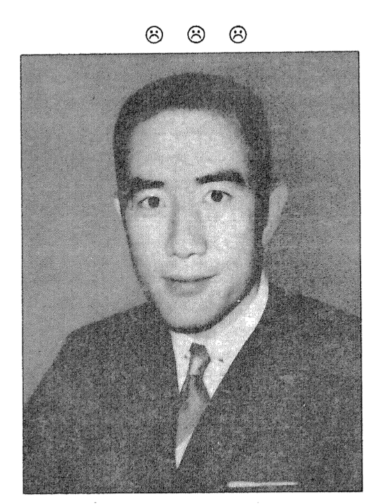
وهو فى قمة اندماجه وعصبيته .. يعلم أين سيكون مصيره بعد هذه الكلمات .. وكان يرى رد فعل الجنود والجمهور الذى احتشد ليسمعه .. لقد كانت فى عيونهم نظرة سخرية ... بل مال البعض وغرق فى ضحكه على عصبية ميشيما وغرابة كلامه والأسلوب الدرامى المبالغ فيه ... وكان ينادى ويصرخ ، والوجوه أمامه كلها سخرية ، وشعر كأنه يؤذن فى مالطة فقرر أن يقوم بما لم تستطع كتابته طول عمره أن تقوم به .. قرر أن يقوم بما هو أعظم وأكبر من الكلمة ... وأن يحقق بموته مالم يستطيع تحقيقه بحياته .. وقرر أن يموت ليوقظ ضمير أمة ... وغادر الشرفة ، وفى حجرة القائد الرهيبة .. قرر المضى فى عملية الانتحار .. وارتدى الكيمونو ، وعقد أربطته وأزراره . بمنتهى ضبط النفس والإتقان .. ويجيء المصورون ليلتقطوا له مع رفاقه الصور التذكارية .. صور لما بعد الموت .. ثم يمسك بسيف " الساموراى " الذى كأن يحتفظ به .. ويرفع السيف بسرعة وبأقصى قوته يغمده فى أعلى بطنه إلى المنتصف .. وتخرج صرخه من رحم الصمت الحزين يقول عنها قائد قوات الدفاع المدنى " لقد كانت صرخه ألم بشعة ، لم أسمع مثلها فى حياتى " .. وماكاد يحدث هذا وقبل أن تتهاوى الجثة ... حتى كان مساعده الأول منتصباً خلفه ويرفع سيفه ويهوى به فى سبع ضربات شداد يجتز به عنق قائده حتى يفصل رأسه عن جسده لتسقط إلى جوار الجثة ، ثم يجلس المساعد نفس جلسة رئيسه ويتولى إغماد سيفه فى بطنه ثم يتولى الضابط الثانى مهمة الإجهاز عليه وجز عنقه بسبع ضربات أخرى !! .

وانتهى المشهد

انتهى المشهد كما ابتدعه وزاوله " فرسان الساموراى " فى اليابان القديمة .. كل ما فى الأمر أن الرأس التى سقطت هذه المرة لم يكن رأس قائد فشل فى حرب ، أو ضابط أهمل واجبه ولكنه كان رأس أعظم موهبة أدبية يابانية فى تاريخها الحديث ، رأس منذ ساعات كان يكمل بحماس زائد وبخيال ملتهب أهم عمل أدبى كتبه ميشيما أو غيره عن أهم فترة من تاريخ اليابان .. ماذا كان يقصد ميشيما من كل هذا ؟ لقد أراد أن يؤكد انتماءه لتقاليد الساموراى على طريقته الخاصة ، فلقد اختار الموت باعتباره طريق الساموراى الوحيد ....

- والساموراى هو الشعب اليابانى القديم .. كان شعبا حرا فى تفكيره كالسندباد ... فى أخلاقه كالبحار ... لا يقبل الهزيمة ... كالفارس ... وعندما تغرق السفينة لابد وأن يغرق معها البحار .

☹ ☹ ☹



الكاتب اليابانى يوكيو ميشيما

كتاب الموت والثورة

- وإن كان نصيب الفارس الهزيمة فعليه أن يقبل الموت بهدوء واقتدار .. هكذا كان شعب الساموراى .

.... وكذلك كان ميشيما ... لقد وجدوا على رأسه عصابه مكتوب عليها " إن الرجال يجب أن يكون لهم لون أزهار الكرز حتى عند موتهم " ، وهى جملة أخذها ميشيما من كتاب بعنوان " الهيراكورى " .

وكان هذا الكتاب أكثر الكتب تأثيراً على الأديب فى حياته وحتى لحظة مصرعه ...

ومن المؤكد أن مؤلف كتاب " الهيراكورى " أراده فلسفة للحياة ، إلا أنه كان بالنسبة لميشيما " كتاب الموت " ... كتاب حمله على جناحيه لمدة ربع قرن وحتى مثواه الأخير ...

- ولكن ما قصة هذا الكتاب الذى دفع بحياة الملايين إلى النهاية ؟ ..

- فى أوائل القرن الثامن عشر كانت جزر اليابان تنقسم إلى إقطاعيات ... ولكل إقطاعى مجموعة من العمال ... ولقد كان الساموراى " جوشو ياماموتو " يعمل لدى أحد الإقطاعيين وكان يعظمه ويحترمه .. وكان السيد بدوره يحب جوشو ويعطف عليه... وعندما مات الإقطاعى اعتزل الساموراى جوشو الحياة ، وبني لنفسه كوخاً ، وصمم على أن لا يعمل لدى سيد آخر بعد سيده ... ، وخلد للتأمل بعيداً عن الحياة وصخبها .. واستمر فى خلوته هذه عشر سنوات لا يتصل بالناس إلا لماما ... ، حتى جاءه يوماً أحد محاربى الساموراى ويدعى " تسومر أماتوتا تاشيرو " وسمع تعاليم جوشو وأفكاره الفلسفية ، فكتبها .. واستمر معه لسبع سنوات جمع مادة ضخمة ومتنوعة كانت نتاج لفكر الساموراى القديم ، فصنفها تسومر وبوبها وضمنها كتاباً من أحد عشر مجلدا أطلق عليه اسم " سجل الكلمات لسيد الهيراكورى " .

- وأمر جوشو تلميذه بأن يحرق الكتاب ويتخلص منه .. ولم يطع التلميذ أستاذه واحتفظ بالكتاب لنفسه ، وتناسخه محاربو الساموراى ، وتبادلوه سراً ... وسرعان ما تم تعميم الكتاب بعد ١٥ سنة ...

- وفى ثلاثينيات هذا القرن حيث الروح العسكرية تتأجج فى قلب المجتمع اليابانى أضحى كتاب الهيراكورى أكثر الكتب رواجاً ، وأثناء الحرب العالمية الثانية بيعت منه أعدادٌ هائلة ، وأعيد طباعته عدة مرات .. وكانت شعاراته هى الشعلة التى على هديها استنهضت روح الحرب فى اليابان .

وكانت جملته التى تقول " إن طريق الساموراى هو الموت " .

شعار يطير به طيارو الكاميكازى الانتحاريون نحو حتفهم .

وبعد الحرب اعتبر الكتاب خطراً وهدّاماً .. ومنعُ من التـــداول وأُتلفـت نسـخه ، واختفى عن عيون الناس وسلطات الاحتلال الأمريكية .

وفى تلك الفترة كان ميشيما على رأس دعــاة عسكرة اليابـــان .. وإن كــان ضــد الحرب فى أول اندلاعها ... ولكنه عندما تقدم للتطوع بعد ذلك لم يقبل لأنه غـــير لائــق صحيا برغم صحته وعافيته .. وترك هذا فى نفسه أثراً لا يمحى ..

ومنذ هذا الوقت ظلت الروح العسكرية لليابان هدفًا لفكرته الأساســية ..... وظلــت صورة الشباب اليابانيين وطيارى الكاميكازى الانتحاريين مثالاً للبطولة والاستعداد والموت فى سبيل الإمبراطور ..

ولقد أعلن بأن الإمبراطور معصوم من الخطأ ... وارتبط هذا التطرف فى أفكـــاره بشذوذ أخلاقه .. فالأديب الكبير المنتحر كان يمارس الشذوذ الجنسى على الرغم من أنـــه متزوج ورب عائلة وأبنـــاء .. وربما كان ملفتًا للنظـــر أن شـــريكه " مورتيـــا " فـــى الشـــذوذ .. كان رفيقـــه الوحيد أيضاً فى عملية الانتحار .

لقد كان الشذوذ يظهر بشكل دائم فى أعماله الأدبيـــة ، بمـــا يشـــير إلـــى ارتباطـــه بموهبته الفنية الإبداعية مع الظواهر الرئيسية الأخرى فى أدبه والتى تتلخص فـــى ثـــلاث كلمات هى :

" الموت والدم والانتحار " .

- فى أعماله الأدبية ينادى بتقديس القوة العضلية الجسمانية لجيل اليابان الجديد تعويضـــا عن الهزيمة التى منيت بها فى الحرب الثانية .. كما فى " الشمس والفولاذ " . ، ولقد تم تصوير الانتحار الفروسى على طريقة الساموراى فى فيلم من خلال إحدى رواياتـــه .. وهذه الرواية مأخوذه عن كتاب الهيراكورى كتاب " الموت والبطولة والقتال " .

لقـــد كان هـــذا الكتاب متمثلاً له فى رائحة الموت بعد إلقاء القنابل على هيروشـــيما ونجازاكى .. وفى كتاباته يقول ويشير إلى أن المجتمع اليابانى فقد الكثير من حيويتـــه ... وأنه يسير نحو موته المعنوى ليتجرد من تقاليده وخصوصيته ويلحق بـــالنموذج الغربـــى الذى خرج منتصراً من تلك الحرب .

ولقد أصبح الكتاب لميشيما قـــرآنه وإنجيله .. وفى كل مرة كان يقرأه يجد فيه مـــا يدهشه من جديد ووضع حـــوله كتاباً من أحسن كتبه عرض فيه لأخلاقيـــات وســـلوكيات رجال الساموراى .. وبعد انتحار ميشـــيما أصبح هذا الكتاب من أعظم الكتب مبيعـــا ... هرع إليه المعجبون بفنه ... ، ومن لم يشتره لتلك الرواية . فلقد اشتراه ليتعـــرف علـــى المشهد التراجيدى الأخير فى حياة هذا الكاتب ...

- وتحمل فصول الكتاب حديث القوة والموت .. فلقد كان مسحوراً بفكرة المــــوت فــى فلسفة الساموراى .. ولقد ظل مسحورا بهذه الفكرة حتى النهاية .

ولقد انتبه ميشيما إلى وشيجة تربط عصر ياما موتو بعصره ، أى بيــن الســاموراى القديم وميشــيما الذى لم تفارق ذهنه صورة الساموراى الحديث .. يجمعهما الخــوف من تحلل مبادئ وأخلاق المجتمع اليابانى ... وفقدان الأخلاقيات البطولية يقــول ياما موتو معبراً عن غربته الروحية فى مجتمع يموج بالتغيرات : " والآن عندما يجتمــع محاربو الساموراى الشبان معاً ، فإنهم يتحدثون عن المال والربح والخســارة وكيفيــة تســيير شؤن البيت بشكل جيد وكيفية الحكم على قيم الملابس . كما أنهــم يتبــادلون الحديث حول الجنس " .

إنها نفس الصرخة التى ردد صداها ميشيما حين اجتمع مع بعض الشبان الراديكــاليين قبل مصرعه بعام .. طالباً منهم تأييد الإمبراطور والالتحاق به لتكوين فصيلة لخدمته .

ولكن أحداً لم يكترث بصوته المدوى ... وكان شباب اليابان الحديثة يتوزعون فيمــا بين التيارات الراديكالية والليبراليه التى وردت إليهم من الغرب ، ويتظاهرون ضد البطولة ورمزها الإمبراطورى ، ويرون فى انبعاث العسكرية اليابانية قوة تدميرية رهيبة ، وفــى هذا الجو المضطرب واصل ميشيما طريق الساموراى الذى قاده إلى نهايته المروعة .

- فى عام ١٩٦٧ التحق سراً بقوات الدفاع المدنى اليابانية حيث تدرب لمدة شهر كــــان فيها مازال يكتب فى كفاءة عن " الهيراكورى " وفى ١٩٦٨ شرع بتكوين جيش خاص هدفه خدمة الإمبراطور .. وهو نفس الجيش الذى اقتحم به مقــر قيادة الدفاع المدنــى فى طوكيو حيث أعد مشهد انتحاره الذى رع العالم .

وبالرغم من كل هذا العداء للغرب إلا أن ثقافة ميشيما كانت مستقاه من كل ثقافات تلك البلاد.

- ولقد كان للموت فى حياته شجن خاص ... حتى انصرف جزءاً كبيراً من وقته يناقش الموت لا كفكرة فحسب " بل كاحتمال واختيار ... وكانت المشكلة هى فــى اختيــار طريقة الموت ... ولحظته ... ولقد كانت فكرة الانتحار أكثر إلهاماً ... فهى الطريــق الوحيد ليكون ساموريًا حقيقيًا ... فى زمن اختفت منــه الفروســـية وضــاعت فيــه الأخلاق ... وتنكرت المبادئ ... وهكذا رحل .

☹ ☹ ☹

ابن الريح

خليل الحاوى

خليــل
حــاوى

..... ابن الريح .....

خليل حاوى

كتب للحب ..... وكتب للحياة

كتب للريح لتنجد همَّــة .... ولتصحو أمَّــة .

وعندما رأى أن الكلمة لم تجدى نفعًا ..... انتحــر .

وأطلق على نفسه الرصاص احتجاجًا على غزو إسرائيل للبنان .

فقد ينبت من دمه بذور الصحوة .

من بين بيارات البرتقال .. وحقول التفاح فى ضواحى الريف اللبنانى ... ولد خليــل حاوى لأب محافظ وأم قروية ..... وكان الولد الاول لوالده .. وبعيدًا عــن الضجيــج .. وفى زاويا الصمــت الهــادىء ... اعتزل خليل الناس .. ليقرأ لشاعره وكاتبه'جبران ... فقــرأ الأجنحة المتكسرة ، وشعر بمأساة البطل .. وشعر أنه هو هذا البطل المهزوم فــى حبه .. والمقهور على أمره .. الحبيب الذى فقد حبيبته لفقــره .

وتملكته هذه الزاوية منذ الصغر.. فالعائلة فقيرة ، والأب لا يقدر ... وهو إخوته ؟..

كلمة خليل إخوتك لا يكاد يبدأهــا والده إلا وتكملها أمه .. ولما اشــتدت قراءتــه .. كان يقرأ من أجل أن يحكى لحبيبته ... يحكي عن بطل الأجنحــة المتكســرة .. وكــانت حبيبته كالبدر .... نحيفة ... يشعر من يراها أنها فى حاجة دائمًا لزراع تســتند إليــه ... وإنها فى حاجة لمساعدة خليل ... وكانت هيفاء عالية الجبهة مثل كليوبــاترا ... وقلبهــا مفعم بالحب .. وعندما تضحك ينصهر الكبرياء فى الحنان فيضيفا على جبينها المــورد ، وعينيها السوداويتين جمالاً صامتًا ... وصمتًا صارخًا ، وبعد الغــروب وتحــت شــجر البرتقــال كانت حبيبته ، وكأنها جنية تلفحت بشعرها ، وسارت بجانبه ، وتواعــدا علــى الإخلاص ، والبقاء على العهد حتى يعود من بعثته ..

وسافر خليل إلى إنجلترا ...

وعلى الشــاطئ وقبل أن تطأ قدمه السفينة .. يودعه الأب ، بقلبه الكبــير وحزنــه العظيم ، وحبه المزروع فى العيون .. وبدمعة رقيقة تختفي خلف المآقى : " يا بنى أبوك رجل كبير وجرى به العمــر ، وإخوتــك مازالوا صغــارًا ... والمرض اللعين ينهــش صدرئ اذهب يابنى ولكل مجتهد نصيب ... اذهب يرعاك الله والسيدة العذراء " .. وعلى الميناء كانت الأيادى تلوح بالحب الغامض ويلف الصــمت عبــاب البحــر .... حتــى تصبح السفينة نقطة فى الأفق البعيد ... سرعان ما تتلاشى .

☹ ☹ ☹

وفى أوربا يصدمه الواقع الجديد ، ويصيبه دوار الحضارة .. وتحاصره الأزمة ككل أبناء الشرق الحزين ، العـذرى السمات والتاريخ ... ترمى به الأقدار فى بلاد كل ما فيها جديد هو قديم .. ولا بكارة فيها لعقـل ، ولا عذرية لأخلاق .. ولكنها بلاد يعيـش فيهـا البنى آدم بكل حقوقه وبكل إنسانيته ... بعيداً عن الأوهام والخرافات .. وحيـث طريـق العمل والإبداع مفتوح أمـام الجميع .

- ويقارن بين هذا الوضع الجديد ، وبين بلاده .. فما زال الطريق مليئًا بالقيود والسلاسل والسدود ، وحيث يسود الجميع عصر من الحضارة الجليدية .

وحيث الجميع فى قيود وتحجر واقفون أمام مستنقعات حضارية راكدة ... وأصبـح العصر الذى يعيشه برغم كل ما فيه من تقدم .. عصر يفرض على العـرب كثـير مـن الجمود والتخلف والعجز .. وأدى بنا إلى الهزيمة فـى كثـير مـن المعـارك الحاسـمة والمصيرية .

☹ ☹ ☹

وانفجـر هذا الصراع وهو فى خضم حيرته الفكرية وطوقته الأزمة ، وحـاول أن يعبر عن ذلك فى شعره .

- وبطريقة خـاصـة ...

ولكن الخوف مازال سـائداً ، والسيف على الرقاب ويستعد لقصف أى فكـر مهمـا كانت قيمته ، وأخذ يبحث عن طريق ومنهج للتعبير .

ووجـده .

وجده فى إطار من الأساطير الحية لتكون مادة لفكره ، ولتكسـبه عمقًا وقوة ، وتبعد من الأساليب المباشرة التى تسيء إلى الفن ، وتجعل منه قوة عديمـة التـأثير ، واختـار الشاعر أساطيره من التراث القريب إلينا أو من بين القصص الشعبية والدينية والتاريخيـة فكانت ألف ليلة وليلة ، والتى استخلص منها شخصية السندباد الذى يقوم بالرحلة دائماً بحثا عن حكايات ومغـامرات .. وجعل من سـندباده أن يكتشف وأن يعرف وأن يصل إلـى يقين بعد شك يحيره ..

- وفى جامعة كمبريدج بإنجلترا تعرض لصراع عنيف من الوجه الثانى بيـن طبيعتـه الفنية التى ألف عليها فطرته بين ربوع لبنان ومروجه .. ليندفع معهـا إلـى التحـرر والانطلاق ، وبين حياته الدراسية التى تفرض عليه نظاماً قاسياً ، وتعرض عليـه أن يدفن نفسه بين الكتب . فيدرس ويقرأ ويتعلم حتى يتمكن من نيل شهادة والحصول على مكان تحت الشمس .. وهذا الصراع نفسه له صورة أخرى ..... فكمـا أن الطبيعـة

الفنية للشاعر تدعوه إلى التحرر من حجرة الدراسة المغلقة ومن النظام الصارم فى الدراسة ...

فهناك أيضاً واجباته التى تنتظره فى بلده لبنان .. واجبات نحو العائلة تقف وراء ضرورة الدراسة المنتظمة لأنها هى الطريق إلى أن ينال شهادة وعملاً يعودان على هذه الأسرة بالفائدة والحماية ...

فالأسرة تنتظره بلهفة ... وتنتظره أيضاً الحبيبة ...

– أما طبيعته الفنية فإنها تدعوه إلى التحرر من الدراسة ومن قيود الأسرة حتى ينطلق إلى حياة خصبة ؟ وحتى لا يسقط فى حياة مثقلة بالقيود والنظام والمسئوليات الصغيرة ....

ويظهر لنا هذا الصراع فى قصيدته الشهيرة الناى والريح ...

والقصيدة تعبر عن الصراع الذى عانى منه الشاعر فى تلك المرحلة المبكرة من حياته ...

– فالناى والريح هما طرفى الصراع ....

فالناى حيث الرتابة والهدوء والجلسة المستقرة الهادئة ... والإمساك به حيثما تريد فى ساعة الأصيل ، وهو بمعنى آخر الحياة العائلية البسيطة التى لا تعرف التقلب والصراع العنيف ولا المغامرة الحادة ، ورمز الناى هو المتعة الهادئة الوادعة الحزينة فى ليالى الريف الساكنة ..

والناى هو الجمال المستمد من الاستقرار والسعادة والهدوء والطموح المحدود والالتصاق بحياة القرية وحياة الأسرة .

– أما الريح ... فهو رمز للمغامرة ، ورمز للحياة الهادرة الصاخبة العنيفة والتى تتجدد فى كل لحظة والتى يعيشها الإنسان فى قوة وسرعة .. مثل قوة وسرعة الريح ..

– وهو رمز للحياة المنطلقة المندفعة والتى تصطدم بالجبال وتنخفض إلى الوديان والسهول وتعبر الصحارى ، وتتطلع للسماء ، وتقتلع أمامها كل ما هو ضعيف وهزيل ..

– وشاعرنا كان مندفعاً عصبياً ... يميل للريح ويصادقها ، ويود لو أنه يقتلع كل ما هو ثابت .. ويهز كل راكد ، ويغرق كل ساكن .

وكانت ثورته على وضعه كسجين دراسته .. وحبيس حجرته المغلقة فى سبيل لقب مثل الدكتور أو صاحب كرسى .. ، وثورته علي أنه يصادق مومياء من الكتب ويسعى بينها كدودة العفن ، وينهض من على مكتبة فزعا ... ويصرخ : اسلخوا عنى شعار الجامعة .. اسلخوا عنى شعار الجامعة .. وكانت تلك حالته فى الصومعة وفى حجرة الدراسة ، وهو يريد أن يتحرك وينطلق من ذلك كله إلى الحياة الواسعة غير المقيدة ..

إلا أنه يسمع فى الصومعة صوتًا آخر يشده إلى هذه الصومعة شدًا عنيفًا .. ذلك هو صوت الناى ، صوت الاستقرار ، وصوت الأسرة التى تنتظره أن يعود إليها من كمبريدج ومعه شهادة ولقب وكرسى ..

وفى هذه الأسرة نسمع صوت الأب الذى يقول : ابنى وقاه الله .. كنز أبيه .

جسر البيت .. يحمل همنا ثقيل

وجسر البيت ... تعبير شعبى لبنانى معناه الأساس الذى يقوم عليه البيت ... فجسر البيت هو الخشبة الرئيسية التى ينتظرها لتحمل هم البيت والأسرة .. ويقول الأب لفتاة خليل ... وهى التى تنتظر عودته على أمل : " غدا يعود إليك .. بعض الصبر .. سوف يعود ، والله الكفيل .. وهذه الفتاة نفسها رمز للأسرة التى تنتظره وتربط مصيرها به ..

ولربما ماتت غدًا
ومص دماءها شبحى
وما احتفلت بلذات الدماء
ماتت مع الناى الذى تهواه
يسحب حزنه عبر المساء .

- هذه الفتاة فرضت على الشاعر .. كأى شيء آخر . فهذه التى لم يخترها تنتظره بإصرار .. إنها تعيش من أجله ، وتحيا على اسمه حتى حرمت نفسها من كل شيء من أجل الحياة والأسرة والاستقرار فهى تحلم بالناى والزواج والأسرة والأولاد فعالمها .. عالم حزين هادئ لا يعرف العاصفة والتجديد ..
- والثورة الكامنة فى نفس الشاعر تهدد هذه الخطيبة بالموت .. لأنها تدفعه إلى التخلى عنها .. والتخلى عن التزامه بالدراسة وقيودها ، وهذه الثورة النفسية لو تحققت سوف تقتل تلك الفتاة التى تنتظره بدون أن يعرفها أو تعرفه .. وسيكون موتها أليمًا لأنها لم تحقق شيئًا من أمانيها .

- إن الريح تدفعه إلى أن يكون فنانًا مبدعًا وإلى أن يشارك فى تغيير الحياة الراكدة فـى مجتمعه ، فدور الشاعر المبتكر ، والمفكر المجدد ، والثائر الذى يشترك فـى التعبير إلى ما هو أفضل تلك هى أدوار البطولة فى حياة الإنسـان المتميز وليست أدوار الكومبارس والتى يمكن أن يقوم بها كل انسان .

إلى متى أنشـق عن أمى وأبى وكتبى وصومعتى ؟ .. عن تلك التى تحيا وتمـوت على انتظار ؟ .

- فالشاعر يود لو تخلص من القيود العتيقة التى تشده إلى أسرته وتربطه بها .. لمـاذا ؟ ليقوم فى الحياة بمهمة أخرى .

أطأ القلوب ، وبينها قلبى
وأشرب من مرارات الدروب بلا مرارة
ولعلها تخصب مـرة أخرى
وتعصف فى مدى شفتى العبارة
دربى إلى البدوية السمراء
واحات العجين البكر
والفجوات ، أودية الهجير
وزوابع الرمل المرير

- هذا هو ما يريده ، وما يتمناه ، وما هذه الصورة الشعرية المركزة الخصبة إلا رمـز للحياة الفتية القوية المنطلقة ، التى يريد الشاعر أن يعيشها ، فهو يتمنـى أن يجـرب الحياة بعنف وحرارة ويريد لو يشرب من " مرارات الدروب " لعله بعد ذلـك يكتـب شعراً رائعاً .

ولعلها خصب مرة أخرى .

وتعصف فى مدى شفتى العبارة !! ....

- فلقد خانته العبارة مدة طويلة عندما التحق بجامعة كمبريدج ، وبقى تسـعة شـهور لا يكتب بيتًا واحداً من الشعر ، مما جعله يحس بأنه يذبل كفنان ، قادر علـى الابتكـار والتغيير الحى .. و" البدوية السمـراء " هى رمز وتجسيد للحيوية العنيفة المتدفقـة .. كذلك " العجين البكر " و " أودية الهجير " ، وزوابع الرمل المرير " كل هذه الصـور الشعرية رمز للابتكار والتجربة الجديدة فى الحياة ، ومهما كانت هذه التجربة الجديـدة

صعبة ومريرة فيكفى أنها جديدة ذات طعم خاص تهزنا وتثير فينا مشاعراً عميقة وأفكاراً حية نابضة .

- ويعود الشاعر لحضن الوطن ، وتعود معه الهموم .. ويتعكر الجو لرجوعه ، وكانت عودة الابن الضال لا ليهتدى .. ولكن ليصبح أكثر ضلالاً.. فلقد تزوجت الحبيبة.. والذى تركها على العهد .. وترك معها القلب ، تزوجت ونست ساعة الأصيل تحت الخميلة والمشى فى صحبة شجر البرتقال يقرأ فى عينيها مستقبل .. وها هى ضاعت .. وشعر بضياع حلم الصبا وفردوس الطفولة وهى التى على شفتيها رسم أول صور الشباب .. وفى حضن عينيها قرأ خريطة حياته العريضة القوية .

عاد ليجدها وقد اقترنت بغيره .. وذهب لحديقتها ودار حول سورها .. وهناك تحت شجر البرتقال جلس .. وتنسم أول نسمات الضياع .. وتنفس هواء حرق قلبه بعد اشتياق ... لقد كان صعباً أن ينتظر ليعود فيجد كل شيء قد ضاع ... وكل مارسمه قد انمحى .. وكل ما دفع له عربون للشراء قد بيع ...

ومعه ضاع الحب أو بيع ، واحترقت ذكريات الصبا !!

- وسكنته حالة نفسية عميقة ... كيف ؟

هل كان حبى لها سراب ؟ ... وكانت أحلامنا أوهام ؟ .. وما زاد فى مصيبته أن وجد الأب وقد تقدمت به السنون ، وانكفأ على عصاه .. ولم تعد عيناه تصافح الأفق البعيد أو السماء .. بل تصافح الأرض .

- ولم يبق فى عينيه إلا نضرة فى طريقها للذبول هى أيضاً .. ووجد أمه تسر له بكلمات : لقد كبرت العروس .. هيا يا بنى لنفرح بك .. عروسة جميلة زينة بنات القرية يا جسر البيت يا ولدى ..

ويرد عليها : ليس هذا وقته يا أمى .. ولم تفهم الأم ولم ترى جرح الولد وانكساره .. يخرج كطائر جريح يتسربل فى دمه .. تقيده جراحه ... وتعجزه عن قبول أى تحد جديد ... ويعود ويجد الفتاة تنتظره ...

ويعلن رفضه الزواج ... وينكر الأب عليه فعله .. وتضرب الأم على صدرها خوفاً من الفضيحة :

ياعيب الشوم .. ايش يقول الناس يا ولدى ؟!

إنت اتجننت ياخليل ؟ ... يابنى ما تكسر بخاطرنا ...

أهل عروستك كانوا فى غيبتك خير أعوان

يا ولدى ما تكسر لأبوك كلمة ... ولا تجعل الفضيحة تضلل على بيتنا ، ولا تصغـــر من شيبتى...

ويتكدر الجو ، ويملأ الدخان كل مكان .. وتتعتم الرؤية ، ويحمل الشـــاعر حاجياتــه ويرحل إلى بيروت ، ويتقدم للدراسة فيها أستاذاً .

وفى بيروت تقع عينه على حقيقه بلده ...

فلبنان يحكم من شارع الحمرا ، ومن علب الليل ، فلولا قليل من صبر ، وكثــير مــن تأنى لكفر بكل القــيم .. ولثار على كل المفاهيم ... فلقد شاهد بعينيه الزعيـــم الــذى نيطت به قيادة شعب يقبل " ركبــة أرتســت " حقــيرة ، والحــرس ينتظـــره فــى الخارج .. وترفسه برجلها كأنه حشرة مؤذية ... وهو ليس غير ذلك .. ولمس بيـــده وبحواسه جميع مفاسد الطبقة التى لها وحدها حق الحكـم وتقريـر المصــير للوطــن والمواطنين .. ورأى كيف أن مستقبل شعب يرزح تحت الجهل والمرض والتقسيم .

وسطر الشاعر كل ذلك فى قصائد رمزية عديدة ..

كان فى ظاهــره سكون ، وتحت السكون بركان .. ويتشنج ويخــرج ثوراتــه علــى الورق ..

- وهو فى أروقة الجامعة تقابل مع أديبة لطيفة ، واشتعل بها حباً ... ونما بينهما حــب عفيف صامت .. وحاولت معه الحبيبة أن تسوى من نفسه الخشــنة ، وأن تضــع لــه فرامل ليقف عند اللزوم .. وتعلمه أن يقف مع العلامــات الحمــراء .. ويســير مــع الخضراء .. ولكنه كان منطلقــاً لا تحكمه فرامل ، ولا تقيده إشارة .. فكان فى ثورته يكسر ويحطم ويبعثر .
- ولم يستطع الحب أن يقاوم .. فالحب يحتاج لقليل من الانحنــــاء لتفــوت العواصــف ولبعض من التسامح لتنزلق المشاكل ، وانسحبت الحبيبة من حياته ..
- ولكن مازالت تربطها بخليل لآخر يوم فى عمره ود واحترام لإنســـان لا يهــادن ولا يجامل صريح كالحق ، ومستوى كحد السيف ، فإما حبٌــــةٌ وإما كُــرهٌ .. لا توجــد منطقة وسطى ..
- وبعد أن تحطم حبه الأول بصورة غوغائية تقليدية فمشـــروع زواجــه مــن الحبيبــة الأديــبة واجه مصيراً مماثلاً وعلى الرغم من أن هذه المرأة هى التى أهداهــا كتابــه الأول " حياة جبران وآثاره " والذى تقدم به للدكتوراة فى كمـــبريدج ، وتحــدث عــن مكانتها ودورها فى حياته ...

ويقول : " إلى السيدة التى أمسكت بيدى فى ليالى الشك .. " .

- وعلى الرغم من هذه العلاقة المتميزة فإنه يعود إلى الحديث عن دور المرأة فى حياته بصفة عامة قائلاً " لم ألتق بالمرأة التى يمكن أن تكون رفيقة تملأ جوانب نفسى .. المرأة تابعة لى تابع المسحور ، دون أن أستجيب لها استجابة تامة ، العلاقة كانت علاقة رفقة صراع أكثر مما هى علاقة رجل بامرأة تبلغ حد الاندماج التام " .

- فهو يشعر بالإخفاق فى هذا المجال :

" إن أقرب النساء إلى كما قالت إحداهن تأتى فى الدرجة العاشرة بعد الشعر " .

فلقد كان الشعر كل حياته ، وحلمه وأمنيته ... يريد لو أن يحطم ويبنى بالشعر .. ويريد لو كان بالشعر يعانق السماء فى رضاها .. ويبارزها فى غضبتها ..... بأبياته يريد أن يهز المياه الراكدة .. والعقول الآسنة من أبناء شعبه وأمته .. ويريد لهم أن يتخلصوا من عنتريتهم التى ما قتلت ذبابة .. ويستيقظوا على النار التى من حولهم وتمتد لتشتعل فيهم وهم عنها مغيبين .. ، ويريد أن يضرب كل عربى على أم رأسه ليفيق ، ولكن أخفق الطالب والمطلوب .. وكانت تسيطر على الشاعر نزعة فردية يستحيل إنسجامه مع الآخرين حتى لو كانت الحبيبة ولم تكن القضية فى الانسجام ... أو القضية فى الشعر .. فالشعر غالباً ما يأخذه هدف الحبيبة للانطلاق ..

إنما القضية .. فى الشاعر .. والتى كانت تجتاحه حالات من الشك كبيرة ... فى الطبيعة الإنسانية برغم إيمانه القوى بالإنسان ، وقد أدى ذلك إلى تصدع العلاقة وإخفاقها ..

وتقول حبيبته التى أهداها كتابه الآخير .. الأديبة " ديزى الأمير " .. وهى المرأة التى رافقته وأحبها وأحبته : " خليل إذا ظن شيئًا صار يقينًا يستحيل تغييره أصدقاؤه أحبوه ، وتحملوا غضبه وقطيعته بحلم ومودة لأنهم يعرفون طينته الجيدة " .. ، وأشارت إلى أنه منذ السبعينيات انقطع عن الدنيا والناس انقطاعاً شبه تام .. وزاد صعوبة فى تعامله معهم .. ثم تلخص المسألة كلها قائلة : " يعللون سبب انتحاره بتراكم الهزائم العربية ، نعم خليل شاعر عربى صادق ، مسؤول وطنياً " ..

ولكن ألم يكن خليل من البشر ؟

ألم تكن له حياته الخاصة .. ؟ .

من هنا نعلم أن الشاعر والمبدع المنتحر تشغله إشكاليات من واقعه النفسى وقضايا أخرى ولكن السبب المباشر الذى دفعه للانتحار وصعد من أزمته لدرجة الذروة هو غزو لبنان .

معنى الموت

والموت عند خليل حاوى .. يحتل مساحة كبيرة من أشعاره ، ولكنه لم يكن مجرد الموت الفردى الفيزيقى والذى يعنى انطفاء الجسد وخسارة الحياة .. ولكنه يعنى بالموت ما هو أبعد من ذلك .

كتعبير الجفاف الروحى، وفقدان ينابيع الرؤيا والتجدد ، والموت كدلالة على جمود حضارى ، وانكفاء سلبى على الماضى ، والخشية من الخوض فى التحدى المستقبلى .

والموت عنده كان أيضاً محاورة وتأمل . دون الوقوع فى هوة الرثاء والندب الذاتى ، وحقيقة الأمر أن ما يرتثيه الشاعر ، ويعنيه هو الموت ذاته ، موت النموذج السلبى ، أو موت المرحلة .. أو موت الخيارات البائسة ، ولكن موت هذه العناصر والحالات التى لا يجرى إلا عبر مخاض عنيف وانعدام شديد القسوة ..

فالموت هو بناء نعش للتقاليد الآسنة .. ودق آخر مسمار فى نعش كل ما هو قديم ، وبعد ذلك تكون بعث أشياء جديدة للتقدم ولحياة الإنسان ..

فالموت عنده ليس انتهاءً بل ابتداء ..

الانتحار العلنى

ولقد فكر خليل حاوى فى الانتحار العلنى وقرر أن ينفذ عمليته فى مكان عام ، وعلى رءوس الأشهاد ، ليعلن به احتجاجه الصارخ على تردى الأوضاع العربية ، ثم يلجأ إلى فعل الانتحار باعتباره الفعل الوحيد المتاح أمامه .

فاتنى طبع المجاهد
لم أعد غير مشاهد
فلأمت غير شهيد
مفصحًا عن غصة الإفصاح
فى قطع وريد .

وكان يتصور نفسه ، وقد حمل مسدسه ، وذهب به إلى منطقة الحمراء المكتظة بالناس ليفوح انتحاره العلنى .. ولكنه أدرك أن الانتحار العلنى ليس من التقاليد العربية ... فعندما حدثت الهزيمة فى حزيران ١٩٦٧ ظل ينتظر قدره ١٥ سنة وفى حزيران ١٩٨٢ عندما تجددت الهزيمة دون رد عربى فى مستواها وكان من آخر عباراته :

" رباه كيف أستطيع تحمل كل هذا العار " .

- غير أن عناصر تكوين حاوى الفـرد تداخلت للارتباط مع عنـاصر تكويـن حـاوى القضية .. وتضافر العنصران فى نسج قضية انتحاره ..
- ولقد بدأت مأساته منذ نكسة ١٩٦٧ وتصاعدت فى أوائل السبعينيات عندما داعبت أنف الشاعر رياح غير طبيعية تعم الوطن ... وشعر بهبوب الأعاصير على الوطن ...

ورأى الأقزام يحكمون ... والجهلاء يتقدمون إلى أول الصفوف .. والصفوة تتوارى .. ومن يرفض يقتل غيلة .. فتوقف عن النشر واعتزل الحياة .. وعندما قامت الحـرب الأهلية فى ١٩٧٥ ورأى المليشيات تجتز جسد الوطن .. وكيف أصبح أعداء الأمـس أصدقاء اليوم ...

كبت حزنه فى نفسه ... ورفض أن ينشر سطراً واحدًا ، وتوقف حداداً ، علـى حـال بلده.

وقامت الحرب من جديد ، ودخلت اسرائيل بيروت .. ونزل الشاعر يبحث عن شخص يرفع يده ويقول : لا .. لا .. وعن دولة عربية تتقدم بالمساعدة ، ووجد الإسـرائيليون يسكنون البيوت ..... ويغتصبون العذارى ... واحترقت بيروت الحبيبة أمام عينيـه ، وتعقدت الأمور ... ووجد الشاعر أن الكلمة لن تجدى نفعًا .. ، وانكسر سن القلـم .. وقرر أن تكون دماؤه إدانة لكل من تنصل للمسئولية ... ولعنة يحملها كل عربـى .. وعربون جهاد يدين به كل شاب ورجل ...

ورحل خليل حـاوى .... رحل ونحن نتوارى من شجاعته خجـلاً .... إنه لـم يعـد يرانا ... لكننا نشيح بوجـوهنا ونخفض رءوسنا للأرض هربًا مـن كلماتـه .. مـن نظراته ... نود لو نتفادى لسانه .. ولكن إلى أين وإلى متى ؟



همنجوای

إرنست هيمنجواي

كره الموت .. فكان الموت غريمه الذى نازله طوال عمـــره ، ولمـــا أدرك فى نهاية حياته أنه سيصرعه أقبل عليه طائعًا مختارًا .

كانت حياته مغموسة كلها بدم الحياة .. وكان أدبه من تجارب حياته .. وكانت حياته الغريبة تدفعه للرغبة فى الموت .. الموت الذى يتحكـــم فى حياته وأعماله.. وشعاره : ابحث عن المتاعب تجد السعادة ، وترجم هذا الشعار فـــى قصصه وروياته.. ورسم لأبطاله طريقًا مليئًا بالأشواك .. جعلهم يستطيعون فى النهايـــة الوصول إلى آخر هذا الطريق .

ولكن ليخســـروا كل شىء ..

كان نضاله فى الحروب والمعارك لدرجة المعايشـــة ، وعشـــقة لرحـــلات الصيـــد الخطرة ، ومصارعات الثيران الدموية .. كان يريد بكل هذا قهر الخوف من الموت فلـــم يكن يحب انتظار الموت .. بل كان يبحث عنه فى مكمنه .

هذا الكاتب الذى رسم الحب فى قلب النار والدم .. حيث العنف بين طلقات المدافع .. وحيث الحياة مخلوقة من قلب الموت والدمار .

هناك وفى إحدى ضواحى شيكاغو .. العنف شىء مباح ، والسرقة مشروعة .. فى حى أوك بارك .. ومن أب طبيب يهوى المغامرة ، ويعشق البندقية والصيد ، وأم متدينـــة شغلت وقت فراغها فى العزف بالكنائس ..

من رحم هذا التناقض ولد هيمنجواى أو تجاذبته يد والديه مابين التدين والكنيســـة .. وحب المغـــامرة ، فمال للمغامرة ، وتلقى فنون الهوايات على يدى أبيه الذى أهـــداه فـــى عيد ميلاده الثالث قصبة للصيد .. وتعلم فنون الرماية وهو ما زال غضًا لا يقـــدر علـــى حمل السلاح .. واشترك وهو صبى فى الاستعراض العسكرى بالمدينة، وسار وقد علـــق مسدس جده بمنطقته ، وهو يختال وسط الجنود فى مشية عسكرية صارمة ...

وفى العاشـــرة أهداه والده بندقية ، وأهدته والدته آلة شيللو للعزف .. فكان يهـــرب من دروس العزف ليصطاد السمك ..

كان دائمًا يقول " إن أفضل مدرسة للكاتب هى طفولة شيقة ، ولم يكن متفوقًـــا فـــى دراسته الثانوية ، فلم يكد ينتهى منها حتى رفض الالتحاق بالجامعة رغم غضب والديـــه.. وعندما فشل فى دخول الجيش والحرب لضعف بصره ، دخله متطوعًا ومراسلاً حربيًا ..

أحب الحرب فى صباه ، ولكنه حين دخلها وذاق مرارتها عندما رحل إلى إيطاليـــا.. صار بعد ذلك عدوها اللدود ، وأوقف كل كتاباته على الدعوة ضد الحرب ...

فلقد أضرت به الحرب مما نتج عنها قطع ساقه وأبدلها بأخرى من البلاتين .. فعرف ساعتها الألم والمرض والخراب الذى تسببه الحرب ..

وفى المستشفى عرف الموت .. عرفه فى جميع الأحياء المنهوكة القوى والمحطمة التى رقدت بجانبه على السرير ، وإن عرف الموت فى المستشفى ، فأيضًا فيها عرف الحب ، وأدرك أن الحب هو الحياة ، وأن الحياة والحب خصمان .. ورأى الحياة تنبض له فأحب الممرضة الأمريكية " مينس كروفسكى " الألمانية الأصل الأمريكية الجنسية وعرض عليها الزواج فرفضت لأنها كانت تكبره سنًا .

وخرج هيمنجواى من الحرب خاسرًا قوته ، وخاسرًا قلبه ..

خسر فى الحرب ..... وخسر فى الحب .. وهنا اكتشف نفسه .

واكتشف أنه يستطيع أن يعبر عن نفسه ، ويعبر عن خسارته على الورق فخلق منه هذا الفشل إرنست هيمنجواى .. أعظم الكتاب ..

لقد كانت حياته مغموسة فى الألم ، وغارقه فى الدم .. كان يمد يده ليأتى بالقرش وكأنه يمد يده ليأتى بأحد ضروس فكه ..

لم نعلم أبدًا أنه كسب دولارًا واحدًا فى عمل مكتبى.. أو فى وظيفة .. لقد كسب كل أمواله من مغامراته وكتبه التى كانت صدى لتلك المغامرات ، وعندما لم يجد معه نقود فى أوليات حياته كان يتكسب من المراهنات على سباق الخيول الذى برع فيه وكسب من ورائه المال الكثير .

☹ ☹ ☹

عشقه وزيجاته :

لم يصادف فتاة ، فى نادٍ أو على رصيف الحياة فأعجب بها وتزوجها .. ولم تلفت نظره أبدًا سيدة أرستقراطية .. فكان لجسارته .. وجسمه الرياضى ونظراته الواثقة يخطب وده أغنى وأجمل سيدات المجتمع .. وكان فى نفسه شيء آخر .. كان يهزأ بهن ولا يحترمهن .. بل كانت نظرته لهن سخرية فهن لم يعشن يومًا فى الحياة .. بل على هامش الحياة ..

يراهن فارغى الاهتمام والعقل فلم يلفتن اهتمامه .. بل كان يعشق العصفور على الشجر أكثر من عشقه لصاحبة الفيلا الفاتنة .

ولكن ماذا كان يحب هذا الرجل ؟ .. إنه لم يحب يومًا امرأة سهلة ولم يضاجع امرأة تافهة .. كان شعوره بأنهن خارجات من القبور .. فهل يضاجع الموتى ؟ ..

كان يعشق البنت الرجل .. الرقيقة الخجولة .. الحرة التفكير المستقيمة الذوق .. التى تصارع الحياة وتقبل منازلة القدر بشرف ونبل ..

وعلى غير العـاده كان لقاؤه بالحب الأول فى مستشفى ماجيورى فى ميـلان .. بين النـار والدم وطائر الموت ينعق على كل الجثث .. وحيث الأعضاء البشرية مبعـثرة فى كل مكان .. وحيث الصراخ والنزاع فى مرحلته الأخيرة ، ومن بين السـواد والعـدم والعفن .. يخرج بلبل الحب على شباك هيمنجواى فيغرد أول حب وأول عشق لم ينسـاه أبداً للمرضة الإنجليزية الحسناء ، وعقد معها صداقة عاطفية ملكت عليه كـل نفسـه .. وعندما عرض عليها الزواج كان عمره لا يتعدى سـتة عشر ربيعـاً فرفضـت لصغـر سـنه .. وخرج من المستشفى محطم القلب والجسـد .

وعندما عاد إلى نيويورك فى يناير ١٩١٩ استقبل استقبال الأبطال .. وعاد إلى والده وبلدته غـابة البلوط " أوك بارك " بشيكاغو .. وبدا له جوها خانقـاً .. فلقـد ذاق طعـم الحرية والإثارة ، ودفعه ذلك إلى الاستقلال بحياته بعيداً عن والديه .

وعاش وحده فى شيكاغو بعد أن حصل على عمل يقيم أوده فى جـريدة سـتار .. وكان يقسم وقت فراغه مابين صالة الألعاب الرياضية ، والتمرس على فنون الكتابة .

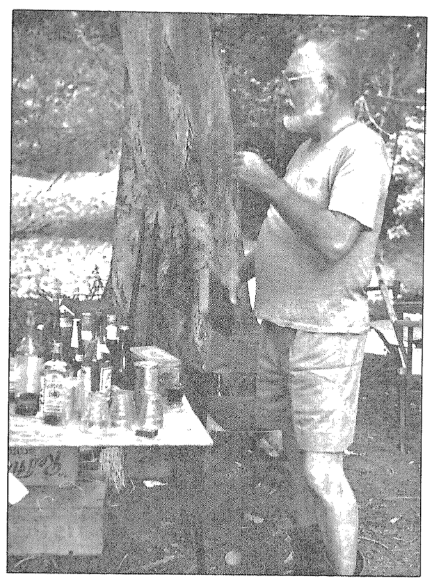
وفى مغامرة أخرى أثناء رحله له إلى " ميتشجان " صدمته فتاة مثقفة جريئـة فـى آرائه وآماله ورأى منها نوعاً جديداً من النساء .. امرأة بلا توابل ، ولكنها كـانت هـى الشطة والكمون .. وكل حريفات حواء فيها ..

هى عازفة بيانو وكان اسمها " هادلى ريتشاد سون " وتزوجها فى سبتمبر ١٩٢١.. وبعدها عين مراسلاً فى باريس مدينة الحب والملائكة .. مدينة النور .. بـاريس مدينـة المتناقضات .. نعم هى المدينة التى توائم روح هذا المغامر .. إنها مدينة المغـامرات .. فيها تعلم التمييز بين الأصيل والمزيف .. بين العبقرية والتصنع ، وتعلم كما قال :

" كيف يكتب القصص بالتطلع إلى اللوحات فى متحف اللوكسمبرج " .

وهناك كان على موعد مع العمالقة وأساتذة الحضارة الأديبيـن جرتـرود شـتاين وعزرا باوند ، وكان لقاؤه الواعد مع العبقرية الفنية العظيمة التى انجـذب إليهـا وتنبـأ بمستقبلها العظيم .. مع بيكاسو .. وألمح له بيكاسو عن مصارعات الثيران فى مدريـد .. وهناك صمم على خوض تلك التجربة الفريدة .. وتأبطت زوجته ذراعه .. وانطلقا معـا ميممين وجههما شطر مصارعات الثيران .. وعاش فى إسبانيا فكانت .. مدريد مدينتـه ، وكانت إسبانيا عشيقته ..

وفى مدريد حيث كل شيء يدعو للإثارة .. وحيث السخونة وحيث الدم يغلـــى فـــى العروق .. نشبت الخلافات بينه وبين زوجته لغيرتها من العلاقة التى لم تنته بالممرضـــة الإنجليزية التى تعرف عليها فى مستشفى ميلان .. وأجج تلك النار علاقته المستحدثة مـــع "ليدى داف تwايسدف " وهى سيدة انجليزية لعوب تعرف عليها فى مشـــاهدات مصارعـــة الثيران .. وتصارع عليها هو وأحد الزملاء ثم تركها بعد أن انفصل عن هادلى.. وانتقـــل إلى نيويورك مع امرأة من معارفه مال إليها وتدعى " بولين " الكاتبة الصحفيـــة بمجلـــة (فوج) النسائية .. وما بين مصارعة الثيران .. وبين الخلافات الزوجية تتـــأجج العاطفـــة للكاتب ليعشـــق امرأتين .. وليطلق زوجته ، وينقح رواية .. تشـــرق الشـــمس ثانيـــة .. لتظهر فى أكتوبر ١٩٧٦ .. ولتكون قنبلة الروايات الأمريكية، وليخرج بعدها.. " رجـــال بلا نساء " وجذب انتباه الجماهير ككاتب وكإنســـان .



أرنست هيمنجواى وسط أدغال أفريقيا ولحظة تأمل

وقامت الحرب الأهلية الإسـبانية .. وانحاز هيمنجواى ضد فرانكو وقواته وسـافر بنفسه إلى مدريد لتغطية الحرب بجوار الجمهوريين .. وخاض أهوالاً فى طريقـه إلـى ميدان الحرب ، وكاد أن يقتل فى العديد من المرات ، وتعرف فى مدريد علـى مراسلة صحفية شقراء صغيرة السن تدعى " مارتا جلهورن " ، كانت قـد بـرزت فـى عملهـا ونجحت فيه نجاحًا ملحوظًا .. وتوثقت المودة والصداقة بينهما .. فكانا لا يفترقـان فـى الميدان ولا خارجه .. وكم من مرة تعرضا للقتل والأسر والخطف .

ومن بين جذور المغامرة والخوف ، والإصرار على الحياة .. ومـن بيـن الدمـاء والصرخات .. والجنون بكل أنواعه .. نشب حب غريب عجيب ، أنضجته نار الحـرب، وأوصلت أجزاؤه الأعضاء المتقطعة .. وانتهت الحرب باندحـار الجمهوريين ودخـول فرانكو مدريد .

وعاد هيمنجواى إلى بلاده ، وفى منطقة كان يمارس فيها التزحلق على الجليد .. فى منطقة " صان فالى " .. كتب ٢٤ فصلا من فصول رواية جديدة أعدها عن الحرب الأهلية الإسبانية .. وكانت " لمن تدق الأجراس " .. أهداها إلى " مارتا جلهورن " وكان قد اتفـق معها على الزواج بعد أن وافقت " بولين " على الطلاق .

ولم يكن شهر عسل عاديًا .. بل كان أربعة شهور .. كان فى الثانية والأربعين مـن عمره ، ومارتا فى الثامنة والعشرين .. وطارا إلى الشرق الأقصى ليغطيا أنباء الحـرب اليابانية الصينية لصالح صحيفتين مختلفتين .. وكان شهر عسل فـى ميـدان القتـال .. تأججت فيه عاطفة الحب مع كل صفارة إنذار .. ومع كل طلعة طيران .. ومع كل دانـة مدفع تنطلق .. نرى هيمنجواى وهو ممسك بيد حبيبته بين الخوف والدخان يجذبهـا إلـى الأمان .. أو حيث القنابل لا تخطئ أحداً .. ينطرحان معًا علـى الأرض ، ومـن قلـب المأسـاة تخرج ابتسامة وحب .. ويدان فى يد واحدة .. وعاد العروسـان بعـد انتهـاء الحرب إلى ضيعة الحب فى كوبا .

وعزم هيمنجواى بعد ذلك أن يبعد عن نار الحرب ومغامراتها .. وعندما جلس بـدأ الملل يتسرب لنفس زوجته .. وبدأت عاطفته تفتر تجاهها .

ووجدت مارتا أن مثل هذا الزواج لن يتفق وطموحاتها الواسعة للتقدم فـى العمـل الصحفى .. فطارت وحدها لتغطى أنباء الحرب العالمية لصالح مجلة " كولبير " .. وبعـد ستة شهور لم يستطع أن يقف هيمنجواى موقف المشاهد فطار ليقتحم خطوط القتـال فـى أوربا وليوافى مجلة "كولبير " هو الآخر بالتحقيقات الصحفية عن الحرب .

وسبقته زوجته مارتا إلى هناك .. وكان هناك هو الآخر .. ولكن ليس مع زوجته .. بل مع مراسلة صحفية تدعى " مارى ولش " وقد اشترك هيمنجواى فعلاً علـــى الجبهــة الفرنسية حينما كان الحلفاء يعدون العدة للغزو النورماندى .

وعلى خط النار مع مارى ولش كون عصابة ترأسها .. وكان الفدائيون ينادونه " بابا هيمنجواى " .. وكانت هذه الفرقـــة هى أول فرقـــة تدخل باريس من عمل مـــن جنـــود الحلفاء .. وكان أول شىء فعله هيمنجواى عندما دخل باريس أن توجه فوراً وبدون تأخير وحرر فندقه الأثير "الريتز " وعب من خموره المعتقة .

وللعجب أن هيمنجواى حوكم أمام محكمة عسكرية بعد ذلك لتخطيه حـــدود قوانيـــن المراسلين الصحفيين باشتراكه الفعلى فى القتال .. ولكن للإعجاب الشديد بهـــذا المقـــاتل المغوار من جانب العسكريين لم يتقدم أحد للشهادة على الجريمة فسقطت عنـــه التهمـــة - ومنح ميدالية برونزية تقديراً لشجاعته .

وبعد الحرب وفى أكتوبر ١٩٤٥ حصلت مارتا جلهورن على الطلاق .. وعاد إلـــى كوبا مع " مارى ولش " .. وتزوجها فى هافانا ١٩٤٦ .

هكذا كان حب هيمنجـــواى بين الماء ، وبين النار .. فلا هـــو يحـــترق ، ولا هـــو ينطفئ .. بالحـــرارة تذوب العواطف .. وعندما تلتحم النار والمـــاء ينطفـــئ الحـــب .. ويموت الزواج .

حـــروب هيمنجـــواى

عندما فشل هذا المغامر فى الالتحاق بالجيش لضعف بصـــره - التحـــق بـــالصليب الأحمر .. ليلتحق بالجيش من الباب الخلفى .. وأصيب فـــى الحـــرب العالميـــة الأولـــى بإصابات مختلفة لدرجة أن بترت ساقه .. وأخرجوا منه فى سلسلة من الجراحـــات ٢١٧ شظية .. ، وعندما ذهب ليغطى الحرب الأهلية الإسبانية كاد أن يقتل أكثر مـــن مـــرة .. وكتب وقتها المسرحية الوحيدة له " الطابور الخامس " وكان حريصاً على أن يكون فـــى وسط المعارك التى تدور بين الفاشستيين والجمهوريين .. وكم من مرة انقلبت به السيارة ، وجرح أكثر من مرة لتهشم زجاج السيارة من شدة الانفجارات .

وكان يتحمل ويختزن فى ذهـــنه التجارب والأهـــوال التى اقـــترنت بهـــا الحـــرب الأهلية البشعة .. والتى مات بسببها فى العام الأول ما يزيد على نصف مليون إســـبانى .

وفى الحرب العالمية الثانية كون أول فرقة من الفدائيين - كانت الأولى أيضاً - فى دخول باريس ، وتحرير الفندق الذى كان يقيم به عنـــد زيارتـــه للعاصمـــة الفرنســـية ..

بالإضافة للحرب اليابانية الصينية وغيرها من الأحداث التى لم يتوانى هيمنجـــواى عــن متابعتها ورصدها ..

رحــلاته ومغــامراته :

وزار هيمنجواى معظم دول العالم .. خاصة الدول ذات الأحداث الســـاخنة ، ودول الإثارة .. حيث صراع الموت والحياة بدءاً بمصارعة الثيران بإســـبانيا .. إلـــى عــالم الغابات بأفريقيا .. وذهب إلى الأدغال مع زوجته وأحد أصدقائه .. وكان مرشدهم فيليـــب برسيفال ، والذى أصبح من أقرب أصدقائه الحميمين بعد ذلك .

وطاف ببلاد الوسط ومنها أوغندا ، وعرف كيف يصطاد الأسود والنمور والفيلـــة ، وخاصة وحيد القرن .. وعاد إلى " كى وست " فـــى ربيـــع ١٩٤٣ محمـــلاً بالذكريـــات الأفريقية .

العجــوز والبحــر :

وفى " كى وست " مرت به تجربة صيد فريدة ظل حاملاً فيها إلى أن جاءت لحظـــة المخاض وولدت فى عمل فنى متكامل ..

ففى أثناء جولة للصيد على قاربه " بيلار " ، اشتبكت قصبته بسمكة تونـــة ضخمـــة يربو وزنها على الألف رطل ، وظل يطاردها قرابة يوم كامل وهو يجاهد ألا تفلت منه .. وتمكن أخيراً من صيدها وجرها إلى جانب قاربه .

ولكن بعد أن بذل هـــذا المجهود الجبار الذى يفوق الطاقة فى صيدهــــا .. هجمـــت عليها اسماك القرش ونهشـــت لحمها وتركت له سلسلتها الفقـــرية ورأســـها تســـبح إلـــى جانب القارب ..

وكانت رواية " العجوز والبحـــر " .

وبعد أن انتهى من روايته .. " تشرق الشمس ثانية " حن إلى أفريقيا .. فـــاصطحب زوجته " مارى " فى رحلة صيد إلى أفريقيا – ومولتها مجلة " لوك " توغلا خلالهـــا فـــى أدغـــال الكونغو ثم أدغال كينيا .. ولكن حدث وسقطت بهما الطائرة التى كـــانت تقلهمـــا فوق "شلالات مورشيون" ونجيا بأعجوبة ، وقضيا ليلتهما بين الوحوش الجائعة إلـــى أن أنقذهما قارب الاستطلاع .

وجاءت طائرة نقلته هو والزوجة بعد الحادث إلى " عنتيبى " ولازمهما سوء الحـــظ فاصطدمت الطيارة بالأرض وشب فيها حريق .. نتج عنه اصابات خطـــيرة فـــى رأســـه

وساعديه وساقيه لازمته بقية حياته .. وعندما وصل إلى بر الأمان كان أول ما يقع تحت يده جرائد الصباح .. وكان الخبر فى كل الجرائد العالمية وبالمانشيت العريض تنعى فيه كل الجرائد وبلا استثناء " وفاة الكاتب الكبير هيمنجواى " ..

وعاد هيمنجواى من رحلته المشؤمة .. ووصلته الأنباء من استوكهولم بفوزه بجائزة نوبل للأدب لسنة ١٩٥٥ ، لتمكنه القوى على أسلوب الرواية .. وبدأت تقبل أكبر شركات السينما العالمية على شراء قصصه ..

وطاف بعد ذلك بإسبانيا إبان موسم مصارعة الثيران .. وشهد المباريات الدامية للمصارع لويس ميجيل ، وكتب تحقيقًا لصحيفة " لايف " عن هذه المباريات والمنافسات تحت عنوان " الصيف الخطير " .. ولتمكنه من الكتابة كان صديقًا لكل المصارعين ليعرف طباعهم وأسلوب رشقهم للسيف بثبات وقوة .. يعرف حتى من تكون حبيبتهم ..

ولم تتركه أسطورة الموت فحتى فى وقت كان يستجم فيه ويستريح خرجت شائعة قوية من مدينة " مالقا " بإسبانيا تفيد بأن هيمنجواى قد توفى .. وكان كل ما فعله عندما علم بتلك الإشاعة أن قال وهو يرفع كأسه ويشرب " إن المرء يحيا فى إسبانيا ولا يموت فيها " ..

وكانت مدريد مدينته .. مدينة الموت .. والدماء والإثارة ..

إحباط :

لم تكن حياة هيمنجواى سلسلة مغامرات ، ونجاحات مستمرة .. بل كان الفشل فيها يفوق النجاح .. والموت يطغى على الحياة.. لكنه يحيا بقوة الإرادة .. ومضاء العزيمة ، وكانت إحباطاته عظيمة .. ففيما بين تنازع والديه على أسلوب تربيته مما خلق منه شخصية انطوائية إلى حد كبير فى أوليات حياته .. وزرع فيه الوالد روح المغامرة .. فكان ملاكمًا لكنه كثيرا ما انهزم في ساحات الملاكمة ، ونتج عنها ضربة أصابت عمق عينه .. حرمته من أن يكون مؤهلاً لدخول الجيش .. وكان فى دراسته بمستواه المتوسط مما جعله يكتفى بتعليمه الثانوى دون الجامعى مما أغضب عليه والديه ..

والتحق بالصليب الأحمر لتبترله ساق فى الحرب العالمية الأولى ... ويعيش بساق من البلاتين .

وعندما تزوج وسافر إلى باريس مرت به فترة تفاهة كانت المجلات بلا استثناء ترفض قصصه الواحدة بعد الأخرى .. ولم يكن يجد ما يكفى عشاؤه هو وزوجته .. ولم

ييأس .. ولم يستسلم ، ولم يعقه هذا عن الاستمتاع بحياته فى الصيد ومشاهدات سباق الخيل والدراجات .

وبعد أن نشرت له بعض مجموعاته القصصية .. ثم .. وداعًا للسلاح .. وفى وسط هذا النجاح تعرضت زوجته " بولين " لتجربة عصيبة إذ تعسرت ولادتها وأشرفت على الموت ، واضطر الأطباء لإجراء عملية قيصرية وإخراج الجنين من البطن .

وكانت أصعب تجربة هى تجربته فى الانتظار خارج المستشفى حتى تنتهى العملية .. وظهرت هذه العملية بتفصيل شديد جدًا فى رواية " وداعا للسلاح " .. وأيضًا فى قصة قصيرة اسمها " المخيم الهندى " .

وبينما هو فى تعثراته .. انتابته أزمة روحية شديدة فى هذه الفترة لقد مات الأب الطبيب المغامر والمثل الأعلى منتحرا بمسدس جده ، والذى كان إرنست يحمله وهو طفل ويسير به مختالاً فى الاستعراض العسكرى " فى أوك بارك " .

وأحب إرنست العنف منذ صغره ، ومنذ عام ١٩٣٠ صمم على أن ينازل الحيتان فى البحار ، وكانت متعته ، وكانت إلهامه .. وكانت " العجوز والبحر " صراع شيخ عجوز صياد تحداه أقرانه ، واتهموه بالضعف فتحداهم وذهب إلى البحر ليصطاد أكبر سمكة صيدت فى تاريخ الصيد .. ولكنه ماكاد يظفر ببغيته حتى هاجمته أسماك القرش التى استطاع الإفلات منها بمعجزة .. ووصل إلى الشاطئ محطمًا ظانًا منه أن الاسماك أكلت ما صاد .. ولكنه يعلم أخيرًا أن الأسماك أكلت لحم السمكة وتركت عظمها ... ويشهد له الصيادون أنه اصطاد أكبر سمكة فى تاريخ الصيد .. وعادت له ثقته بنفسه ، وعاد إلى البحر بعد أن أثبت قوته وتحديه للأخطار ...

وفى هذه القصة نرى هيمنجواى ممثلا فى شخص العجوز " سنتياجو " إذ كان صيادًا ماهرًا .. يصطاد الحيتان الكبيرة رغم أنه يعلم أن الموت يكمن له خلف هذه الحيتان .. ولكنه لا يبالى بالموت ويتغلب عليه .

ويعترف أنه لم يجن شيئًا من جراء هذه الأخطار كما كان ينتظر .. كما أن العجوز لم يظفر إلا بهيكل السمكة .. ولكنه رغم ذلك يعود للأخطار ثانية لأنها أصبحت حياته وعادته .

الحياة صراع :

وفى إسبانيا كما يسميها جنة الأرض وبلد الرجال ... هناك عرف هيمنجواى أن الحياة صراع مستمر .. وذلك من مشاهدته لمصارعة الثيران . لقد رأى فى الثور شخص

الإنسان .. ذلك الثور الهائج القوى الذى يتحدى الموت بقرنيه .. ولكنه يموت غيلة بسيف المصارع .. إن الإنسان ضحية هذه الحياة ولقد أوقعه حبه لمصارعة الثيران إلى النزول إلى الحلبة .. وكاد يفقد حياته مرة أمام أحد الثيران .. فكان يصف الحياة بأنها حلبة مصارعة يتصارع فيها الإنسان والخطر .. أما نتيجة الصراع فهى الهزيمة لأحدهما دائمًا .. وكان يحب إسبانيا حبًا عظيمًا ، وخلدها فى رائعته .. " لمن تدق الأجراس " .

لمن تدق الأجراس :

من أعظم ما كتب هيمنجواى .. وأروع ما سطرته يد فنان .. إنها تترك فى النفس آثارًا جميلة غامضة .. تدفع القارئ إلى أن يعود لقراءتها مرات ومرات ..

" لمن تدق الأجراس " .. الزمن فى الثلاثينيات من هذا القرن .. وموضوعها الحرب الأهلية الإسبانية والمكان ميدان النار والدم والجرح وحيث الحصاد موت ودمار ..

وحيث الحرب ... وحيث كل شيء مباح ..

وفى الرواية نرى شخصية هيمنجواى فى شخصية البطل " روبرت جوردان " هيمنجواى شارك مشاركة فعلية فى تلك الحرب إلى جانب الجمهوريين ضد الفاشيست بقيادة فرانكو .

ولقد ذهب روبرت جوردان – وهو مهندس أمريكى وخبير فى نسف الجسور والكبارى – إلى إسبانيا ليشارك الإسبانيين فى هذه الحرب .. ويكلف بمهمة قاسية وهى نسف أحد الكبارى المهمة والذى يتوقف عليه انتصار الثوار أو هزيمتهم ... ويعيش بطل القصة ثلاث ليال فى كهف مع بعض الثوار .. وهناك يلتقى روبرت بالحب الذى يعبر عنه هيمنجواى دائمًا بأنه الحياة ويلتقى روبرت " بماريا " الفتاة المسكينة التى شردتها الحرب الأهلية وقتلت أهلها ، وجعلتها ترى مصرعهم أمام عينيها .. وتخسر كل شيء حتى شرفها .. لأنها الحرب وفيها يخسر الإنسان كل شيء .. وتهرب الفتاة إلى الجبال بعد أن فقدت شعرها وشرفها وتنقذها العجوز " بيلار " والتى أخذتها لتعيش فى الكهف الذى ذهب إليه روبرت منضمًا إلى جماعة تساعده فى نسف الكوبرى .

ويحب روبرت ماريا ، وتحبه ويقضيان معًا ثلاث ليال حاسمة فى حب جارف حين تهرب ماريا من الكهف ليلاً لتلقاه فى فراشه بالخارج .. وهنالك يوجد الحب بعيدًا عن الحرب والخوف من المستقبل .. وتتم عملية النسف ، وتنجح ولكن روبرت يفقد

ساقه ، ويفقد حبيبته حين أجبرها على أن تتركه لتهرب مع بيـــلار ولتنجــو بحياتهـــا .. وتتركه رغماً عنه .. ويظل روبرت راقداً مكسور الساق ينتظر الموت .

وبهذه القصة يتساءل هيمنجواى .. عن المنتصر فى هذه الحـــرب .. إن الطرفيـن المتحاربين من الأسبان .. ولقد خسرت إسبانيا مليون نفس من أبنائها ..

فلمن تدق الأجراس ؟ لمن النصر ؟ .. لمن الفرحة وكل البيوت فى حـداد .. وكـل أسرة فقدت شهيداً من أبنائها .. ؟

ونرى هيمنجواى يتشبث بالحياة ويعادى الموت عداءً مراً على لسان روبرت بطـــل القصة ، ويرسم له ولمحبوبته آمالا حلوة .. وأحلاماً سعيدة .. والأخطار تحيط بهما مـــن كل جانب .. والموت والتشرد والضياع لهما بالمرصـــاد .. ويكرر مراراً علــــى لســـان البطل عبارة :

" لابد أن أعيش .. لابد أن أعيش .. إنى أكره الموت .. " .

صور هيمنجواى فى هذه القصة وفى معظم قصصه موضوع " الحب والحرب " أو "الحياة والموت " وقيمة كل منهما فى المتعـــة القليلة التى تتخللهما .. فهو لم ينـــس فـــى قصته هذه متعة الحب القصيرة بين ماريا وروبرت من خارج الكهف فـــى جـــو قـــارس ولكنهما يقضيان أحلى لحظات الحياة بالرغم من أنهما يخسران فى النهاية كل شيء .

صوت الجيـــل الضـــائع :

بعد نشره كتابه الأول " ثلاث قصص وعشر قصائد " ، وكتـــاب " فـــى عصرنـــا " بباريس أصدر بعد ذلك " وتشرق الشمس ثانية " نهض هيمنجواى من سريره ليجد نفســـه مشهورا .. وأصبحت كتاباته ، وروراياته .. وأفكاره تحمل صدى لصوت الجيل الضائع .. هذا الجيل الذى لا يحب أن يرى الكأس فارغاً وممتلئة .

وهكذا كان هيمنجواى .. فلم تعمر معه امرأة طويلاً .. ولم يطق العيش بعيداً عـــن امـــرأة .. وكان يقول : الحياة بلا امرأة لا تطاق .. فكان يحبها ولكنه يعترف بالمتـــاعب التى تصاحبها .. ويعترف بضعفها .. وكانت كل كتاباته ضد فكـــرة الحـــرب .. وتدعـــو للتمسك بالحياة ، والبحث عن الحب والمرأة ، ويظهر هذا جلياً فى مجموعته " رجال بـــلا نساء " باعتبارها من أوليات قصصه .. ولكن فى هذه المجموعة تتغلب نزعته التشـــاؤمية رغم حبه للحياة حينما يقرر فى معظمها وخاصة فى قصة " القتلة " أن الحياة كلهـــا شـــر

وأن الإنسان الآمن تحيط به الشرور من كل مكان .. وهولا يستطيع دفعها ويستسلم لهـــا غير طائع حين لا يعلم أن لا حيلة بيده ..

وعندما عاد هيمنجواى من أوربا إلى أمريكا فى ١٩٢٨ كتب " وداعا للســـلاح " .. وفيها عالج موضوعه الخالد " الصراع بين الحياة والموت أو بين الحب والحرب " .

وفيها ترجم ما يعتمل فى نفســه وما حمله من حزارة فى هذه الحيـــاة .. وتمثلــت حياته فى شخص بطل الرواية .. ولم ينس حبــه الأول للممرضـــة الأمريكيـــة " جينــس كروفكى " أثناء اصابته فى الحرب الأولى والتى داست على قلبه ، ورفضت الارتباط بـــه لصغر سنه ، برغم الحب الذى كان يربطهما ، وتمثلت شخصية " جنس " فى شـــخصية " كاترين " بطلة القصة .



مارى هيمنجواى زوجته

☹ ☹ ☹

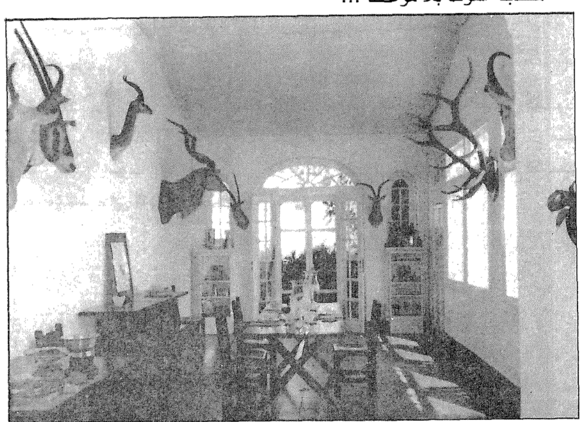
لمــــاذا الإنسان؟

ولقد عبر هيمنجواى تعبيراً صادقًا ورائعًا عــن مأســاة الإنســانية ، وكيف أنها لعبة قذرة ، يلعبها الإنسان رغمًا عنه ، وأخيراً يخسر فيها كل شيء ، وذلك حينما جعل بطل قصته يخسر محبوبته حين اختطفها الموت منه ...

ولقد عبر عن كراهيته للموت فى هذه القصة ، لأنه وجد فى الموت عــدوه اللــدود خاصة عندما مات والده منتحراً أثناء كتابته لهذه القصة ...

ولقد أنهى هيمنجواى رواية " وداعًا للسلاح " فى ١٩٢٩ نفسه يعصرها الموت على والده الذى كان معجباً بشخصيته حيًا وميتًا .. وكان هيمنجواى حين يتحــدث عن والــده بعد وفاته .. يمجد الطريقة التى مات بها لأنه جابه الموت وهو قوى ولم ينتظر لأن يأتيه الموت .. ولعله منذ ذلك التاريخ بدأت فكرة الانتحــار تختمر فى ذهنه ليفعل مثلما فعــل والده وينهى حياته مثلما أنهاها ...

مقــابلة الموت بلا موعــد ...



منزل هيمنجواى ورؤوس الغزلان

الانتحار

كان يتحدى المرض بالمغامرة .. فكان يصارع السكر .. ويهزم الكبد بالدأب والمغامرة والعمل المتواصل ، ومع هذا الصراع النهائى لمرضه كان أخشى ما يخشاه أن يضعف يوماً ويصبح عالة على الغير .. أو أن يقعده المرض ويبذل كبرياءه وتهـزمه الحياة فى النهاية .. فصمم على أن يلقى المـوت قبل أن يلقاه .. وإن كان قد جاء بلا اختيار .. فليرحل باختيار .. واختار ساعة الرحيل ، وفى صبيحة يوم ٢ يوليو ١٩٦١ كان آخـر يوم فى خريطة حياته .. والمكـان منزلـه بقرية كتشـام بولاية إيداهو فى غرب الولايات المتحدة .. وفى تمـام السـاعة السـابعة صباحاً نزل إلى الطابق الأرضى مرتدياً بيجامة محتضناً أغلى بنادقه وأحلاها إلى قلبه ..

وينزل هيمنجواى السلم ببطء .. عيناه تنظران إلى بعيد .. فى ماذا كان يفكر فى ذلك الوقت .. وكان عشقه لوالده لم يجعله أن ينسـاه حتى فى لحظاته الأخيرة .. بل لم ينـس أن تكون موتته كميتة أبيه .. وكانا معاً على موعد .. وألقى بآخر نظراتـه إلـى الحيـاة وودعها وداعـاً غير مأسوف عليه .. وبهدوء شديد وضع فوهة البندقيـة فـى فمـه .. وضغط على الزناد .. وانطلقت رصاصة .. وانطلقت صرخة أليمة من أعمـاق قلـوب عشاق أدب هيمنجواى فى جميع أنحاء العالم .. ليستمعوا بقلوب يعصرها الألم نبأ مـوت معجزة القرن إرنست هيمنجواى ..

ومات هيمنجواى ..

مات الكاتب الذى كتب للحب والحياة ونـدد بالحرب والموت وأقبل علـى المـوت بحب الحياة .. وتخلل كتابته نظرة المتشائم الذى امتلأت حياته بالسخط والغضب .. وهـو الذى حمل لقب " صوت الجيل الضائع ".. والحياة لعبة قذرة .. والحياة صراع ما نكسـبه فيها حتم سنخسره فى النهاية وكانت فلسفة النهاية .. الخسران .



كليوباترا

كليوباترا

كان في عينيها كل رؤى الشياطين.. وفي قلبها جحيم من الحب ، وفي رأسها طموح العالمين .. كانت جميلة ، وكانت ملكه .. كانت حلوة الحديث ، وكانت ذكية .. كانت كل هذا وأكثر من هذا ..

كانت الفتنة والسحر والذكاء والأدب والنشاط وقوة الإرادة .. سبقها ست ملكات ونسيهم التاريخ .. وجاءت هي السابعة فخلدها الجمال .. وأنشد سرها الهوى والفؤاد .. لقد عاشت أسطورة من الحب ، ولم تكن يومًا قائدًا ملأ الدنيا وشغل الناس .. سلبت لب الأمراء والقواد .. وشغلت بال الشعراء .. وأشعلت نيران الحب والجوى لدى محكوميها .. فحملوها في القلب ، وحفظوها في العيون .. هكذا كانت وهكذا خلدت ..

" وهفا كل فؤاد .. وشدا كل السان .. هذه فاتنة الدنيا وحسناء الزمان .. " .

في قصر يطل على شاطئ البحر .. ولدت بمدينة الإسكندرية .. تنام على صخبات الموج الحانية .. وتصحو على بيارات البرتقال .. وتغازل جفونها حدائق الورد أينما ذهبت ..، ولعب لسانها بكل لغات الدنيا ، حيث الإسكندرية حاضرة الدنيا وكعبة العلم .. وكان هذا قبل مولد المسيح بنصف قرن .. صبية في عمر القمر وفي ميعة الصبا بعمرها الرابع عشر .. استطاعت أن تدير رءوس الرجال وتخضع كبير الفرسان القادم من روما لسحرها وجاذبيتها .. وتحت أقدامها يركع مارك أنطونيو .. ومات أبوها وعمرها ثمانية عشر عامًا ، وكان للاخ أن يتزوج أخته .. ليقتسما العرش . ولئلا يتلوث الدم الملكي القادم من عرش الشمس .. وأخوها طفل في العاشرة من عمره وهي شابه تحترق بالأنوثة .. وتزوجا ولم تزف إليه في انتظار اليوم الذي يصبح فيه الطفل رجلاً.. أو يصبح مراهقًا نزقًا .. وأصبح الطفل ابن ثلاثة عشر عامًا .. واضحى وحده الملك يساعده مجلس الوصاية .. ويرى في أخته وزوجته نظرة طامحة للتاج ... ويتهددها ويدبر لها المكايد والمؤامرات .. وتتعرض لمحاولة اغتيال .. وتخاف على عمرها وتهرب .. ولكن البحر مراقب .. فإلى أين ؟ .. ولم يعد إلا النيل الحارس الأمين .. فحملها النيل كسيره القلب ، مكلومة الفؤاد .. وتعجب ولسان حالها يتساءل : أين جمالي وفتنتي من هؤلاء الإسكندريين ... ؟ .

وفي طيبة الحبيبة .. رأت كيف تبدل الحال ؟ .. وكيف أصبح مقدمها .. أين مقدمها هذا من أيام مقدم والدها وهي معه ؟.. وكانت دموعها لا تنقطع .. تبكي وتشكي .. ولم تجد إلا الموتى لتبثهم نجواها .. هؤلاء الفراعين العظام .. وفي الضفة الغربية على

النيل وقفت ، وكم كانت تود لو ترقد بينهم تنتظر البعث . آملة فى العدل ... وإذ تسفح عينيها الدموع حزنًا على أيام ملكها وعزها .. تسمع أصواتًا وقد انبعثت من جوف المقابر " أن لا ملك بغير إقدام .. ولا جلالة من غير كبرياء .. ولا حكم لمن لم تملك نفسه شهوة الفتح " .

ولما أيأسها عون المصريين ومددهم .. ذهبت تنشده فى سوريا .. وما أن استقرت فى ربوع الشام حتى سحرت جميع أهله حكامًا ومحكومين .. فالتفوا حولها ، وأصبحوا جيشها .. وأخذتهم روعة الجمال وإعجاز الجمال .. وشجاعة الإقدام .. وسارت بهم إلى حدود مصر .. ووقف الجيشان كل فى حدوده ولم يشتبكا حتى دخل قيصر مصر وعلم بالخلاف الدائر بين الأخين الزوجين .. وحلف على أن يجعل من نفسه حكما بينهما ....

وكان لكليوباترا معلمًا ومؤدبًا ... عاش معها العمر كله وتعلمت منه الحكمة والفلسفة وأصول الحكم وقيادة الناس .. وهو الذى أرشدها لأن تستخدم جمالها الرائع فى بساطته لتحقيق أحلامها ..

وكان جمالها أخاذاً لغموضه ولنحافة قوامها البض وملمسها اللين ... وأدبرت فى نفسها أمراً ، وعزمت عليه.. فتركت جند الشام ، وركبت البحر هى ومؤدبها "أبولودور" حتى وصلا الإسكندرية .. ولكن كيف لها أن تمثل بين يدى القيصر ..؟ .. فما كان منها إلا أن أمرت مؤدبها أن يحملها على كتفه بعد أن يلفها فى سجادة .. وتحت جنح الليل وكأنه يحمل متاعاً ودخل على القيصر وأنزل السجادة المهداة إليه وكأنه تاجر قام يعرض بضاعته فوثبت من داخلها شابة دقيقة القوام كالدمية الحلوة ، ولها أنف يونانى ، وبشرة بيضاء لوحتها شمس الشرق وثغر بديع التكوين ، وعينان واسعتان ، وخد وذقن كاملا الاستدارة .. ولم ترتبك الفتاة ولم تعتذر عما اقترفت يداها فى حق القيصر .. وانفجرت ضاحكة .. فتفجرت مع ضحكتها مغاليق قلبه .. وجلسا ولم يفيقا إلا على صوت العصافير تبارك صباح يوم جديد .. فلقد جلست تحكى له قضيتها .. وخروجها المهين هاربة من أرضها ووطنها وعرشها .. هائمة على وجهها فى عتمة الغربة .. وكانت تحكى وتتفنن فى الحكى وهو مأخوذ بسحرها الأسطورى .. فلقد كان صوتها فتنة تسحق ما أمامها .. وتتميز نبراته بالعذوبة والعمق وقوة الجاذبية .. وبالثقافة والدعابة .. وأصبحت هى السيدة .. والقيصر العبد .. وكانت حتى تلك الليله مازال يطلق عليها الزوجة العذراء .. ولم يرتفع ستار الليل .. إلا وقد أخذت كليوبترا من قيصر وعداً برد

عرشها .. وأرسل فى طلب أخيها بطليموس الذى صعقه وجود أخته .. ووبخه القيصر فما كان منه إلا أن ألقى بالشعار الملكى على الأرض وخرّج يبكى كالأطفال ..

وقضى قيصر بأن يشترك الشاب والفتاة فى الحكم .. وهكذا تحقق لهـا مـا أرادت وأصبحت هى الملكة .. وينضوى أخوها تحت إبطيها ..

أما القيصر فكان يكبرها بسـنوات طوال .. ولكنه رجل عـارم الجنـس .. قـوى الرغبة .. أفسد على أصدقائه زوجاتهم وبناتهم .. ولم يراعى للأقـارب حرمة .. وكـان فى حبه مراهقًا نزقًا .. مشبوب العاطفة .. وكان لكليوباترا أول حب .. وأول رجل قـوى تلتقى به .. ورأى فيها القيصر الشباب والحيوية والجـاذبية .. وطعـم منهـا الصيـد والإغراء وما بين شبابها وإغرائها .. وبين قوته ومثاليته بملامح وجهه الدقيقة .. وقامتـه الرياضية الرشيقة ، ومغامراته العسكرية العاطفية .. كانا مادة ثرية للمؤرخين .. وخيـال محلق فى سماء الشعراء والأدباء ..

وبينما كان بطليموس الصغير يتعثر وراء الستارة .. كان فى الجانب الآخـر مـن القصر قيصر وكليوباترا يترعان من كأس الحب والجوى حتى الثمالة .. هذا بالرغم مـن أنها مازالت زوجة لأخيها ، التى لم تنم فى مخدعه ولو مرة واحدة .. ولم تعـترف فـى أعماقها بأدنى اهتمام به أو له ..

وكما للحب من مقدمات .. لم يكن لحبهما مقدمات .. وكما له غالبًا مـن نتـائج ... كانت ثمرة الحب تلعب فى أحشاء كليوباترا ..

ووضعت كليوباترا غلامًا ، ودعته قيصرون ، وخلعت عليه كل ألقـاب الفراعنـة آلهة مصر .. وعواهل روما وحكامها .. ، وأشاعت أن قيصر هو إله مصر الأكبر الـذى أتى إلى العالم ، وأن الطفل المنتظر هو ثمرة ذلك الاتحاد الالهى ..

وأبحر قيصر إلى روما فى زفة المنتصر الظافر ، وأقيمت أقواس النصر ، وشـيدت الاحتفـالات ، وكانت معه كليوباترا .. وبرغم الجمال والكبريـاء التى أخذ بها الشـعب. إلا أنه لم يعجـبه منها ذلك الجمال الرائع لا لشىء إلا عطفًا على " كليوبـاترا " زوجـة قيصر .. ولم يهتم قيصر ، وأقام لابنه بطليموس قصرًا على نهر " التـبر " لتقيـم فيـه كليوباترا .. وأقام لها هيكلاً ممثلا فيه صورة الزهرة إلهة الجمال والحب .. وعزم علـى الزواج .. ولم ينظر مجلس الشيوخ لهذا الزواج بعين الرضا .. إلا أنه فكر فـى تعديـل

قوانين روما ليبيح للرجل أن يعدد زوجاته . ما دام لا عقب له ... ولقد كان فاعلاً .. وكاد قيصرون أن يصبح يومئذ وارثه على عرش روما ... ويتغير وجه التاريخ .. وتبقى مصر مقراً للحضارة كما كانت .. لولا أن دبرت مؤامرة لقيصر وقتله أصحابه يوم عيد المريخ فى العام الرابع والأربعين قبل الميلاد .. واقتتل أصدقاء قيصر وقتلته ، وانتصر أصدقاؤه وكان قائدهم انطونيو ... وكان من نصيبه مصر والشرق ، وكان مغرما بكليوباترا منذ كان يزرو قيصر فى روما .. وأرسل فى طلبها .. واختلقت الأعذار .. لقد أمست امرأة ناضجة تشيع فيها جرأة أسرتها .. وتملك بين يديها أملاً اسمه قيصرون .. ومن هنا تطلعت إلى قلب مارك أنطونيو ، والذى كان قد ملك قلوب جنوده .. وأرسل فى طلبها بحجة مناقشتها الحساب فى عونها لخصمه بروتس الذى قد انتحر بعد هزيمته .. وأنطونيو رجل طويل القامة .. قوى البنية .. متين العضلات .. كثيف الشعر طويل حتى كان يطوق به رأسه ..

وكليوباترا جميلة رائعة ، وأنطونيو قويًا نبيلاً ، كانت ملكة وهو قائد .. تسيطر على الناس بجمالها ، ويقودهم هو بلسانه وحلو حديثه .. وكانت عاشقة محبوبة .. ولم يترك هو امرأة واحدة إلا وتعلق بها .. هى تشرب بحياء .. وهو يشرب بإسراف .. ولبت دعوته .. ووصلت فى فلكها إلى طرطوس .. وأرسل يدعوها للعشاء .. فأرسلت تدعوه أن يأتى هو ، ولم يغضب ولم يرفض .. بل أسرع ، وقضى شطرى الليل عندها وبينما الفلك تنزلق على وجه الماء ، والشمس تميل للغروب .. وأشعتها الذهبية تنعكس فوق المجاديف الفضية .. وحيث الرجال يقفون فى مؤخرة السفينة تحت سقف على شكل رأس فيل من الذهب اللامع يرفع خرطومه إلى أعلى .. وحولهم عدد من الحوريات فى زى جنيات البحر .. وعلى القرب جوقة الموسيقى يلعبون بالأوتار .... وينفخون فى المزمار .. وأين كليوباترا .. ؟ كانت فى زى فينوس الفضفاض ، ومن حولها أطفال فى زى كيوبيد يقفون إلى جانبى وسادتها ممسكين بمراوح من ريش النعام الملون .. وترسل مباخرها العطر .. فيتضوع الشاطئ بعبيره .. وتستقر السفينة ، ويصعد أنطونيو ، ومعه قواد المدينة وعظمائها ... وفى قائمة العشاء كانت الصحون من الذهب الخالص .. والحوائط تغطيها الزهور .. والموسيقى تلعب بالخيال ..

ونسى أنطونيو الحساب والعقاب .. ونسى روما وقواده وجيوشه .. نسى كل شىء ماعدا كليوباترا .. وأرادت أن تخضعه أكثر فدفعته فى الليلة التالية إلى وليمة أخرى .. دعت معه الأمراء وأرباب الدولة .. وما كان أشد دهشتهم حين وجدوا الليل ينقلب فى ذلك

القصر نهاراً .. وما بين روائح الطعام وأنغام الموسيقى التى تطير على جناحين من العطر والزهر، وتمتزج مع أنغام أجسام الراقصات .. فيحيط بالسحر والفتنه والجمال .. يحيط كل هذا بكليوباترا ..

ودعاها أنطونيو إلى قصره وأراد أن يجاريها فى بذخها فلم يستطيع واعترف بعجزه .. ودعته مرة ثالثة وراهنها .. فكسبته .. ولم يستطع أن يفارقها فترك ما ورائه ورافقها إلى مصر ..

لم يكن أنطونيو كقيصر مهذبًا رقيقًا .. مثقفًا عالمًا باللغات والأدب .. بل كان جنديًا خشنًا فج التفكير ، وما قربه إلى الجنود إلا سهولة فى عبارته ، ومشاركتهم فى لهوهم ولم يطب له حب إلا من الأبواب الخلفية .. كان يضاجع الجميلات بين الجنود .. والخادمات فى إسطبل الخيل .. ، ويقفز للمرأة من الشباك ويعود من الباب .. وكان من أسباب فخره أنه أعقب من الأولاد حينما ذهب مالا عدد له .. حتى يقول لجنوده :

" أينما تذهبون يقابلكم أبنائى .... " حتى قيل إنه لم يكن فى أنحاء روما من أحياء الدعارة أو بغية من بغاياها إلا ويعرفه أو تعرفه .

وأحب أنطونيو كليوباترا بهذه الروح الحيوانية الملتهبة والمتأججة .. فألفت فيه قوة الشهوة .. وضعف العاطفة الإنسانية .. فأنفت ذلك فى أول الأمر ولكنها بعد ذلك لم تعد تطيق فراقه حتى فى جولاته فى أحياء الدعارة واللهو ..

وحملت كليوباترا .. ورأت فى الحمل رباط .. ورأى أنطونيو فيه قيود بعد أن ثقلت حركتها ، وخمد شعاع روحها .. ففكر فى العودة إلى روما ليصالح أكتاف ابن عمه وأخته .. وأيضاً زوجته فلفيا وليستعدى بأكتاف على أهل فينيقيا والشام اللذين انتفضواعلى روما وخلعوا نيرها ..

وفى اليونان قابل زوجته ، وأنزل عليها من سخطه ، ما كسر قلبها فماتت قبل أن يصل إلى روما .. فأصلح ذلك ما بينه وبين أكتاف .. وتزوج أخته اكتافيا .. وأنجبت اكتافيا ولدين شغلت بهما عنه ، ولم تعد تعير مجده وعظمته أدنى اهتمام كالذى كانت تبديه كليوباترا .. إذا كانت تدعوه .. " حبيبى أنطونيو الأكبر " وأصبحت كليوباترا شغله وذكره ..

وفى الاتجاه الآخر أنجبت كليوباترا توأم فسميت الأول بالشمس والثانى بالقمر ، وحزنت لزواج أنطونيو ، وما قد يؤدى ذلك على القضاء على آمالها فى قيام قيصرون

مقام أبيه ، وغادرت الإسكندرية إلى دندرة وشغلت نفسها بالعبادة وبناء قبرها ، ولما وصل أنطونيو إلى أنطاكية بعث إليها برسول يستقدمها إليه ..

ويل له من جرىء .. أيظن أن ملكة الملوك تطير إليه بعد أن نسيته ؟ ... هل من الممكن أن تعود بعد أن أبغضته ؟ هل ممكن هذا ؟ .. وبعد أن هجرها إلى امرأة أخرى غيرها ؟ .. لا .. ؟ لكن تضاءل كل هذا أمام دعوته .. وأمام طموحاتها فقامت تعد العدة للذهاب ، واجتازت البحر لائمة عاتبة .. وكفاها أن قسم لها بأن قلبه لم يعرف غيرها ؟ ولم يتعلق بسواها ... وعقد عليها وكتب لها ثلاث ولايات وخرج لمحاربة أعداء روما فيما وراء الفرات .. لكنه عاد محطم النفس ، مكسر الجيوش ، وأرسلت له زوجته اكتافيا مدداً لتساعده فرفض ذلك ، ورجعت آسفة مقهورة إلى المدينة الخالدة ذات التلال السبعة ، وأمدته كليوباترا بالجنود والعتاد .. وعاد ليحارب أعداءه فانتصر عليهم ، وبدلاً من أن يحتفل بانتصاره فى روما ذهب ليحتفل به فى الإسكندرية .. وجعل منها بذلك عاصمة تناطح روما ..

ولكن .. كله إلا هذا .. ولم يطق الرومان .. فأثار اكتاف الشعب .. وابتهجت كليوباترا لذلك .. وسيرت جيشاً مصرياً إلى روما وانتظرت ماستسفر عنه الحوادث فقد تهزم اكتاف ، وتجلس قيصرون على عرش أبيه القيصر .. ورأت خلال المعركة كيف أصبح حلمها سراب ؟ .. وتلاشت الآمال وأمرت رجالها بالعودة .. ولم تنل الهزيمة من عزيمة كليوباترا فقامت بنقل أسطولها من البحر المتوسط للبحر الأحمر لتغزو الهند .. ولكن " هيرود " عدوها اللدود وحاكم سوريا قتل رجالها وحرق سفنها ، وهنا تبخرت كل آمالها الإمبراطورية وأوقفت وقتها وجهدها للدفاع عن مصر ..

أما أنطونيوا فغرق فى الشراب أملاً فى أن ينسى هم انكساره ، وظل فى غرقه حتى علم أن اكتاف أتى عن طريق سوريا لغزو مصر .. وكان أكبر همه أن يطفئ حياة ابن قيصر روما لشديد الشبه بينه وبين أبيه ، وقام أنطونيو على قيادة جيوش مصر .. ولكن لا تاتى المصائب فرادى .. فلقد هزم أنطونيو وعاد إلى قصر كليوباترا .. وأمر أحد عبيده أن يقتله .. فأمسك العبد بالخنجر ، وتظاهر بطعن سيده ثم طعن نفسه فهوى.. فأصغر ذلك فى عين أنطونيو فقتل نفسه .. وقضى نحبه على زراعى حبيبته الفاتنة وبكته أشد البكاء ، ثم دفنته فى القبر الذى شيدته لنفسها وقت أن هجرها ..

ودخل اكتاف الإسكندرية وهدفه حياة انطونيو .. حياة ابن عمه .. ، وحاولت كليوباترا أن تلعب معه دور الفتنة والجمال .. ودائماً نجح هذا الدور من قبل لكنه لم

ينجح مع اكتاف .. ففى سبيل أبنائها وفى سبيل ملك قيصرون لم تكن تعبأ بشىء أو تتورع عن شىء .. وبرغم حزنها على عزيز ذهب ، وملك سلب ، ومستقبل غريب ضيعته ، وجزعها على أبنائها إلا أن أكتاف ظفر منها بساعات حديث شهى ، ولقد بيت لها أمراً.. ؟ لقد عزم على أن يأخذها معه إلى روما لتسير فى حفلات نصره وليرضى بذلك رغبة انتقامه وانتقام أخته .. وليقدم لشعبه منظراً تبتهج له القلوب .. منظر ذل العزيز ... !

وعلمت كليوباترا بذلك .. وثارت وثار فى عروقها كل دماء البطالسة ، وكل دماء الفراعنة العظام .. وقدرت لها أمراً ورسمت مصيرها ، وأوصت خادمها لأن يحضر لها ثعباناً فى فاكهة إفطارها .. ، وجاءت الفاكهة ، ونزعت النبت واحدة بعد واحدة ، ثم أمسكت بالثعبان فوضعت فمه فى ثديها ليبعث إليها الموت من خلاله ، وكم بعث هذا الثدى فى الدنيا الحياة ... !

وحلتاها خادمتاها إيراس وشارمتون بكل حلى ملكها الذى تحطم ، والتى حاربت حتى المقادير فى سبيل عزه .. ثم شاركتاها نفس المصير ..

وانتحر أنطونيو وخادمه ..

وانتحرت كليوباترا وخادمتيها .

وانتحروا جميعاً فى سبيل العزة والكرامة والوفاء ..

☹ ☹ ☹

ألفيس بريسلي

ألفيس بريسلي

فى يوم وفاته طليت سيارته بأحمر شفاه العاشقات .. وطبعت على صدورهن الحروف الأولى من اسمه بأسياخ الحديد المحمية .. فى هذا اليوم عندما وجد الرجل منتحراً فى مساء الثلاثاء ١٦ أغسطس ١٩٧٧ اتحدت كل موجات العالم ولأول مرة لتنعى للعالم خبر وفاته .. ، وصدرت كل الصفحات الأولى لجرائد أوربا وأمريكا لتقول " العالم حزين جداً " .. ولتنعى للعالم خبر وفاة الملك .

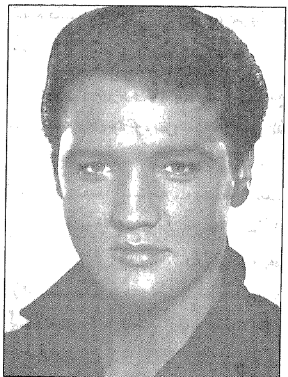
هذا الرجل هو ألفيس بريسلى ملك الروك أند رول الذى تمتع بالشهرة والوسامة وحب الجماهير ، وكان يملك سيارة رولزرويس بمقابض من الذهب الخالص ويعيش فى قصر فاخر ، ورصيده فى البنك عشرات الملايين من الدولارات ، ومئات الملايين من المعجبين الذين يقبلون الأرض من تحت أقدامه ، ويحتفظوا بمياه حوض سباحته ، ويومها أغمى على الجميلات فى الشوارع .. وفى أمريكا طالب الشباب الرئيس كارتر بأن يعلن يوم وفاة بريسلى .. يوم حداد فى أمريكا .. ولأول مرة يظهر الرئيس الأمريكى على الشاشة لينعى البطل وقال" موت بريسلى جرد أمريكا من جزء من أبجديات اسمها .. فموسيقاه لونت أساليب الرجل الأبيض بإيقاع أسود ، الشىء الذى غير وجه الثقافة الشعبية فى الولايات المتحدة بشكل دائم .. لقد كان فريداً فى نوعه ، وخسارته لا تعوض " ..

لم يكن ألفيس بريسلى مغنياً فوق العادة وحسب ، فلقد أدخل هذا الفتى النحيف المنحدر من عائلة فقيرة جداً موسيقى الروك أند رول إلى كل البيوت من النوافذ ، والأبواب والشقوق .. من الراديو والتليفزيون ، والفونوغراف ، ووضع صورته وإمضاءاته على قمصان المراهقين ، وفساتين الصبايا .. وحقائب اليد والأحذية ، والبلوفرات ، والجدران .. وشغل غلاف طلبة الجامعات ، وسدت صوره نوافذ السيارات ، وأطلق عليه الملك ، ومعبود الجماهير ، وأصبح الفيس ماركة مسجلة تطير بها السلع وتخلو منها المحلات .

فمن هو ؟

لقد كان علامة بارزة للظاهرة الاجتماعية الجديدة والتى انتظمت العالم الغربى فى منتصف الخمسينيات .

وعندما اعتلت فرقة " البيتلز " خشبة المسرح كإحدى أبرز العلامات الاجتماعية والغنائية فى النصف الثانى من القرن العشرين .. كان ألفيس هو الذى وضع ختمه على جواز مرورهم إلى عالم الشهرة .. وظل اسمه نموذجًا حيًا للعلاقة الجدلية بين الفن والمجتمع ..



ألفيس بريسلى فى شبابه

فى الجنوب الأمريكى .. وبالضبط فى توبيلو على نهر المسيسبى يعيش فلاح فقير، وحائكة ملابس هى زوجته .. بين الفقر والصراع من أجل لقمة العيش.. لم تشغلهم أدنى اهتمامات أخرى إلا أن يعملوا طول النهار .. ويدخلا فى حضن مسكن قذر مع الظلام ليطفئا فيه مرارة الأيام القاسية .. وتمتلىء بطن الأم " جلاديس " وتضع طفلين يموت أحدهما ويعيش الآخر ، وكذلك الأم .. لقد أنقذت الأم وطفلها بأعجوبة .. فكان أقرب للموت منه للحياة ، ولكنها إرادة الله .. ويفرح الأب بنجاة الأم .. ويسمى الطفل ألفيس .

وفى يناير ١٩٥٣ لم تشهد طفولة هذا الفيس ما ينبئ عن مستقبل متميز إلا أنه كان كثير الهروب إلى الحى الزنجى المجاور .. وكان الزنوج يتغلبون على أحزانهم بالرقص والمزمار ، وابتدعوا موسيقى زنجية غجرية صاخبة .. كانت تجذب ألفيس حتى عشق هذا اللون من الموسيقى .. لكنه لم يمارسه .. حتى اشترى له والده فى سن الحادية عشرة قيثارة عوضًا عن الدراجة التى يحلم بها .. وبدأ يضرب عليها الأناشيد الدينية .

.. ومات والده وهو مازال صغيراً وكفلته أمه جلاديس حتى وافتها منيتها في عـــام ١٩٨٥ ، ومن مدينة توبيلو إلى مدينة ممفيس وكان ألفيس قد بلغ الثالثة عشرة للاقتصـــاد في المصاريف - وهناك عاشوا في منزل مكون من حجرتين .

وعلى ضفاف المسيسبي شب الصبي .. وبعد تخرجه من المدرسة الثانوية بدأ يعمل وعمره ١٨ سنة وتنقل بين المهن من عامل كهربائي .. لسمكري .. لســـائق شـاحنة .. وعشق مهنة السائق لكي ينفرد بنفسه .. وحيث الطريق الطويل يدندن ويغني ويصـــرخ .. وصار يغني في أوقات فراغه ، وفي بعض الدوائر الضيقة .

ومرة استرعى انتباه أحد عملاء شركات الاسطوانات بنكهة الصوت الزنجي .. وبعد ستة شهور أنتج له أغنية من نوع " البلوز " في راديو ممفيس المحلي .

وللمفاجأة الغير منتظرة .. باعت الأغنية خمسة آلاف إسطوانة مسجلة بذلــك رقمًـا قياسيًا في سوق الإسطوانات المحلية .

وبسرعة خرافية أصبح سائق الشاحنات مغنيًا ، ونجمًا واسع الانتشار مألوفًا ومحبوبًا من برامج الإذاعات الإقليمية .. وإن لم يزل في الثانية والعشرين عمره .

هذا في وقت يشتعل العـــالم بحرب عـــالمية مدمرة خرج المهزوم منهـــا يجرجـــر أذيال هزيمته .. ويلملم جراحه .

وبعد الضياع الذي انتاب شباب العالم.. وحيث الشك يسكن الجميـــع .. ومـــن هــذه النغمة السريعة التي تلت الحرب والتطور الرهيب .. والاختراعات التي تفتح العالم يومًـــا بعد يوم .. ومن بين المطربين والمغنيين القدامى أمثال " فرانك سيناترا " مطرب أمريكـــا المحـــافظ .. من كل هذا كان شعور الشباب بالملل وشعورهم بالحياة الفـــاترة لا لـــون لا طعم لا رائحة .. ولذا عندما اعتلى ألفيس خشـــبة المسرح في ذات ليلة من ليـــالي شـــهر يناير ١٩٥٦ ، وضمن حفلة من حفلات الهواة .. وأمام شاشة التليفزيون الأمريكي يقـــف ألفيس ولأول مرة ليقدم إحدى اغنياته.. وبعد بضع ضربات قوية علـــى أوتـــار جيتـــاره الكهربائي .. أخذ ألفيس يصرخ ويعصر بطنه .. ويهز خاصرته .. ويأتي من الحركـــات مالم يشاهده جمهور التليفزيون من قبل .. حتى أن التليفزيون اضطر إلى إخفـــاء نصفـــه التحتي واكتفى بتركيز الكاميرا على وجهه .. أخذ بريسلي يفعل كل هذا وهو يقول " توني فروت ، أول روت ، توني فروتي ، أول روتي " .

في هذه الليلة ولد الفيس بريسلي .. وولد معه نوع جديد جدًا من موسيقى " الروك أند رول" وعشقته آلاف الصبايا ، وظل نجمه في صعود حتى عام ١٩٥٨ حين استدعى لأداء الخدمة العسكرية ..

فى هذه المرحلة العصيبة التى ظهرت فيها جماعات الهيبز والخنافس والصرعات التى تصيب المجتمع من وقت لآخر .. وكان لألفيس سحر خاص على الفتيات اللائى وجدن فى صوته وأغنياته دعوة للتحرر والصراخ .. بهيستريا ليست فقط طربًا ولكن احتجاجًا على مجتمع أراد لهن الصمت والسكوت .. فكان هذا الصوت .. وذلك النغم يعبر عما بداخل النفوس المكبوتة من انفعالات .. تريد أن تجد لنفسها مخرجًا .. فبعد الحرب وبعد الوعود المكذوبة .. والشعارات الضالة عن مجتمع أمريكى ينعم بالرخاء والرفاهية والديمقراطية التى تعيد للانسان حقه وكرامته ..

وبعد آمال أصبحت سراب لشباب يحترق لحياة أفضل .. وبعد أن كبر الحلم فى جنة أمريكا .. أضحوا ولم يجدوا بعد الحرب إلا جهنم مستعرة .. تغيرت الأخلاق وتحولت الرومانسية لحياة رعاة البقر .. وإلى آليه البارونات وتجار الحرب .. وذهبت الإنسانية أدراج الشعارات التى تسقط كما تسقط أوراق الشجر فى الخريف .

وكانت الصدمة عنيفة .

وكان رد فعلها أعنف .

وتمثل فى الضمائر شعور عام بالرفض .

وما بين رفض الشباب لواقعه .. وبين بحثه عن نموذج يمثل جيل الآباء وجيل تمثال الحرية ظهرت كثير من النعرات المتطرفة . والمثل الجديد للشباب .. وظهر " جيمس دين " على الشاشة لكنه اختفى سريعًا .. لقد مات .. ولم يكن " مارلون براندو " ظهر من خلف التلال بعد.. وكان صوت وأنغام وحركات ألفيس بريسلى .. فموسيقى بريسلى خليط من موسيقى الرجل الأبيض الهادئة الطويلة .. وموسيقى الزنوج القادمة من أدغال أفريقيا حيث لا وسيلة .. حيث الشمس حارقة .. والخضرة نارية .. فمن هذا المخلوط كانت طريقة ألفيس بريسلى الهيستيرية فى الغناء .. وكانت حركاته وردائه المبتكر ، وعالم ألفيس المبتكر الذى يقوض بدوره كل ماهو قائم ومألوف .. ومعه كان الصبيه " تين أيجرز " وكانوا ثورة صوتية ونغمة تهز كيان أمريكا .

" وعندما غنى بريسلى فى T.V لثانى مرة " شايك روك أند رول " اهتزت وتأرجحت وتموجت أجساد الصبايا .. وثار الآباء ، وعلقت النيويورك تايمز إلى جانب المحافظين قائلة :

" قدم لنا التليفزيون مغنيًا طويل السوالف يدلق لسانه خارج فمه ، ويهز خاصريه وينطق بكلمات غير مفهومة ، ويؤدى ألحانًا غير متناسقة وعلى التليفزيون أن يراعى أن مغنيًا مثل هذا سوف يؤثر على المراهقين وأنه ظاهرة لن تدوم " .

ولكن استمر بريسلى ، وأخرج الكثيرين من حلبة الغناء ، وفاق فرانك سيناترا سيد الغناء الأمريكى المحافظ ونحاه جانبًا .

ومن ١٩٥٦ وحتى ١٩٥٨ انفرد ألفيس بحلبة الغناء ، وتربع على عرشها وأصبح وحيد زمانه .. وأخذ نجمه يلمع .. ويلمع ، وإسطواناته تباع بالملايين وأفلامه تدر أعلى الإيرادات .. وارتفعت مبيعات الجيتار فى العالم ووصلت إلى أرقام خيالية .

بريسلى والعاشقات :

فى تحقيق قامت به مجلة " أل " الفرنسية إثر وفاة بريسلى قالت إحدى الفتيات : أحببت بريسلى وعمرى ١٣ سنة وأبلغ من العمر ٣٣ سنة ومازلت مهووسة به .. فهو معبودى .. إننى اشترى إسطواناته بنفس اللهفة التى كنت أشتريها بها وعمرى ١٣ سنة .

وتقول صحف الإثارة الأوربية إنه فى إحدى الاستفتاءات طرح سؤال على ملايين الفتيات الأوروبيات والأمريكيات والسؤال يقول :

- إذا طلب منك أن تختارى العمل الذى تفضلين ماذا يكون اختيارك الأول ؟
- وكانت إجابة هذه الملايين من الفتيات : سكرتيرة خاصة لألفيس بريسلى .
- وحول هوس الفتيات بألفيس بريسلى تحكى هذه الصحف الكثير من الحكايات التى لاتحصى .. حكاية أغرب من الخيال تقول :

أحد رؤساء المافيا الخطرين حاول القضاء على الفيس بريسلى والسبب : أن ابنته وهى فتاة لا تتجاوز الثالثة عشرة من عمرها حاولت الانتحار بابتلاع جرعة زائدة من الأقراص المنومة .. وبعد أن استطاع الطبيب إنقاذها أخذت تهزى .. وتقول : أحب ألفيس بريسلى ولكنه لن يتزوجنى .

- وتقول حكاية أخرى .. إنه فى إحدى الحفلات الغنائية لألفيس بريسلى أرادت إحدى الشقراوات أن تلفت نظره .. فما كان منها إلا أن تجردت من كل ملابسها الخارجية والداخلية .
- وأنه فى إحدى الحفلات التى أقيمت بمدينة " سان انطونيس " بولاية تكساس صنعت الفتيات من أجسادهن هرما للوصول إلى نافذة حجرته بالدور الثانى .

وكن يقبلن الأرض التى يمشى عليها .. ويحتفظن بمياه حوض السباحة الخاص بقصره .. ويصبغن سيارته بأحمر شفاههن ، ويرتمين أمام العربة أيًا كانت سرعتها .. وبل أخذن يطبعن على أجسادهن بالأسياخ المحمية الحرفين الأولين من اسمه " أ . ب " .

- ويعبر حراسه عن هذا الهوس ، بأن حماية بريسلى من أشق وأخطر المهام التى عرفوها فى حياتهم .
- ونجح بريسلى وتعاظمت ثروته حتى تعدت المائة مليون دولار عند رحيله .

بريسلى ماركة مسجلة

وأصبح بريسلى ماركة مسجلة تكسب السلعة أينما وضع اسمه عليها .. وتزداد المبيعات من ماركته .. ولم تترك الشركات الأمريكية ظاهرة بريسلى تمردون اقتناص الفرصة .. فكانت تسريحة بريسلى ، وأحمر شفاه بريسلى ، وبنطلون جينز بريسلى ، وبلوزات بريسلى ، وحتى ملابس داخلية باسم بريسلى .

- وكذلك الأفلام فكانت ٣٣ فيلماً بطلها بريسلى .. وانتشرت أيضًا نوادى بريسلى .. فضم نادى بريسلى بالولايات المتحدة ٤٠٠ ألف عضو ، ونادى بريسلى بلندن ٢٠٠٠ عضو ...
- وعشرات ومئات المشروعات التجارية .. عالم من المال وجد ونما وترعرع وكسب الملايين باسم بريسلى .
- وفى الفترة ما بين ٥٦ - ١٩٧٠ مثل بريسلى ٣٢ فيلماً وصفها النقاد بأن منها ثلاثين فيلمًا من الدرجة الثانية .. وكانوا على حق .. فشركات السينما كانت تعلم أن أفلامه بغض النظر عن مضمونها ، وقيمتها الجمالية عبارة عن ضربات مالية كبرى لأن جمهور الشباب لا يهمه من الفيلم غير ألفيس نفسه ..
- ولكن هل استراح الملك بعد كل هذا الاسم العريض والمجد العظيم والشهرة التى تطبق بالآفاق .. ؟ هل نام قرير العين ، مرتاح البال .. هانئ الضمير بما وصل إليه ؟ .

أبدًا لم يهنأ بريسلى بالشهرة والاسم ..

كانت أمنيته أن يعيش كانسان نكرة صغير بين أهله .. وكأى صعلوك لا يجد لقمة عشائه .. بل كان يحسد الناس العاديين لأنهم يفعلوا ما يريدون بدون مشورة من أحد ، وبدون تخطيط مسبق ، وبكامل إرادتهم ودون نصائح من أحد ..

فلقد أصبحت شهرة ألفيس بريسلى عبئًا على حريته الشخصية .. فمجرد الخروج من مزرعته ، والعودة إليها كان يجب أن يخطط له وكأنه عملية حربية .. ولم يكن في استطاعته الظهور نهارًا أمام الناس .. فكان كالخفاش يتحرك ليلاً ويسكن نهارًا .. وعندما ضيق عليه المعجبون الخناق اتخذ بطانة من الحراس اشتهرت باسم " مافيا ممفيس " .



ألفيس بريسلى مع نيكسون رئيس الولايات المتحدة

☹ ☹ ☹

بريسلى الشاب الطيب

كان ألفيس طيب بطبيعته .. داخله حزين ، وأراد أن يرسم على شفاه الحزنى بسمة ليبتسم معهم ، ولم يرد يوما أن يتقوقع داخل حزنه ، ويكون حوله شرنقة من اليأس والهموم .. وانطلق يعمل ، وأصبح كالنار على علم .. على كل لسان وفى كل العيون ، وتحت المسام .. وأمل الحالمين ، ولم تجرفه الشهرة ، ولم تغره كل هذه المغريات .. فكان يقنع بالقليل .. وأمه هي كل ماله بعد وفاة أبيه .. بالرغم من بحيرة الضوء الذى غرق فيها فلقد أصبح أشد وفاءاً لأمه .. فكلما اشتدت شهرته .. يكن لها المزيد من الوفاء والود الخالص .. كان يشترى من كل المال الذى ينهمر عليه سترة أو اثنتين ويعطيها الباقى – ووقع في عام

١٩٥٥ عقداً مع شركة " آر . سى . آى " بخمسين ألف دولار ، وهى كبرى الشركات الأمريكية للإسطوانات .. فما كان منه إلا أن ذهب لأمه فى البيت ودخل عليها ليقبل يديها ، ويلثم جبهتها .. وبكل تواضع الابن الوفى يقبع على الأرض بين ركبتيها ويضع بين يديها مفاتيح سيارة " كاديلاك " .

☹ ☹ ☹

الفيس .. شيطان يعيش على الأرض

وذات يوم عاد لسيارته فى الشارع و يقترب أكثر.. لكنه يتوقف .. لقد كانت هناك فتاة جميلة تدور حول السيارة.. وتتطلع إليها ، وقد فتحت فمها فى حسرة وإعجاب ، وانتظر.. وهى فى دهشتها تدور عدة مرات وتركها وكأنها فى حلم وفجأة استيقظت من حلمها .. وتلفتت حولها ورأت رجلاً غريباً أمامها .

فتراجعت إلى الوراء وهى تقول : (لا تؤاخذنى .. لقد كنت أحلم ..) فسألها : وبماذا كنت تحلمين ؟

أجابت : أحلم بيوم أمتلك فيه سيارة فى أناقة سيارتك ؟ وبتنهيدة و لا مبالاة تكمل .. هيه – ولكن يجب أن أنتظر طويلاً .. فلقد قرأت فى الصحف أن ثمن مثل هذه السيارة شىء لا يطاق .

بعصبية وضعف المغلوب ترد : لا تسخر منى فمن حقى أن أحلم بالمستحيل لعله يكون صعباً ثم يصبح ممكناً .. فإن حجرت ذلك عن ملكيتى فلن تستطيع أن تحجر على أحلامى ..

وصحبها إلى محل بيع الكاديلاك وقال لها اختارى السيارة التى تعجبك .. وترددت الفتاة .. وقالت وهى مازلت فى دهشتها : ولكنك لا تعرفنى .. بالله عليك من أنت .. ؟

ويرد : رجل سعيد .. قرر أن يحتفل بسعادته بإسعاد شخص آخر .. وأنت هذا الشخص .

قالت له : لا أصدق .. هل أنت ملاك نزل من السماء ؟

أجاب : بل شيطان على الأرض .

ألم ترى وجهى قبل الآن ؟ .

قالت : كلا ؟

قال لها : ألم ترى وجهًا يشبه وجهى على شاشة التليفزيون ؟

أجابت : إننا لا نملك مثل هذا الجهاز .

سألها : هل تترددين على السينما ؟

أجابت : كلا .. ضيق ذات اليد والعمل .. وفوق ذلك أصاب بالصداع فى الزحام فأفضل ألا أذهب .

سألها : هل سمعت باسم – ألفيس بريسلى ؟

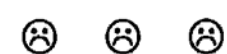
أجابت : نعم إن صوته يسحرنى .

قال لها : أنا صاحب هذا الصوت .

ودفع ثمن السيارة الكاديلاك .. وأعطاها شيكًا لتشترى بعض الفساتين .. وانصرف وهو يقول :

والآن عودى لأحلامك .

ويبقى الفتى الطيب المولع بشراء السيارات الفخمة وإهدائها بالجملة .. وبقى يعيش مع أهله ويلعب البلياردو مع أصدقائه ، ويذهب إلى السينما مع أمه ويمضى الوقت فى تعلم لعبة الكاراتيه مع صديقه – مايك ستون " مدرب الكاراتيه المعروف " .



المرأة فى حياة ألفيس بريسلى

ألفيس ساحر النساء ، ومعبود الجماهير.. عشقته الصبايا على البعد وحلمن به فى خدرهن حبيباً فى الفراش وبين الأحضان.. معبوداً على الغيب يتمتموا بذكره ، ومؤمنين بقوة سحره .. يسجدون لغنائه ، ويركعون لضربات جيتاره .. ويصمتون عندما يغنى .. كان حبه زرعاً فى أرض الصبايا البكر .. صورته على الحائط فى كل مكان .. وخياله فى الأحلام .. وعشقه فى القلوب .. أحب أمه كما لم يحب امرأة من النساء – وعشق الكثيرات وتحطمت قلوب العذارى على أمل نظرة لم تتم .

وفى عام ١٩٥٨ ذهب ألفيس لأداء الخدمة العسكرية ، وهو الفتى الذى يملأ القلوب ، والعيون والحوائط .. وهنا ظن الكثيرون أن الأسطورة قد انتهت .. وهدأت قلوب الآباء .. واستراح بال الأمهات على بناتهن .. وانتهت الخدمة .. بعدما طال به الضيق واشتد التبرم على وجه ملك الروك أند رول .. لقد كانت الحياة العسكرية قيداً فى قدم الطائر المنطلق .. وقفصاً يحد من تحليقه .. تبرم بالقيود والسلاسل .. وضاق بالجنود والضباط الذين يراقبون حركاته باهتمام زائد .. وفى كل طابور يذكرونه بأنه فى المعسكر لا على خشبة المسرح .. وهناك فرض عليه أن يحمل ملعقته فى حزامه .. وينظف صينية طعامه .. الذى كان يعف لكلابه أن تأكل منها .. وعندما طلبوا منه أن يرتب سريره ، ويسويه كل صباح أثار هذا حفيظته وقال " إن هذا من عمل الجيش النسائى ويكفينى أننى أرتدى حزاماً وزنه خمسة كيلو .. وأحزمة أضطر إلى وضعها حول رقبتى من كثرتها " ..

وانتهت الخدمة ..

وعاد إلى الحياة المدنية .. واستقبله المغنى فرانك سيناترا فى برنامج تليفزيونى خاص بعنوان " مرحبا ألفيس " استلم عن ظهوره فيه شيكًا بمبلغ ١٢٥ ألف دولار ..

وعلى مسرح " ماديسون سكوير جاردن " بمدينة نيويورك أذهلته المفاجأة.. لقد كان فى انتظاره ٦٠٠ ألف شخص كلهم من الشباب .. ومن ولايات كثيرة بالولايات المتحدة .. أتوا ليستقبلوا ألفيس ويحتفلوا بعودته .. وليسمعوه بعد غيبة ، ويرقصوا على ضربات جيتاره المتشنجة .. وتصفق الأيدى ويهتز خصر الحفل كله .. وتتدحرج البنات .. وثبت بذلك أن ملك الروك أند رول ما زال ملكًا متوجاً ومازالت إسطواناته تباع بالملايين .. واستيقظ قلق الآباء من جديد .

وبدا واضحاً التغيير الذى أعقب الخدمة العسكرية فزادته الخشونة جمالاً وأضفت على حركاته رونقًا جميلاً ولم يعد ملبسه كأى شيء .. فصار أكثر محافظة حتى فى

التسريحة ، واختفى مظهر " البلاى بوى الأمريكى " وصارت أغانيه أكثر ميلاً إلى الموسيقى التقليدية والدينية .. فكتب عنه أحد النقاد :

" استبدل ألفيس العسل الذى يجرى فى عروقه بدم بشرى عادى " .

واختفى مغنى الروك أند رول عن الظهور فى الأماكن العادية كلها فى الفترة مابين ١٩٦١ و ١٩٦٨ .. من أول هذا التاريخ كان قد سافر ليحيى بعض الحفلات فى ألمانيا.. والتقى بابنة ميجور فى سلاح الطيران الأمريكى وبعد قصة حب دامت سبع سنوات لفتاة عرفها وعمرها لا يتعدى الأربعة عشرة ربيعًا .. وعندما بلغت الواحدة والعشرين تزوجا ، وكان ألفيس فى الثانية والثلاثين من العمر ..

تزوج ألفيس " بريسلا " .. وقيل إنها كانت تملك كل شيء تمنته فى حياتها إلا ألفيس ، وعندما تزوجته اكتملت مجموعتها .. وتوقع كثير من النقاد والجمهور أن الفيس سيتبع نهجًا أكثر محافظة بعد هذا الزواج .. ويومها قال بريسلى " إننى أسعد إنسان على وجه الأرض " .

وفى فبراير من العام التالى ١٩٦٨ أنجبت له زوجته ابنتهما الوحيدة " ليزا " ولكن لم تلبث الخلافات الزوجية أن نشبت بين الزوجين " وتم الطلاق فى عام ١٩٧٣ .



بريسلا زوجة ألفيس بريسلى

ولكن هل كانت بريسلا هى الحب الوحيد فى حياته ؟

وهل استمر كل هذا الوقت .. ؟ .. ولماذا ؟ ..

وهو إنسان قد يستطيع الزواج حسبما أراد .. وبمن أراد .. فلم تستعص عليه رغبة .. ولم تمتنع عليه فتاة .. بل كانت الفتيات يأتين بالأعاجيب ليلتفت لهن بجانب وجهه .. أو يرسل لهن نظرة .. والحقيقة لقد كان فى حياة ألفيس حباً آخر لفنانة ، كانت تتمنى أن تعيش ولو لليلة واحدة فى أحضان ألفيس .. وكان ألفيس يتمنى ذلك .. ولكن لعنادهما .. عاندهما القدر .. كانت هى الممثلة " آن مرجريت " السويدية الأصل وهى التى وقعت فى غرام ألفيس ساعة أن رأته .

وتزوجت " آن " بمن لم تتمنى عندما تزوج ألفيس " بريسلا " .. كان زواجًا كرد فعل للرجل الذى أحبته وأخلصت له .. ولكنها كانت لا تريد أن تتجب .. ومازال حب ألفيس لـ " آن " لم تطفئه عواطف بريسلا الجميلة .. بل أشعلته نار الخلافات الزوجية وارتفعت ناره ولم تنطفئ بل زادت بالطلاق .. وانتظر ألفيس آن .. لعل المياه أن ترجع لمجراها .

ولقد كانت حياة ألفيس مليئة مزدحمه لم تتخللها دقيقة فراغ واحدة .. عمل بالليل .. ونوم بالنهار .. ويترك ألفيس بريسلا وحدها وترفض أن ترافقه فى جولاته الفنية فى الداخل أو الخارج إلا قليلا ... وكان هذا الوضع محل سخرية وازدراء أحيانًا .. بل لقد حاولت إحدى الصحف أن تصور هذا الوضع الظريف فقالت : بأن زوجته أرادت ذات يوم أن تجد فرصة لمناقشته فى أحد أمور حياتها فاضطرت لأن تذهب إليه فى المسرح .. وأن تقف فى طابور طويل من المعجبات .. حتى وصلت إليه أخيراً .. فما كان إلا أن قبلها والتفت إلى التى تقف خلفها ، ثم استدار إليها وسألها :

أظن أننى رأيتك قبل هذه المرة .. !

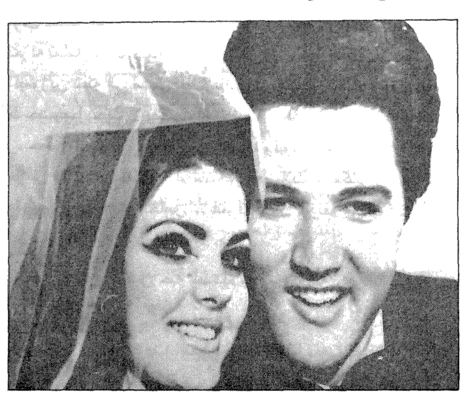
ولم تستطيع بريسلا أن تمارس حياتها الزوجية كأى زوجين يلمهما كوخ ، ويناما على الطوى برغم البريق الذى يلاحقها ، والذهب الذى تلمسه فى مقابض السيارة والأبواب ، والبحيرات المنزلية وحمامات السباحة .. والنادى الذى يشغله كل هذا البيت .. وقررت أن تملأ وقتها فسجلت نفسها فى إحدى نوادى الكاراتيه لعبة زوجها المفضلة .. شدها إلى ذلك صديق زوجها الصديق " مايك ستون " الذى كثيراً ماكان يستمع لشكواها

ويخفف عنها ، ويعزيها بأن الزوج الفنان ليس ملكًا لنفسه ، ولا ملكًا لها وحدها .. وهـــذا قدرها الذى يجب أن تتحمله فهى متزوجة ألفيس بريسلى الذى تحسب كل فتاة أنـــه فتاهـــا وصديقها .. وتظن كل امرأة أنه عشيقها ومحبوبها .

وعلى يد "مايك ستون " مدرب الكاراتيه العالمى المعروف والذى يبلغ مـــن العمـــر ثلاثين عاما .. بدأت تتلقى دروســـها .. فبرعت فى اللعبة ، وبرعت أيضـــا فـــى جـــذب مدربها .. وكثيرا ما لمهما مكان .. وجمعهما نادى ، وحجـــرات مقفولـــة .. واصطـــك الحجرين ، واشتعلت نار فى عيونهما .. والتقت اليدين ، فالشفتين ، فالتحمـــا الجســـدان ، وأصبحت العلاقة عاطفيه شـــديدة القوة .. وتطورت .. فبقـــدر اشـــتداد قـــوة الربـــاطين بريســـلا ومايك ستون – بقدر ما يوهن هذا الرباط بينها وبين ألفيس .. وانتهت العلاقـــة بالطلاق من بريسلى والزواج بمايك ستون .

وكانت الصدمة عنيفة قوية ..

ولم يحتملها ألفيس .. لقد كانت ضربة غير متوقعة .. إنها من حارسه وصديقه "مايك ستون " .. وفرض على نفسه العزلة ..



المغنى الأمريكى ألفيس بريسلى وعروسه بريســـلا

☹ ☹ ☹

بداية النهاية

ولأول مرة فشلت محاولات الرجل الذى حول خسارة ألفيس إلى نجاحاً ساحقاً.. فلقد فشل مدير أعماله " توم باركر " الذى التقى به وفتح له آفاقاً جديدة بدءً بتعليمه رقصته المشهورة أثناء غنائه ، ومروراً بتقديمه فى معامل الموسيقى مثل " نيويورك وناشفيل " .. ففى نيويورك قدمه " توم " فى ستة عروض تليفزيونة ، والذى سجل بعدها أولى إسطواناته الطويلة باسم " ألفيس بريسلى " والتى جعلته يتلقى حوالى ألف رسالة فى الأسبوع .. وحاول المستحيل ليخرجه من عزلته .. ولكنه عرف أن هذا كان بداية النهاية للأسطورة التى قل أن يجود الزمان بمثلها .

وعندما تم الطلاق بينهما فى أكتوبر ١٩٧٣ وتزوجت بريسلا من صديقه منذ ذلك التاريخ أمسى ألفيس أكثر اكتئاباً ، وانطواءً على نفسه وأصبح متوحداً يميل إلى العزلة ويعانى من جنون العظمة .. فلقد فقد الثقة فى كل شىء وكل شخص قريب منه .. حتى سجن نفسه داخل حجرات لا تحوى إلا الأثاث الثمين الفخم فى ولاية " جريسلاند " .

وإمعاناً فى عزلته ، وبعداً عن الناس ، وزهداً فى الشهرة استأجر دار عرض خاصة فى ولاية ممفيس تعمل خصيصاً من أجله فى الساعات التى يرغب فيها الترفيه عن نفسه .. وقل نشاطه الفنى .. عدا بعض الحفلات المتجولة التى كان يسبقها إعدادات رهيبة .. تعزله تماماً عن المجتمع .. فكان ينتقل إلى مكان الحفل بطائرة خاصة.. ومنها إلى سيارة ليموزين تنقله إلى مدخل خلفى لفندق من الفنادق الفاخرة .. ويصعد لحجرته بمصعد معد خصيصاً بحيث لا يضم أحداً غيره .. وهكذا ثم ينتقل بعد الحفلة بنفس الطريقة إلى المطار. حصار.. سجن .. ولكنه من ذهب ، وقيود ناعمة كالحرير.. وحياة لا يرى فيها إلا الحراس مشهرى بنادقهم – أم منتفخى العضلات .. مكشرين عن أنيابهم .. ابتعد عن الناس ، وعاش فى قمقمه الخاص .. فتقوقع داخل شرنقة من الاكتئاب والحزن .. ولكن ما الذى كان يأمله من هذه الحياة ؟ ..

كان ينتظر أن يعود لحضن حبه القديم بعد موت أمه .. وخيانة زوجته وغدر صديقه ..

لقد كان ينتظر " آن مرجريت " نعم فلم يزل القلب مفعماً بحبها .. والآن يريد لو يغسل كل أوزار الشهرة فى بحيرة الحب الصادق .. بعيدا عن آثام المال وبريقه ..

☹ ☹ ☹

ألفيس ... وآن

دخلت بثوبها الأبيض التقليدى الكنيسة عام ١٩٦٤ لتعلن زواجها إلى ألفيس بريسلى أمام الله والكاهن والجمهور .. كان شهوداً وعشقاً .. شعرت فيه برهبة الدور .. وأحست أن الزواج حقيقى .. بل وتمنت : لو أن الزواج حقيقى .. كانت تقول :

كنت أرجف والدموع تتحبس فى مقلتاى ، ولا أجرؤ على البكاء .. لقد تمنيت أن يكون الزواج حقيقاً ..

تلك هى كلمات " آن مرجريت " العروس والممثلة والعشيقة فى آن واحد .. تم هذا الزواج فى فيلم " فيفالاس فيجاس " ..

ولكن الممثلة السويدية الأصل أحست بأن كل شىء حقيقى شعرت وكأنها تتزوج ألفيس بالفعل .. لقد وقعت آن مرجريت فى غرام ألفيس عندما رأته .

ومن أوائل عام ١٩٦٤ انتشرت الشائعات عن الحب بين " آن وألفيس " .. ولم تكن شائعات وفرقعة .. لقد كان هذا صدى لحب حقيقى قوى .

وغرق الحبيبان معاً فى بحر من الحب ، والتفاهم الزوجى الذى كانت تنشده آن .. فلقد جمعهما العمل .. ولم الحب عاطفتهما ، وربطهما الموت ، والرقص والتمثيل .. المظهر واحد .. والطموح متفق وكلاهما محترم من الجميع وألفيس يملأ السماء والأرض .. ويشغل الناس .. وآن " آية فى الجمال " . ! فلم لا يتحابا .. ولا تدور حولهما الشائعات ؟ هل من مانع فى أن يقع ألفيس فى غرام " آن " ؟ .

أسئلة تطايرت فى سماء أمريكا وسقطت على الصفحات السوداء لتشتعل وتشعل من حولها المجتمع الأمريكى .. النشرات تخرج بأخبارهما حقيقة أو تلفيقاً والناس تستقبل كل شىء بنهم .. والمطابع لا تتوقف والجمهور يلتهم كل شىء ..

إلام سينتهى هذا الحب .. ويتوج هذا الثنائى النادر بالزواج ؟ ...

أسئلة تفرقع بلا أجوبة ..

ولكن شيئاً ما يوجد فيما بين الحبيبين ليمنع ارتباطهما .. ولكن بالرغم من هذا العناق الروحى بين الحبيبين فلقد خرجت الشائعات فى الاتجاه الآخر بأن الفيس يحب فتاة أخرى اسمها بريسلا ويعشقها إن لم يكن يعبدها . وأنه يتحين الفرص لرؤيتها .. ولكن الشائعات لا ترحم .. والحقيقة أيضاً لا ترحم .. فكثيراً ما قال المحيطون به إن ألفيس كان مولعاً "بآن " ، ولكنه كان ينساها عند وجود بريسلا .

وعندما بدأت الصحف والمجلات تكتب عنهما " آن وألفيس " .. ويلاحقه الصحفيون بأسئلة مهذبة .. وأسئلة محرجة ، وأخرى تخرج عن لياقة الأدب وحدوده .. وكان ألفيس يصرخ بأن " آن " فتاة جميلة ، وأنا أحب العمل معها .. هذا كل ما كان يقولـــه .. ومــن النادر أن يضيف شيئًا فوق ذلك .

ولكن الشائعات ازدادت بأن " آن " سلمت قلبها كله لألفيس .. ولم تستطع الفــراق .. إلى أن علمت أن لا أمل لها من هذا الحب .. فانسحبت من حلبة شعرت فيها أن الفـــارس فيها ليس فارســها ، وأنها لو دخلت الحلبة أو وافقت وراهنــت ســيكون رهانهـــا علـــى الحصان الخسران .. ولذا فضلت البعاد وشعرت بقلبها يتحطم على صخرة ألفيس .. ولـــم تستطع أن تنسى ..

ولكن أين المخرج من هذه الدائرة ؟

وبدأت " آن " مع " روجـر سميث " تخرج وترفــه عن نفسها . من أجـــل نســـيان ألفيس .. لقد شعرت بأن كيانها كله يذوب عشقًا فى هذا الرجــل .. وهيامًا فـــى رحـــاب حياته .. وعندما أرادت يومًا أن تلم شتات نفسها المبعثرة أثر حب فاشـــل لـــم تســتطيع نسيانه .. وعندما يتصدى لها البعض بالسؤال عن ألفيس كانت تقول :

" إنه رجل " هكذا وبكل بساطة تتابع " لم يؤذ أحــدًا أبدًا إلا أنه شيطان وساحر : لقد سحرنى " .

كلمات يرق لها الحجر وينبع ماءً ..

كلمات فى حروف من نار تنبع من قلب سيدة اكتوت بحبه ..

وعندما رأت أن الحــب يضيع أدراج اللامبالاة كمدت قلبهـــا بيـــن ضلوعهـــا فـــى صمت العاشقين .

زواجهمـــا :

وبعد ثلاث ســـنوات ونصف من هـــذا الحب الكبير تـــزوج ألفيـــس وآن فـــى لاس فيجـــاس .. وكان الزواج هـــذه المرة حقيقة لا تمثيلاً .. ولكن كل منهما تزوج شـــــخصاً آخر .. فلقد تزوج ألفيس بريســـلا ..

وبالرغم من أن " آن " فسخت خطبتها من " روجر سميث " فلقد تزوجت منه فجـــأة وعلى غير انتظار ..

ولقد تناثرت الأقاويل وزادت .. ما معنى هذا الزواج ؟ ..

لقد كان زواجًا جاء كرد فعل على زواج ألفيس بعد أن فقدت آن الأمل في الحصول عليه .. فزواج آن كان غير متوقع ..

فأهلها التى تعبدهم كانوا غير موجودين .. وليس أهلها فقط بل حتى أصدقائها ، ولم يحضر حتى أصدقائها ، ولم يحضر حتى الأصدقاء الشخصيين منهم .. ولم ترتد الطرحة ولا الثوب الأبيض الميكرو التى تعتاد الممثلات على ارتدائه يوم العرس .. ولم تجلس لأكثر من خمس دقائق ، ولم تطبع على شفتى زوجها تلك القبلة التى تسمى - قبلة الزواج ..

هذا ماكان يوم زواج آن مرجريت ، روجر سميث " نجمى هوليود " .. فلم يكن زواجًا بقدر ماكان حدادًا على فقدان آن .. لألفيس .. لقد كان يومًا حزينًا فى حياة آن .

هذا الرجل الذى سحرها وقطع نواجذ قلبها ومذقها فى الحب .. حتى مزقت ضلوعها قلبها ومزقت أمعائها بعضها بعضًا .. وأخيرًا ذهب .. وكان يوم زواجها هو يوم حدادها على الحب الضائع .. وقامت - آن - وتماسكت لكنها لم تستطع للنهاية فانهارت .. فقد كانت ترقص بجنون بين زراعى روجر ، وتأخذها نشوة الضحك حتى الدموع .. وتقفل فمها لتغمض عينيها ولا تفتحهما إلا الدموع ..

لقد أرادت بالزواج أن تهرب منه .. ولكنها هربت منه إليه .. وحملتها الذكريات على جناحين من اللوعة والأسى لتحلق فى سماء الحب الضائع .. ولم تسعد - آن - بعد ذلك فى زواجها ..

لقد كان زواجها " ردة رجل " لألفيس الذى عاشت من أجله ، ومن أجل حبه ، وفى النهاية ضاع كل شيء .. ؟

لقد كانت تبكى يوم عرسها - وتصرخ فى وجه زوجها بالرغم من الخاتم الماسى الذى أهداها إياه " لا أريد أولادًا " ويسألها : لم إذن تزوجنا ؟ .. - فآن - لم تعتبر زواج روجر ذا بال .. بل هو إلا محطة تعبر بها أحزانها وتنساها .. ومرحلة زمنية تريد أن تحملها لعالم أفضل ..

لقد كان هذا زواج - آن - الجميلة المدللة والذى كانت تنتظره الدنيا بأسرها .. - وآن - كثيرة العشاق والذى أحبها أعظم وأغنى مطرب فى العالم انتهى زواجها حدادًا ، وحزنًا مميتًا ، وقلبًا ممزقًا ..

ولكن بالرغم من كل الصعوبات التى واجهها زواج - آن - وبالرغم من كل النجاح الذى واجه زواج ألفيس فى البداية .. إلا أن الآية بدأت تنعكس وتأخذ مجرى مخالف لما بدأته ..

وبدأ ألفيس يشعر بالندم الشديد على الأيام التى لم يبادل - آن - فيها حبًا بحب .

ومازالت العلاقة بين الأسرتين طيبة ، إلا أن ألفيس لم يستطع أن يبوح بما فى صدره لـ " آن " فلقد كانت العلاقة بينهما وبين روجر على أتمها .. وكان يزداد هذا الجذب ، ويزداد الشوق عندما تسوء العلاقة بينه وبين زوجته .. وعندما انتهت العلاقة بينهما بالطلاق وشعر ألفيس بغدر الزوجة ، وخداع الصديق ، وشعر بألم الطعنات بدأ يفيق للماضى ، والقلب الذهبى الذى كان يتمنى التراب الذى يمشى عليه ، وبدأ يذكر - آن - بالود والحب والوفاء وأنه لم يبادلها حبًا بحب بل أدار لها ظهره ، وتزوج من بريسلا .

وازداد اكتئاب ألفيس ، واشتدت عزلته ، وبدأ يشعر بأنه يحتاج لقلب طيب يبثه همومه ويذكره بأيامه الخوالى .. وضاق بكل الذين يحيطون به . وكبر الشك فى قلبه ، وأخذ الحذر يسود حياته ، ويشعر بأنه سجين كل من حوله .

قصة حب - آن - هى قصة الحب الحقيقية والأولى التى يقع فيها ملك الروك أند رول ، خاصة بعد طلاقه من بريسلا بدأ يحوم حول - آن - وإن كان قد ابتعد عنها لأنها لا تريد أولادًا كما أشيع ، إلا أن مثل هذا السبب قد زال بعد أن رزق بابنة من زوجته بريسلا ، وأصبح بإمكانه الزواج من - آن - ولكن السؤال الذى لم تتم الإجابة عنه : هل كانت ستقبل - آن - ترك زوجها روجر من أجل حبها القديم ؟

والذى كان يؤكد مثل هذا الحب المتأجج فى قلب ألفيس . إنه فى لاس فيجاس فى حادثة سقطت فيها - آن - من على خشبة المسرح . ونقلوها للمستشفى رأى الناس كيف اندفع ألفيس إلى المستشفى ومنها إلى حجرة - آن - ليطمئن على صحتها .

وكيف أن بطاقات الزهور توالت على المستشفى .. وكيف أن تصرفه أظهر بأن قلبه يكاد ينكسر ..

والحقيقة التى كان يؤكدها الكثيرون أن ألفيس كان فى انتظار حدوث مفاجأة ما ..

الانتحار

ونستطيع أن نجزم القول بأن طلاق ألفيس بريسلى من زوجته بريسلا وأم ابنته كان هذا هو بداية النهاية لملك الروك أند رول - فقد تعددت التفسيرات حول نهاية

ألفيس .. فمن يقول إنه لم يحتمل أن تخونه زوجته مع أحد أصدقائه وحارسه الأول مايك ستون .. وهو ملك الجنس الذى لا يقاوم ، ورأى فى ذلك بداية أفول نجمه فآثر الانتحار البطىء .

وللخروج من الأزمة – وللنسيان غرق ألفيس فى تعاطى المهدئات ، ونتيجة لذلك أصيب بضغط الدم ، والفلوكوما ، والإفراط فى السمنة ، وبدأ يتصرف بغرابة .. كأن يطلق النار على جهاز التليفزيون .. أو أن يستقل الطائرة فى منتصف الليل ليأكل سندوتش فى مدينة أخرى ، وكان أحياناً يأكل بشراهة .. ويصوم عن الأكل حتى يسقط من الإعياء .

وانتابته الهواجس والخيالات والأفكار السيئة وسيطر عليه اليأس عندما شعر أن جاذبيته الجنسية قد تلاشت ، أو أنه لم يعد باستطاعته الإبقاء على حيويته ، وأنه فى حفلاته الأخيرة فى لاس فيجاس كان يأخذ طابع التمثيل والحركات أكثر من الغناء فكان كثير العزف وهو يغنى .



التقرير الطبي

ويقول التقرير الطبى قتلته غازات معدته ، هذه الغازات التى تصيب الرجل نتيجة الاكتئاب والشعور بالاحباط .

ويأتى تقرير البوليس ليقول إن المخدرات هى السبب .. ولكن ما هى الحقيقة المؤكدة ، وراء كل ذلك ؟ .

الحقيقة فى أن وزن ألفيس زاد بصورة ملحوظة حتى وصل إلى ١٠٨ كجم ، زيادة غير متوقعة ، حوالى ٤٠ كجم ، وساءت حالته النفسية تماماً حتى أنه وصل به الحال إلى أنه كان لا ينام إلا بمساعدة العقاقير التى تساعده على النوم ، وعقاقير أخرى تساعد على التيقظ والانتباه وأخرى لتخفيف الشهية ، حتى وصفه بعض المقربين ، أنه كان عبارة عن صيدلية متنقلة .. ليس للأدوية زمان ولا مكان ولا حساب بل إنه اضطر أخيراً إلى أن يبذل جهداً كبيراً لا طاقة له به حتى يستعيد رشاقته فتدهورت صحته ، وانحدرت حيويته بسرعة نحو النهاية حتى كان يخرج من الحفلات يتصبب عرقاً .

وقبل وفاته بساعات أخذ ألفيس يلعب الإسكواش لمدة خمس ساعات فى الملعب الملحق بقصره ، حتى أرهقه اللعب فاستأذن من أصدقائه ومرافقيه وذهب ليأخذ حماماً ، وعندما غاب لأكثر من ساعة .. ذهبوا فى أثره .. وأخذوا يدقوا عليه الباب ولكنه لم يجب ! ... فكسروا الباب ليجدوا " ألفيس آرون بريسلى " فاقداً وعيه ممدداً على أرض الحمام المرمرى .. ونقلوه إلى مستشفى " هلس " .

وهناك بذل معه الأطباء محاولات مستميتة لإنقاذ حياته .. لكن محاولاتهم باءت جميعها بالفشل وفارق ألفيس بريسلى الحياة فى الثالثة والنصف مساء الثلاثاء ١٦ أغسطس ١٩٧٧ على أثر نوبة قلبية سببها ارتفاع الضغط وانسداد الشرايين . وليبين الفحص أن دمه يحتوى على عدة أنواع من العقاقير المهدئة جعلت قلبه يتوقف عن النبض .

وجاءت وفاته صدمة مروعة لملايين المعجبين .. وتصدر الخبر صحف العالم وغيرت المحطات والإذاعات الأوروبية والأمريكية برامجها .. ولم يعد لها من حديث إلا عن ملك الروك أند رول الراحل .. وتوافد الآلاف من أنحاء أمريكا لإلقاء نظرة أخيرة على جثمانه .. حتى أنه جاء فى إحصائية أنه مر من أمام جثمانه حوالى مائة ألف شخص وهم يبكون .

ويوم الخميس أعلن حاكم ولاية تنسى الحداد العام ، وشيعت جنازة بريسلى تتقدمها الموسيقى الجنائزية .. وخلفه ١٦ عربة كاديلاك بيضاء .

٢ مليـــار أســطوانة

مات ألفيس بريسلى ملك الروك أند رول والجنس ومعبود المراهقات .. مات ولكـن بقيت موسيقاه ، وأغــانيه ، يوم موته يباع من ثلاثة أغــانى فقـط حوالــى ١٢ مليـون أسطوانة وبيعت فى حياته نصف مليــار أسطوانة لأغانيه .. زادت عن المليــارين بعـد موتــه ..

إنها صرعة اجتماعية صنعتها أمريكا تملأ بها حياة الناس وتشغلهم بعــد أن انتهــى زمن الحروب العالمية .. فلا بد من رمز يلتف حوله الناس ، ولو بالباطل .. لقد اشــتعل ألفيس حتى الاحتراق ، وبقيت بقية من رماده وبقــية من نوره بعض الوقت ... ثم كــان مصيره صفيحة زبالة .

بعض من ثروته التى مات عنها

مات ألفيس عن ثلاثة آلاف عصفور ، وخمسة وثلاثين ألف سمكة ملونة ، وثلاثيــن كلب صيد ، وينفق على كل هذا ريع ثلاث حدائق من التفاح الأمريكانى .

ورغم مرور حوالى ١٥ عاماً على وفاة ألفيس بريسلى فإنه مازال أسطورة الـــروك والملك بلا منازع .. ففى ١٦ أغسطس من كل عــام يتوجه عشرات الألوف من العــالم كله لزيارة مقبرته إحياءً لذكراه .. والغريب أن معظم هـــؤلاء الزائريــن فــى حـدود العشرين من عمرهم .. أى أنهم لم يكونوا قد ولدوا بعد عندما مات ألفيس .

ومقبرة بريسلى فى حديقة قصره " بممفيس " والذى يتكون من ١٨ حجــرة .. هـذا القصر الذى أصبح متحفا ومزاراً للآلاف .. يزوره حوالى ٥٠٠ ألف زائر كــل عــام .. ويعمل به ٣٥٠ عامل .. وتعتبر أرملته بريســلا القصر مكاناً لذكرياتهــا الجميلــة مـع بريسلى .. وإن كانت مازالت متزوجة بجانب قيامها بدور لامع فى مسلســل – دالاس – بل وأنجبت أخاً لابنتهــا من بريسلى "ليزا " التى تتميز بأن لهــا نفـس ملامــح والدهــا بالتقريب بل أيضاً نفس تعبير الحزن الذى كان مسيطراً على وجهه .

وليزا التى ورثت ٣٠ مليون دولار عن والدهــا والتى لم تتسلم الــثروة إلا عندمــا بلغت الخامسة والعشرين .

وليزا لا تعرف الكثير أيضاً عن والدها فكل ما تعرفه رواه لها الآخرون والصحف وكل ما تذكره منه أنه كان يقدم لها وهى فى الرابعة من عمرها هدايا من الماس والفراء الثمين .. ولكنها عرفت وهى صغيرة أنها هامة .. وتعيش مع حرس خاص خوفاً من اختطافها - فهى الطفلة الثرية والوريثة الوحيدة لملك الروك أند رول وتحاول ليزا أن تواجه سيطرة شهرة أبيها الطاغية .. وغالباً ما تقف فى ذكراه على خشبة المسرح ، وتغنى معظم أغانيه المعروفة ..

ويقولون إن ليزا نجحت فى مهمتها .. فهل ستستطيع وحدها بناء رصيدها الخاص من الشهرة - أم مازالت شهرة أبيها تمثل لها الكثير من العناء والقلق ؟ .

ومازال هوس ألفيس يسيطر على الناس حتى إنه أشيع منذ سنوات وعلى محيط واسع بأن ألفيس لم يمت وأنه يعيش فى الأحراش والغابات .. يعيش هارباً بعيداً عن الناس والشهرة .. وإن كان هذا صحيحاً .. فمن الذى مات ودفن ؟ .. وكيف سيحدث ذلك .. والبعض مازال يشك فى حياة وموت ألفيس .. وخاصة أن أسباب الوفاة غير معقولة بطريقة منطقية .

لقد عاش فى عالم .. يرقص معه .. العالم كله .. ومات ومازال العالم يرقص ولكن بأخباره وشائعاته .



ليزا بريسلى

☹ ☹ ☹

مارلين مونرو

مارلين مونرو

رحلت مارلين مونرو منذ سنوات .. ولكن لم ترحل أخبارها .. بل بقيت وتوالت .. وآخر خبر عن تلك السيده منذ أسابيع والخبر بسيط جداً ويقول فى مزاد علنى بواشنطن بيع مايوه مارلين مونرو الذى ارتدته وهى تمثل أحد أفلامها بمبلغ ٢٦ألف دولار ، والرقم كتابةً ستة وعشرون ألف دولار لاغير ... وفى النهاية مايوه ...

ولبسته مارلين مرة .. وذهب لحال سبيله .. لكن من وجده باعه بهذا المبلغ وفى مزاد ...

مايوه من ؟ ... ومايوه ماذا ؟

المايوه ٢٠٠ سم من القطن أو الحرير الصناعى .

وهو مايوه مارلين مونرو - والتى أطلق عليها رمز الحب ، ورمز الإغراء ، وأسطورة القرن العشرين أو ببساطة م.م والتى إن تكلمت وفتحت فمها وانفرجت شفتاها تجعلك تفكر فى أشياء كثيرة !!

ففى ذات صباح نشرت كل صحف العالم أن مارلين مونرو ملكة الجاذبية الجنسية والشهرة الواسعة والثراء الكبير ، وزوجة كاتب مسرحى عالمى توفيت بعد أن ابتلعت كمية كبيرة من الأقراص المنومة .. هكذا فجأة وقد أصبحت مارلين مونرو ألمع وجوه الشاشة فى السينما العالمية وأشهرها ، فهى أعظم مثال لما يمكن أن تفعله الدعاية المرسومة بدقة .. لقد قرروا أن يحولوها إلى نجمة مشهورة .. ونجحت خطتهم .

وهى الفتاة العادية من الداخل ، والتى أصبحت تواجه الناس ، وتحرك فيهم أحاسيس جديدة نحو الأنثى .

فكل ما فعلته أن نفذت ما طلبوه منها .. فلم تدرس لتتطور ، ولم تتدرب زيادة لتتعلم أكثر ، وهكذا أطاعت فنجحت .. وانحنت لتجمع نقوداً كثيرة .. وسجدت لتجد جبهتها وفمها ذهب .. لقد أصبحت مارلين مونرو سيدة " ترانزيت " .. تمر عليها كل الأجناس .. وفى أى وقت .. وتحت أمر قادتها يتحكمون فى كل تصرفاتها .. فى نزواتها وسعرها .. فى مدها وجذرها .

ولكن أين مشاعرها .. حياتها .. حريتها ؟ .. والثمن مزيد من البريق .. كثير من الذهب .. زيادة فى الإعجاب .. زيادة فى الضياع .. وجمعت أموالاً طائلة .. ولم تحصل مرة واحدة على جائزة فنية تؤكد نبوغها .

ولكن هل يدل ذلك على نبوغ ما تتحلى به عن غيرها ؟ ..

مثلت حوالى ثلاثين فيلماً هى حصيلة عمرها الفنى والبالغ ثلاثة عشر عاماً .. ولـــم تكن أفلامها أفلام شباك درجة أولى .. إلا أنها كانت أعلى الأفلام إيراداً فى الخمســـينيات ولم تجد موهبتها ومقدرتها الفنية من يتحدث عنها .. فلقد شغلت قمة الإغراء التى كـــانت تتربع عليها الناس عن ذلك .. ولكم كان ذلك هو أكبر عذابهـــا .. بل يعد الفصـــل الأول فى مأساة حياتها .

والفصل الثانى هو خشيتها من أن يذبل هذا الجمال يوماً ويذهب هذا المجد ويضيع .. وبين طرفى تلك المعادلة ، وكأنها بين المطرقة والسندان وضعـــت مســـتقبلها ، فـــأدمنت الكحول ، وتعاطت المهدئات ، وعانت طول السهر ثم قتلت نفسها ..

هـــى نورما جان بيكر ، والتى عرفها الناس باسم " مارلين مونرو " والتى ولدت فى الأول من يونيو ١٩٢٦ بمدينة لوس أنجلوس وهى الابنة غير الشرعية " لجلاديس بيكـــر و.س ستانلى " .



مارلين مونرو

☹ ☹ ☹

فتـــاة الملجـــأ

ترعرت نورما فى ملاجئ الأيتام بعدما أدخلت أمها مصحـــة عقليـــة ، وعجز والدهـــا عن حمل عبء تربيتها ... ومن الملجأ خرجـــت فتـــاة تحلم بالجمال وتحلم بنفسها تبعثر السحر ألوانًا شتى وتدير الرءوس أينما مرت .. وتسمع الناس يتهامسون : هاهى .. انظروا .. والتى لو قـــالت للقمر قم لأجلس مكانك .. لقام من فوره ولم يعد .. وتمنت لو أن ســـحرها اشـــتعل فـــى صدور الناس حريقًا ، وفى قلوب النساء حرائق ..

وانتقلت من الملجأ إلى سيدة أخرى لتعيش عندها .. وعندمـــا شـــبت عـــن الطـــوق اضطرت للعمل فى خدمة أكثر من أسرة لتنفق على نفسها ، ومرة حـــاول أحـــد الأزواج اغتصابها ففرت منه إلى أحد الملاجئ .. ولكنها لم تطق الحياة فى الملجـــأ بعـــد الحريـــة فهربت من الملجأ بعد أيام ، وتزوجت فى سن السادسة عشرة من " جيم دورتـــى " وهـــو بحـــار أيرلندى فى الثانية والعشرين من عمره .. وكم كان وسيماً وكانت متيمة بحبـــه .. بل هو الشخص الوحيد الذى أحبته فى حياتها .. وفى إحدى أجازتهـــا التقـــت بمصـــور فوتوغرافى خبير يعرف زوايا الوجه ، وانحناءات الجسد واستقامته ، فبصر فيهـــا ذلـــك وقدّره ، ونصحها بأن تعمل كموديل لمجـــلة يعمل فيها .. وكان هذا الفنان صـــاحب ذوق فى تشكيل الوجه ، وما يعطيه من جمال وما هى الخلفية المناسبة لأى وجه – فعلمها فـــن المكياج .. وصبغت شعرها باللون الذهبى وسرعان ما ظهرت صورها على غلاف خمسة مجلات فنية كبرى .. ثم بدأ اسمها يلمع قليلاً فقليلاً ..

وبعد عامين من الزواج حصلت على الطلاق من الأيرلندى الوســـيم ، وفـــى عـــام ١٩٤٦ استطاعت أن تدخل استديوهات فوكس للقرن العشرين بأجر قدره ٧٥ دولار فـــى الشهر .. ثم غيرت اسمها إلى "مارلين مونرو " .

وودعت كل ما يتصل بحياة نورما بيكر وما يمت بصلة لحيـــاة الملاجـــئ ، والتـــى كانت لا تنتمى لأحد .

وتبدأ المرأة الثانية " مارلين مونرو " والتى تقول " لا أعلم شيئًا عنها ، غـــير أنهـــا تنتمى إلى البحر والسماء والعالم أجمع " ..

وبعد القيام بتمثيل أدوار ثانوية فى فيلمين لشركة "فوكس " قـــررت الإدارة فصلهـــا لافتقارها إلى الموهبة ، وأن وجهها ليس سينمائيًا بما يكفى ، وعـــادت مـــارلين لتعمـــل

كموديل من جديد .. وهى فى غمرة الضيق واليأس والملل .. يأتى " جو شـــنيك " أحد عواجيز شركة فوكس ، والذى هـام بحبها واستخدم نفوذه ليجد لها عمـلا بشـركة " كولومبيا " والتى فصلتها بعد ستة أشهر لتعود من جديد إلى الفوتوغرافيا ، حتـى التقت "بجونى هايد " أحد أبرز عملاء استديوهات هوليود فاستطاع هـايد أن يقنعها بـإجراء عمليتى تجميل لأنفها وفكها .. وكانت هى أول من دهش للنتائج .

أعقب ذلك أن ظهرت فى فيلمى " غابة الأسفلت " ، و " كل شىء عن حواء " اللذين مهدا الطريق أمامها لتوقيع عقد مع شركة فوكس بمبلغ ٧٥٠ دولار فى الأسبوع .. وقبل عرض فيلمها الخامس عشر " صراع الليل " وزع المنتج صورة قـديمة لمونرو لم تكـن فيها - كاملة " الاحتشـام" مع اعتراف خطى بأنها فعلت ذلك من أجل المـال .. وحقـق الفيلم دخلاً خرافيًا .. وطارت مونرو إلى سماء الشهرة على جناحى فضيحة .



مارلين مونرو

" كل شىء عن حـواء "

وكان كل همها الكفاح طويلاً لسبر أغوار السينما ، تناضل من أجل أن تجد لموهبتها مكاناً تحت شمس هوليود .. لأنها كانت تشكو بل تتعذب لبقائها كسلعة للبيع في سوق السينما .. وعقب فيلم " صراع الليل " وقعت كارثة .. فقبل عرض الفيلم بأيام علمت الشركة المنتجة بقصة الصورة العارية التى التقطت للممثلة الجديدة ، ونسيت الشركة الفضيحة .. وبعد تفكير اهتدت مارلين مونرو إلى حل قالت إنها اضطرت للوقوف عارية أمام المصورين لتحصل على أجر سكنها ..

وصدق الجميع الكذبة البيضاء .. لأن مارلين كانت فى حاجة إلى نقود فعلاً .. ولكن لتدفع قسط السيارة الجديدة الصغيرة التى اشترتها ..

وعرض الفيلم ، واستقبل الجمهور مارلين مونرو باستحسان .. وبدأت مارلين حملة ضد الممثلة " بنى جبرييل " لتحصل على دورها فى فيلم " الرجال يفضلون الشقراوات " وانتصرت مارلين فعلاً .. ولكنها هزمت فى حفلة ذهبت إليها بفستان مثير فهاجمها الجميع ، وكانت أزمة نفسية عاشت فيها مارلين وخاصة بعد أن فقدت حبها .

وفى أثناء تصوير فيلم " نهر بلا عودة " ومخرجه " أوتو بريمنيجر " والتى اصطدمت به مارلين وبدأ كل منهما يشعر بالنفور من الآخر .. وكانت مارلين تتعمد إثارته أثناء العمل .. فكانت تفقده النطق .. فاللقطات الصغيرة التى لا تتعدى دقائق كانت تجعلها تستغرق الساعات .

وفى أثناء التصوير اتصل بها صديقها " جودى ماجيو " من سان فرانسيسكو تليفونياً ، ولم تكد مارلين تسمع صوته حتى صرخت : " لماذا جئت إلى هذا المكان " ؟ .

إن هذا الفيلم مزعج .. مزعج جداً .. هذا الرجل بريمنيجر سافل فى معاملته لى ، وأخذت مارلين تبكى ..

ووصل إليها " جو " فى صباح اليوم التالى ، وكان رقيقاً للغاية ، واستطاع برقته أن يبدد الشكوك التى ساورت مارلين حول عواطفه نحوها ، وشعرت مارلين بأنها تحب - جو - وأنه يحبها .. ولم يكن ممكناً بعد هذا اليوم أنه يخفى الاثنين حقيقة عواطفهما ..

وتزوجا .. فى سان فرانسيكو فى يناير ١٩٥٤ وقالت مارلين فى وثيقة الزواج إن عمرها ٢٥ عاما .. وكانت تكذب طبعاً ..

فقد كانت فى هذا الوقت قد تجاوزت السابعة والعشرين .. أما العريس فكـــان فـــى التاسعة والثلاثين من عمره .. وطار العروسان إلى طوكيو لقضاء شهر العسل .

وكان شهر عسل صافيًا.. فلقد استقبل العروسان عند وصولهما استقبالاً جماهيريًـا ، وكانت الجماهير تحاصرهما فى كل مكان .. وهى فى حالة هيســتيرية .. لقـد خرجـت طوكيو كلها فى هذا اليوم لتستقبل مارلين مونرو .

وعند عودتها كانت تحـلم بمنزل الزوجية والأولاد .. وتقول لنفسها إنها لـن تقنـع بأقل من دستة من البنات والبنين .

وكانت تتفانى فى خدمة زوجها وتقول عن هذه الفترة : لقد جعلتـه لا يحتـاج إلـى تحريك أى عضلة من عضلاته ، لقد تعلمت من المرأة اليابانيـة فى شهر العسـل كيـف أدلل زوجى .

وكان هــذا الحلم هو ما تطلعت إليه مارلين بعد الزواج .. لكن الحــلم لم يدم طويلاً إذ سرعان ما بدأ يذوى .. ففى خلال أسبوع واحد فقط كانت مارلين تبدد الميزانية التـــى وضعها زوجها للمنزل .. وبدأت السعادة التى كانت تخيم على جــو الأســرة تتلاشــى .. وانتشرت فى هوليود شائعات كثيرة تؤكد وجود متاعب بين مارلين وزوجها ، وأن الأمور بينهما ليست على ما يرام ..

وكان عمل مارلين فى السينما هو الشىء الذى يكرهه زوجها كراهيــة شــديدة .. ولكنه لم يستطع أن يصارحهـا بحقيقة شعوره ، وإنما أخذ بدلاً من ذلـك ينتقـد بعـض عاداتها التى يرى أنها سخيفة ..

كما أخذ يشكو مر الشكوى من عودتها إلى المنزل فى وقت متأخر ، وكان جو يقول لها إنك تعودين إلى المنزل فى الساعة التاسعة أو العاشرة مساءً أو ربمـا بعـد ذلـك .. وتعودين وأنت فى شدة الإرهاق ، ولا تقدرين على عمل أى شـىء إلا أن تذهبـى إلـى فراشك للنوم .. إنك لم تتزوجينى فى الواقع وإنما تزوجتى الاستديو .. أليس كذلك ؟ .

ولم تهتم مارلين كثيراً بمـشاعر زوجها .. فما كانت تنتهى من فيلم إلا وتبدأ فيلمًـا آخر ، دون أن تعطى نفسها يومًا واحدًا تستريح فيه أو تقضيه مع زوجها .

وفى أحد مرات التصوير ذهب جو مع مارلين إلى نيويورك - وكانت تمثل إحـدى لقطات الفيلم .. وكانت تقف فوق رصيف مرتفع .. ومن أسفل تهب ريـاح قويـة ترفـع فستانها إلى أعلى ، وتكشف ساقيها أمام الجميع ؟ .

وكانت صدمه شديدة العنف لجو عندما وجد جمهوراً ضخماً فى المنطقة التى يجرى فيها التصوير لمشاهدة ساقى مارلين .. ووقف جو بين الجمهور ليجد كل العيون تحملق فى ساقى زوجته ، وليسمع الصفير والصياح من هنا وهناك .. ووقف الزوج صامتًا وقد تجهم وجهه ، وتوترت أعصابه .. لقد كان الأمر بالنسبة له إذلالاً أليمًا وجرحًا خطيراً لكبريائه كزوج .

وحاول جو بعد ذلك أن يقنعها باعتزال السينما .. والتفرغ لمهامها الزوجية .. فطلقته وقالت :

" أعتذارا " ...

" إن جو تزوج من امرأة ثمانين فى المائة منها صنعته الدعاية والأضواء " .



مارلين مونرو وهى تكشف عن ساقيها فى إحدى لقطات أفلامها

☹ ☹ ☹

فلسفة مارلين في الإغراء

تعترف مارلين فى حديث صحفى عن سر نجاحها كممثلة إغراء تقول : أعترف أننى لست فنانة جيدة جداً بل مجتهدة .. فمنذ أن ظهرت على الشاشة منذ سنوات وأنا أحقق نجاحاً لا شك أنى مغتبطة بل وسعيدة به ولكن لا أستطيع أن أعزو هذا النجاح إلى قدرة فائقة على التمثيل ! ..

فالواقع أنى لا أهتم إن كنت موهوبة من هذه الناحية أم لا أملك مثل هذه الموهبة ، فالأمر عندى سيان ، وإن كنت أبذل كل جهدى كى أصبح ممثلة كوميدية جيدة وناجحة .

ولكن الأمر الثابت فى نظرى .. أن السر فى نجاحى هذا يتلخص فى كلمتين صغيرتين هما : جسدى ووجهى ، وهذه حقيقة لا أشعر بأى خجل فى تقديرها وتأكيدها ..

ولست ممن يعنينى أن تكون الملابس التى أرتديها قد صنعت وفق مقاييس معينة ولإبراز مفاتن معينة ، بل إنى لا أهتم على الإطلاق بما يقال له مقامات الجسم ، فلا أتابعها ، ولا أسجلها من وقت لآخر للتأكد من حدوث تغيير فى الوزن أو الحجم .. وإنى لست فى حاجة إلى ضبط الفستان الذى أرتديه .. أما هذه المقاسات التى تنسب لى فأؤكد أن أصحابها هم الرجال الذين يقيسونى بأعينهم ..

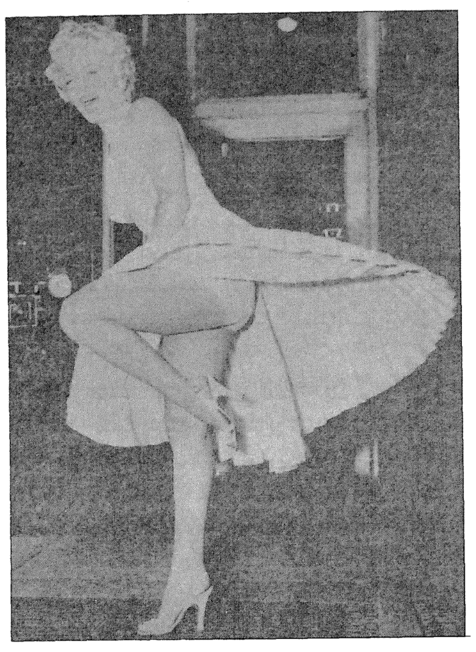
وتكمل مارلين قائلة : ولى ولع شديد بالملابس الخفيفة سواء فى عملى الفنى أو فى حياتى الخاصة .. وأود أن أكون صريحة وأمينة فأذكر أنى لا أستخدم الكثير من أجزاء الملابس الداخلية مثل السوتيان ، والكورسيه ، وعلى من يشك فى هذا الأمر يسأل الرجال الذين يتصادف أن يكونو قريبين جداً منى ..

وأكره الجوارب مهما كانت ولا أستعملها . وأذكر أن أحد الصحفيين سألنى مرة عن السبب الذى من أجله لا أرتدى الجورب ، وبدلاً من أن أحاول التفسير والتعليل .. اكتفيت بأن أوجه إليه هذا السؤال : ألا تحب أن تنظر إلى هاتين الساقين ؟ ويظهر أن سؤالى أو جوابى أقنعه لأنه غير مجرى الحديث .

وقبل وفاتها بشهور قليلة سألها البعض أن منزلتها الفنية والإغرائية هبطت بعض الشىء فأجابت :

نعم إن الإقبال على أفلامى هبط عن ذى قبل ، وأعلم أن لى أكثر من منافسة تريد أن تنتزع مكانتى .. ومركزى ، وهناك الكثيرات ممن يحاولن تقليدى فى حركاتى ، وطريقة حديثى وغير ذلك .. ولكن هل يوجد إنسان فى هذا العالم لا يوجد له منافسون أو مقلدون ؟

وإن كان الإقبال قد قل على أفلامى ، فإن صح فلأنهم يرغموننى فى بعض الأفلام على أن أظهر وقد ارتديت الملابس كاملة .. وبذلك فإنى أبدو على خلاف طبيعتى ورغبتى ، وعلى غير الصورة المألوفة التى عرفت عنى . فالسبب إذن هو تغيير الطابع الذى ميزنى ، وميز فنى ، وكان مصدر شهرتى ، ولو حدث بالفعل أن راح البعض يعرض عن مشاهدة الأفلام التى أقوم بتمثيلها، فلن يسبب لى ذلك أى شعور بالخوف أو القلق ، مهما قال المنافسون أو المقلدون ، لأنى أدرك تماماً ما السبب فى هذا الأعراض ، كما أعرف بالمثل العلاج .. وهو فى متناول يدى ..



• مارلين مونرو فى إحدى لقطاتها الساخنة

هل تعرف ما هو ؟ أسارع إلى خلع ملابسى الكثيرة ليعود الإقبال بل ويشتد .. ألـــم أقل إن جســدى ووجهى هما سر نجاحى ؟ وأنا أعلم كيف أحفظ السر ، وكيـــف أطبــق الدرس . وعن سبب فشل زواجها تقول :

لقد تزوجت أكثر من مرة .. وفى كل حالة كانت النهاية واحـــدة .. الطـــلاق .. أى الفشل .. وكانت تجربتى الأخيرة مع آرثر ميللر ، ويتساءل الكثيرون عن أســـباب هــذا الفشل الذى أُصبته به ، وتختلف التفسيرات وتتعدد التأويلات ، وفيها جميعًا تلعب الشائعات دورًا كبيرًا – ولا أريد أن ألتمس الأعذار أو ألقى باللوم على أحد .. فالمسألة أو الحقيقـــة أبسط من هذا بكثير .. وإذا ما عرفت فينبغى ألا يثير ذلك أية دهشة أو عجـــب : الســـبب الحقيقى أننى فنانة أولاً وقبل كل شىء ، وفنانة مغرمة بفنى إلى حد أنى لا أكون ســـعيدة بالزواج بأى حال من الأحوال .. فنحن الفنانون لا نصلح لــلزواج .. لأننـــا مخلوقـــات بشرية غير عادية ، كما لا يصل إلى طريقنا ، وعن طريقنا أى شىء عادى .. أليس هــذا تعليلاً منطقيًا ؟ ..

وبعد طلاق مارلين من آرثر ميللر لاحقتها مجموعة من الإشاعات ، والتـــى صـــار واضحاً أن حياتها اشتدت ، وازدادت قوة – على حد كلامها .. وقالت مارلين : وأخطـــر هذه الإشـــاعات أنى قررت أن أجرب ومن جديد حياة مشتركة مع جون دى ماجيو .. فأنا لا أحاول العودة من جديد إلى ماضى انكسر وتحطم .. لقد مررت بتجربة فـــلا أريـــد أن أعاودهـــا ، وليست هناك أى فائدة على الاطلاق من ان يبدأ الانسان من جديد شيئًا ثبـــت أنه لم يسفر عن أى نتائج .

وترددت كثير من الشائعات عن علاقتها مع الممثل – إيف مونتان – والســـبب فـــى ذلك اشتراكها فى فيلم – فلنحب بعضنا – بهذا العنوان الجذاب والــــذى فســـره البعـــض بالإشارة المتبادلة على الشعور المتبادل بين مارلين ومونتان .



معرفتها بآرثر ميللر

انتقلت مارلين إلى نيويورك لدراسة التمثيل باستديو الممثل وهى المدرسة التى اشتهرت بتخرج أساتذة التمثيل الكوميدى من أمثال جيمس دين ، مارلون براندو ، أرادت أن تدخل هذا الميدان وهى معتقدة أنها سوف تصبح ممثلة كوميدية من الصف الأول .. وأراد الأصدقاء أن يثنوها عن ذلك .. ولتحتفظ بطابعها المعروف الذى أكسبها الشهرة والمجد .. وهو طابع الفتاة الجميلة الضاحكة ، والطبيعية فى كلماتها وتصرفاتها ..

وأصرت مارلين ، وتحركت يد القدر ، وأمسكت بالخيوط .. حدث هذا فى أوائل عام ١٩٥٦ حيث وصلت مارلين إلى الدرس متأخرة كعادتها وكان هناك رجل تبدو عليه أمارة العظمة والهيبة ، وكان نحيفًا للغاية ، ويخفى عينيه السوداوين وراء نظارته .

وسارعت لتشق طريقها بين الصفوف وتبحث عن مقعد خال ترتمى عليه .. وفى لهفتها تعثرت بأحد الكراسى فوقع على الأرض .. واتجهت إليها الأنظار وكانت خجولة عند ارتكابها لأقل هفوة . فيحمر وجهها ويبدو عليها الخوف ، وتأخذ فى الاعتذار بعبارات متقطعة وغير مفهومة .

وتوالت النظرت ، وتعددت المقابلات ، وطارت الاشاعات .. وما أسرعها فى هوليوود .. وراحت تؤكد أن مارلين سوف تتزوج من هذا الرجل العظيم جدا .. النحيف جدًا .. آرثر ميللر معبود الشباب الأمريكى المثقف.. وسألها صحفى ممن يتابعون أخبار النجوم متى زواجك من آرثر ميللر ؟ ..

وتجيب على الفور : هل جننت ، كيف تريد من رجل مثقف مثله أن يتزوج من مسكينة مثلى ؟ وكانت تكذب .. والكل يعلم ذلك .. فبعد ثلاثة شهور ونصف و بالتحديد فى ٢٩يونيو ١٩٥٦ أصبحا زوجين .. وكانت سعيدة بالزواج حتى كانت تقول :

والآن وجدت الرجل الذى سوف يقرر مصيرى وكل شيء يتعلق بى ، ولم يخطئ حدثها . فلم يكد ينقضى عام ونصف العام على طلاقهما حتى صارت مارلين مونرو فى ذمة التاريخ .. وصارت ذكرى لا أكثر ولا أقل مثلها مثل رودلف فالنتينو ثم جيمس دين .

وعن اللقاء الذى شد انتباه ميللر إلى مارلين فى حفل بإحدى الاستديوهات كانت كل الزوجات فى أبهى لبس ومكياج ، أما مارلين فقد جاءت بثوب ضيق للغاية .. وكأنها تتحدى الجميع وتقول :

هاأنذا وعندى أجمل قوام فى العالم ، وأتحدى من يقول عكس ذلك .. وكانت فعلاً أجمل من فى الحفل مما أثار غيرة وحفيظة الحاضرات ، وكان ذلك واضحًا فى سيل التعليقات الساخرة للنيل من مارلين .. ومارلين تريد أن يعترف الجميع فى مجتمع هوليوود بها ليس كممثلة إغراء فحسب .. بل كفتاة موهوبة أيضًا ، وكان يعذبها أن ينظر إليها الجميع كممثلة إغراء .. ولا يهتمون بمارلين مونرو الإنسانة .

هذا الصراع بين مارلين الفنانة ، ومارلين الفاتنة ، جعلها تنظر إلى جسمها فى المرآة بإعجاب شديد أحيانًا ، وتبكى بسبب هذه الفتنة الطاغية التى تعمى الرجال عن مارلين الإنسانة أحيانا أخرى .

وبعد أن تزوج ميللر من مارلين توجها إلى لندن لتشترك مع النجم العالمى " سير لورانس أوليفيه " فى فيلم " نظرة من فوق الجسر " وبعد أن شاهدت مارلين الاستقبال المنقطع النظير لهما من جماهير السينما والشارع ، اعتقدت أنها أحسن من أوليفيه، وأنه يستغلها لإنقاذ سمعته المالية والتى تأثرت بهبوط إيراداته .. وكان هذا سببًا فى احتكاكات كثيرة .. وكانت مارلين تتمنى أن يكون لها طفل .. ولكن السماء التى أنعمت عليها بكل هذا الجمال حرمتها من نعمة الأطفال ، والفنان الوحيد الذى استطاع أن يفهم مارلين ويتعامل معها هو " كلارك جيبل " .. وكان الاستديو يدفع له ٢٥ ألف دولار يوميًا ليقوم بتدليل مارلين حتى تكون فى أبهى حالتها عندما تقف أمام الكاميرا ، وبعد زواجها من آرثر ميللر عرض عليها أن تصحبه إلى المزرعة التى يمتلكها فى كونتكت ، فقبلت وقد غمرتها السعادة الطاغية من الأمل ، فهى سوف تنفرد بالرجل العظيم الذى كسبته وسوف تكون حياتها أنشودة غرام متصلة .

وسافر العروسان ولكن ميللر كان له وجهة نظر مختلفة لم تكن تخطر بالمرة على بال مارلين ، فلقد أراد أن يجعل منها شخصًا آخر ، ويخلقها من جديد وما أن استقرا فى عشهما الجديد حتى بدأ ينفذ خطته التى رسمها .. فبدأ يحملها على دراسة التحليل النفسى بقراءة مؤلفات سيجموند فرويد ، ثم أرغمها على مطالعة الكثير من الكتب فى الفلسفة والاقتصاد والسياسة والقانون وهى نواحى أبعد ما تكون عن طبيعتها .. لكنها أقبلت عليها إرضاءً للرجل الذى فتنت به ، وحتى تثبت بأنها جديرة لأن تكون زوجة لذلك المثقف .

وبدأ نجم مارلين يخبو ، وبدأت تسير فى طريق السقوط منذ هذه اللحظة .. فلأكثر من أربعة سنوات لم تمثل فيلمًا واحدًا .. لقد أصبحت مهملة عاجزة مهمومة مشغولة ..

وبدأ العشاق ينســوها .. فلقد أخفاها ميللر بعيدًا عن العيون .. وهى التى كانت لا تنتعش إلا بالضوء ، والحبر الأســود – وذاكرة الناس ضعيفة إن لم تجد من يذكرهــم بصــورة دائمة ، ويفاجئ حياتهم بالضوء والفلاش ، فسيتضاءل هذا النور البراق حتى يختفى ، ومع ذلك واصل الزوج تنفيذ خطته بإصرار وانتظام .. كان يريــد للفتـــاة اللعــوب المليئــة بالصحة والحياة مخلوقًا جادًا بل وحزين .

وانقضت أيام المزرعة ، وعاد الاثنان لنيويورك .. وكانت عودة للحياة .. للصحــف للضوء والنهر والنوادى والحفلات .. ولكن استمر ميللر فى خطته ولم يستطع أن يــدرك أنه يحطم روحها .. وبدأ يأخذهـــا إلى أماكن لم يخطر ببالها مطلقـــًا أن تزورهـــا فــى حياتها .. كانت جولاتهما فى المتاحف الأثرية والجيولوجية والعلمية ويرغمهـــا علـــى أن تقضى الأيام والســاعات الطوال معه فى المكتبة الأهلية ، ويختار لها الكتب ويصحبهـــا إلى النوادى والمؤتمرات الأدبية .

أما الرحلات التى كانت تحلم بها ، والنزهات التى تتطلع إليها .. وخلـــوة تريــد أن يبثها فيها لواعج الشوق والغرام .. فهذا أصبح كالفاكهة المحرمة على العروس الشابة ..

وأمست حياتها قفرًا جرداء لا مرح ولا ضحك ولا بهجة فيها ، ولم تستطع الفلســفة والعلوم أن تملأ فراغها .. فسقطت فى دائرة اللامبالاة .. واللاهتمـــام .. باختصـــار لقــد تحولت مارلين إلى راهبة .. دخلت الدير وهى لا تؤمن بالرهبنة .

وجاهدت لإرضاء ميللر وإغرائه فكانت فى خلوتها تكتب وتخرج ما فـــى صدرهـــا مدادًا أســود ، وأحمر وأزرق .. لقد كانت تكتب بأقلام الروج والمكياج وتعبر عــن كــل حالة بقــلم من هذه الأقلام ، فكتبت الشعر ولم تطلع زوجها عليه ، واعتبرت ذلــك ســرًا خافيًا .. فكانت بطبيعتها خجولاً وتخشى أن يسخر منها ، ولكنها تطلـــع عليــه أخلــص صديقاتها .

وأصبحت تشاهد وهى تدخل النوادى الليلية وأماكن الرقص وقد أخفت عينيهـــا وراء نظارة كبيرة سوداء .. وأصبحت أكثر نحافة ، وأشد اصفرارًا .. وترتسم علـــى وجههـــا معالم اليأس .. فلقد حطم روحها .. وإن ابتسمت لصديق فمن سبيل المجاملة حتـــى أنهـــا تظهر وكأنها تغتصب الضحكة .. ولا يمكن أن يكون مثل هذه الضحكة لمـــارلين الفتـــاة البريئة والتى تتصرف بتلقائية شديدة .

وبدأت المواجهة بينها وبين الزوج .. ولكنها أمامه لا تستطيع أن تتكلم وتقف كالتلميذة البليدة التى ارتكبت خطأ لا اعتذار عنه ..

فذات يوم تعود من الخارج .. وتدخل إلى حجرة نومها .. فإذا بمفاجأة .. صورها على سريرها الحريرى الناعم .. والصورة فوتوغرافية تبدو فيها مارلين وقد وقف أمامها لحظة بدت دهراً .. وبلهجة باردة للغاية قال :

" هل تعتقدين أن المهنة التى تحترفينها هى فن حقيقة " ؟ .

كالعادة احمر وجهها ، وتلعثمت وراحت تعتذر .. وكانت كلمات الزوج طعنة أصابتها فى الصميم .. وحين روت الحادثة لأصدقائها فيما بعد والألم يعصر قلبها ، والدموع تنساب من عينيها .. كانت تحاول الاعتذار .. وما ذنبى فى هذا ؟ لقد أراد المخرج من أن أبدو على هذا النحو إرضاءً للمشاهدين ؟ ..

وازدادت قسوة الزوج المعلم .. ولم تقف عند هذا الحد .. ففى ديسمبر عام ١٩٦٠ وعلى أثر مشادة بينهما قال لها : " عندما تموتين لن يبقى منك سوى بضع صور تمثل الجاذبية الجنسية " .

كانت تلك العبارة أكبر إهانة تعرضت لها فى حياتها .. وزاد من حدتها أن قائلها هو الرجل العظيم جداً والتى فتنت به من النظرة الأولى.. وكانت تلك الإهانة نقطة تحول خطيرة فى حياتها .. لقد شعرت أنها لا شىء ، وأن حياتها غير ذات قيمة .. ومنذ تلك اللحظة انكبت على الشراب وأفرطت فيه كأنما شاءت أن تفرغ اليأس فى الكأس ..

وأخذت تنحدر بشدة نحو الهاوية .. وهى تتساءل : " هل هذه حياتى ؟ وهل هذا مصيرى ؟ إذن فالحياة عبث ؟.. ألم يقل الكاتب العبقرى ذلك ؟ وإذن ما قيمة الحياة ؟ .. وهنا أخذت تسيطر عليها فكرة التخلص من حياتها التافهة ..

ولكن مارلين كانت تثور أحياناً .. ولم تكن تتردد فى أن تلقى على مسامع العبقرية ألفاظاً قاسية .. فذات مرة وقد أفرطت فى الشراب واجهته بقولها :

من أنت ؟ .. ماذا ترى فى نفسك ؟ .. أنت لست سوى كاتب يدفع له الناشر أجره بالسطر ؟ ..

هل تظن أنك مثل تولستوى ؟ يالك من مغرور ؟ قالتها وهى لا تعى ثم تناولت كأسا أخرى عساها تستعيد من محتوياتها الشجاعة ..

وبالرغم من كل هذا السيل من الإهانات المتبادلة كان آرثر ميلـــلر يحوطهـــا بكـــل دروب العناية ، فكان ينوب عنها فى توقيع العقود مع الشركات ، ويشرف علـــى وكـــلاء دعايتها ، ويختار لها ألوان الملابس التى ترتديها ، والسيارات التى تركبها ، وأحمر الشفاه الذى تستعمله .. كان يعاملها كما يعامل الأب طفله الصغير المدلل والذى لا يعرف أيـــن مصلحته ..

وحين طلقها قال لها :

" خلال فترة زواجنا كلها لم أكتب سطراً واحـــداً .. هذه أكبر خـــدعة وقعت فيهـــا فى حياتى ".

فلقد فشل ميللر فى خلق طراز جديد من الفتاة الضاحكة الجميلة ، ونجح فى تحطيـــم روحها ، وجعلها تشك فى مقدراتها .. بل وفى قيمة حياتها ذاتها .. لقد ســـلبها الأمـــل ، وأفقدها الرغبة فى الحياة أو الحرص عليها .

ثم وقع الطلاق وظهرت مارلين فى صورتها اليائســـة الجديدة .. وأصبحـــت تنفـــق على طبيبها النفسانى مالا يقل عن خمسة وعشرين ألف دولار فى الشهر الواحد ..

وأصبحت تعيش على المنبهات حتى تظل فى حالة اليقظة .. وعلى الحبوب المنومة حتى تتمكن من النوم .

لهذا فحين كانت تمثل فيلمها Mis Fits كانت تتناول فى اليوم الواحد عشرين قرصاً منبهاً حتى تتمكن من الاحتفاظ بنشاطها وحيويتها .



الأفــــلام

من بين الأفلام التى أصابت مونرو فيهـــا نجاحًـــا ملموسًـــا " البعــض يفضلونها سـاخنة " أمام جاك ليمون وتونى كيرتس ، رغم أنها أرهقت كل العاملين بها بعدم الالتزام بالمواعيد .. وتسببها فى الغاء التصويـــر مرارًا وتكرارًا .

ثم مثلت " وقت للحب " أمام الفرنسى " إيف مونتان " .. الفيلم فشـــل .. واســتمالت مارلين إيف وأصبحت علاقتهما حديث الصحافة .. وهو الشىء الذى هدد زواجهـــا مــن آرثر ميللر .

" الغرباء " سيناريو الزوج آرثر ميللر ، وكان آخــر فيلم تكمل تصويـــره إخــراج جون هيوستون المخرج العظيم .. وتوقع النقاد له نجاحاً كبيراً .. ولكن مونـــرو بتقلبــات مزاجها ، وحالتها العاطفية غير المعتدلة عطلت سير العمل فيه كثيرًا حتـــى أنــه عندمــا اكتمل الفيلم ارتفعت ميزانيته فوق إمكانية الربح .. وكانت تقول : " صرت عبئًا ثقيلاً على نفسى ، وعلى الناس . وصار الناس أنفسهم عبئًا ثقيلاً لى ، وظلوا ينتظروا أن أقدم لهـــم المعجزات ثلاث مرات فى اليوم ، ومرة عند اللزوم ، وقالوا إننى جميلة وحبســونى فـــى قفص ذهبى لينظروا إلى كلما ازدادت حياتهم قبحًا ، هل نسوا أننـــى إنســانة مثلهــم " .. مرضت مارلين بعد الانفصال عن ميللر .. ففى ربيع ١٩٦٢ انتقلت إلى لـــوس أنجلــوس لتتلقى علاجًا منتظماً من طبيبها النفسانى الخاص .. لكن عدم مقدرتها على النـــوم اتخــذ شكلا مرضيا ، وعادت من جديد إلى إدمان المهدئات .. ولم تعد قادرة على حفظ دورهـــا فى الرواية التى تمثلها ، وأصبحت عاجزة عن النطق بالعبارات متماســكة ومتجانســة .. وبدأت تفقد القــدرة على التمثيل بعد أن فقدت السيطرة على أعصابها وفقدت ثقتهـــا فـــى نفسها ولم تعد تحترم مواعيد البروفات .. ولم تعبأ بتحذير أو بإنذار ..

وذات مرة قال لها المخرج إنها أصبحت لا تستطيع الوقــوف أمام الكـــاميرا كمـــا ينبغى .. فما كان منها إلا أن ارتدت ملابسها ، وركبت سيارتها واختفت من البلاتوه .

وراحوا يفتشون عنها حتى وجدوها فى اليوم التالى على مســـافة ١٠٠ كيلـــو فـــى معسكر للهنود الحمر وقدارتدت ملابسهم القومية ، وقالت بصوت ناعم : " إنى أؤمن بهذا الدين العظيم عن السلام الباطنى بعد أن أصبحت روحى فارغة .. إن أسرتى هنا " .

وكان أول من وجدهــا كلارك جيبل الذى راح يقنعها بالعودة معه ويعاملها كأنهــا طفلة شــاردة ..

وفى هذا الوقت كانت قد قررت الانتحار والخلاص من حياتها ، ولكن الذى أنقذهــا هذه المــرة كان إيف مونتان الذى لازمها بعد عودتهــا إلى نيويورك .. كـــان يضحــك أمامها .. ويغنى لها ، ويحاول إدخال السرور على نفسها .. وأهم من هذا كله كان يشــبه جون ماجيو .. الرجل الوحيد الذى أحبته مارلين فى حياتها حبًا صادقًا .

وكان آخر أفلامها " أحد ما يجب أن يعطى " والتى تركت التصوير فيــه وطـــارت إلى نيويورك لتغنى فى عيد ميــلاد الرئيس جون كنيــدى .. والتى كــانت علــى صلــة مقربة به ، وبصلة أقوى تصل إلى حد العشق والنوم مع شقيق الرئيس روبرت كنيـــدى.. والذى دارت كثير من التأويلات أنه كان آخر رجل جلس معها ليلة انتحارهــا .. ومــن هذه النقطة تدور الكثير من الأقاويل والإشاعات .. بأن روبرت كان له يد فى موتها .

وبعد الحفل عــادت مارلين إلى هوليوود فى محاولة لتصوير الفيلم .. ولكن حالتهــا النفســية لم تسمح لها بذلك .. فرفعت عليها الشركة قضية تعويض لإخلالهـــا بشــروط العقــد ..

ولم تلبث روح اليأس أن تغلبت عليها فأقدمت على الخلاص من حياتها .. لقد فقدت جون ديماجيو ، وانفصلت عن ميللر ، وعاد مونتان إلى زوجته .

وفتحت وصية مارلين فإذ بها قد تركت مبلغًا طيبًا لأمها .. ولكــن أيــن الأم التــى ورثت ستين ألف جنيه ، إنها تقيم فى مستشفى للمجانين لا تعلم.. بل ولا يمكن أن تقـــدر ، ما جرى لابنتها .. إنها تعيش هناك .. حياة فارغة من التفكير ولكنها خياطـــة مــاهرة . تخيط ملابس إخوتها المرضى .. وكذلك الممرضة التى ترعاها .

ووجدت مارلين مونرو ميتة انتحاراً بغرفة نومها فى الرابع من أغســطس ١٩٦٢.. وجــاء فى التقرير الطبى أن سبب وفاتها تســمم حاد نتيجة تناول كميـــات هائلـــة مــن المهــدئات .



فهرس



دار الأمين للطباعة والنشر والتوزيع

٨ ش أبو المعالى (العجوزة) الجيزة - ت/ فاكس : ٣٤٧٣٦٩١

١ ش سوهاج من ش الزقازيق (خلف قاعة سيد درويش) الهرم - جيزة
تليفون وفاكس ٥٦٣٤٦٩٩

عندما يكون الإنسان فى أحسن أوقات سعادته.. يكون معه الموت دائما.. وما اجتمع حبيبان إلا وكان الموت ثالثهما..!! فالعاشق يقول لمعشوقته.. أموت فيك.. وهى تقول له.. أموت فيك.. وأتعجب أنا أيضاً وأقول.. ولماذا لايقولان أعيش بحبك.. وأحيا فيك..!!

ومن دروب الموت وأذقته تنشأ أعظم قصص الحب الإنسانى الخالد.. حيث الحب فى أحضان الموت.. وحيث القبلات من فم النهاية. . وكلنا نعدو نحو النهاية.. بكل مافينا من أمل وألم.. بكل مافينا من حب وكراهية.

وعلى عكس كل طرق السباق.. يود كل متسابق أن لا تأتى نهايته أولاً فالنهاية تعنى الختام. والختام هنا لا يعنى الفوز.. بل دموع وآلام ووداع وضياع. ومع ذلك تقول قوانين اللعبة : إنك لكى تكسب فعليك أن تجرى معصوب العينين، وإن فاجأتك ضربة انهض وأكمل المشوار مع المجهول.. ولاتتوقف لشىء على الإطلاق.. لأن وقوفك لن يأتى إلا من داخلك، فصفارة النهاية لن تنطلق إلا مع آخر نفس.. ومن فوق كل القوانين تقفز بعض القطط لتخطف صفارة النهاية من أيدى القدر.. فهم لايريدون للصفارة أن يحملها سواهم.. و[illegible] أفواههم.. إنهم لا يرون الحياة إلا كونها معركة حاسمة.. فإما أن تغمد سيفك فى صدر عـ[illegible] فلتغمده فى صدرك.. منطق واحد لا يتغير.

"... إن جئنا للدنيا بلا اختيار.. فلنرحل من هذه الدنيا باختيارنا نحن.."



